طه حسين

حديث الأربعاء

٢

الطبعة الخامسة عشرة

دار المعارف

obeikandl.com

القدماء والمحدثون [1]

الجهاد بين القديم والجديد – مصدره ونتائجه في فروع الحياة المختلفة – مظهره في الحياة الأدبية – آثاره العظيمة في الأدب اليوناني،وآثاره الضئيلة في الأدب العربي.

لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم، التي كان لها نصيب من الأدب وحظ في إتقان القول وإجادته، من هذه المسألة "مسألة القدماء والمحدثين" ولم تظهر هذه المسألة في عصر من العصور أو عند أمه من الأمم، إلا أحدثت خلافًا عظيما وجدالا عنيفا، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقسامًا ثلاثة: قسم يؤيد القدماء تأييدا لا احتياط فيه، وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء، ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي، وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف.

كذلك كانت الحال قديمًا، وكذلك كانت الحال في هذا العصر الذي نعيش فيه. وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصورا على الأدب وحده، وإنما هو يتناول كل شيء، يتناول الفن والعلم، ويتناول الفلسفة، ويتناول الحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية، والسياسية الاجتماعية؛ وذلك معقول، لأن الحياة الإنسانية كما قلنا غير مرة، تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما، هما البقاء من ناحية، والاستحالة من ناحية أخرى.

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم والغد، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والجديد، مضطرون إلى أن نشعر بأن حياتنا الآن هي هن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن، فهي أثر قوي من آثارها،ونتيجة لازمة من نتائجها.

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكروهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهي تغاير من وجوه.

---

(١) نشرت بجريدة السياسة في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤١هـ، ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢م.

وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه، وبين الشعور بالتطور والحاجة إليه، مترددون في ميولنا وأهوائنا ولآرائنا. فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه، حتى تصبح غايته الحقيقة ألا يكون إلا ابن أمسه، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا تعرف لها أولا ولا آخر، وهي سلسلة الحياة. ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة، فيكلف بالجديد ويرغب فيه، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف، فلا يفكر إلا في شيء واحد: هو أن يعدو، وأن يعدو ما استطاع إلى الأمام، دون أن يقف فيفكر في حاضره، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه.

ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين، بين أنصار القديم المسرفين في نصره، وأشياع الجديد الغلاة في التشيع له: يشتد هذه الخلاف ويعظم، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا بقاء، وإنما هي محققة لهذين الأصلين تحقيقا طبيعيا غير متكلف ولا منتحل، تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم، فتتوسط بينهما، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة، والذي هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج، والذي هو المحقق الوحيد للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث.

نجد هذه النظرية في كل ضرب من ضروب الحياة العامة، عقلية كانت أو شعورية، سياسية كانت أو اجتماعية، وهي منتجة نتائج تختلف قوة وضعا باختلاف موضوعاتها، فأما نتائجها في الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة لا تتجاوز الخصومات اللفظية إلا قليلا، وكذلك الحال في الحياة العقلية الفلسفية. فأما في العلم فانتصار الجديد يسير محقق، لا خوف عليه ولا شك فيه، لأن العلم قد أصبح أقل الأشياء الإنسانية استعدادا للخلاف والمناقصات.

ولكن هذه النظرية إذا ظهرت في الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت في أكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها، لأن الحياة الاجتماعية والسياسية هما أشد ضروب الحياة مسيسا بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها، والإنسان بطبيعته عبد لمنفعته، يبذل فهيا حياته طيبي النفس قرير العين. ومن هنا لم نعلم أن خلافا أدبيا في أسلوب الشعر والنثر، أو أن خلافا في نظرية من نظريات الفلسفة، أو أصل من أصول العلم، أحدث ثورة سفكت فيها الدماء، وأزهقت فيها النفوس، واختل لها نظام الأمن، في حين كان الاختلاف في تقسيم الثروة، أو في نظام الحكم- وسيظل دائما- مصدر هذه الثورات التي أشرنا إليها.

وما لنا نذهب بعيدًا، ونحن لا نعلم أن شاعرًا قتل شاعرًا آخر لأنه يخالفه في الوجهة الشعرية، أو أن فليسوفا آخر لأنه يخالفه في أصل من أصول الفلسفة، لا نعلم شيئًا من هذا، ولكنا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد، وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة، لخلاف مصدره السياسة أو مصدره المال.

لا تذكر لي الخلافات الدينية التي أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد، فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات في الحياة العقلية أو الأدبية أو الفنية الخالصة، وإنما أحدثتها من إنها اختلافات في ضروب الحياة الاجتماعية والسياسية نفسها.

ستقول لي: ولكن الاختلاف في السياسة والاقتصاد وما إليهما من نظم الحكم وتقسيم الثروة، إنما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والأدبية والفنية.

وليس في شك. فإن سلسلة الحياة متصلة على اختلاف حلقاتها. ولسنا نزعم أن الحياة الأدبية مصدر الخير الخالص. وإنما نزعم أن هذه الحياة أشد ضروب الحياة الإنسانية براءة من العنف والظلم والشر، لأنها تكاد تنحصر في الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال.

إذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة، يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الجديد فيصبح هذا الجديد قديمًا ويظهر جديد آخر يحاربه.

ولعل من ألذ أنواع الجهاد بين القديم الجديد، وأحبها إلى النفس، هذا الجهاد الذي يقع بين الشعراء والكتاب في عصورهم المختلفة. هذا الجهاد لذيذ لأنه برئ، ولذيذ لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية، أحدهما قد أخذ يضمحل وينمحي، والآخر قد يظهر ويقوى. ولقد قلنا في أول هذه الفصل إن الأمم التي لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين، ولكنا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين يتفاوت تفاوتا عظيما باختلاف الأمم والأجيال، فهو منتج جدًا في أمة من الأمم، عقيم جدًا في أمة أخرى، معتدل الإنتاج في أمة ثالثة. ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال، فقد يختلف القدماء والمحدثون في الألفاظ، وقد يختلفون في المعاني، وقد يختلفون في الألفاظ والمعاني، وقد يختلفون في الأنواع الفنية نفسها، فتظهر الحياة الأدبية في هذا العصر في صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئًا.

انظر إلى الأمة اليونانية مثلا وإلى الشعر، تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر في لفظة ومعناه فسح، وإنما استتبع تطوره في نوعه أيضًا. فكان الشعر القصصي مظهر الشعور اليوناني أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها، فما عظم حظها من الحضارة المادية، وأخذ عقلها في التفكير، وذاقت لذة الترف والثروة، كان الشعر الغنائي مظهر شعورها، فلما قوى نصيبها من الحضارة، وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها، كان الشعر التمثيلي مظهر شعورها.

فالخلاف بين القدماء والمحدثين عند الأمة اليونانية كان عظيما معقدًا مختلف المناحي، لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع، في حين كان عند الأمة العربية ضيقًا محصورًا لا يكاد ينتج شيئًا، لأنه لا يتناول إلا اللفظ، وقد يتناول المعاني في عصر من العصور، هو أول العصر العباسي، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل في أواخر القرن الأول، وأوائل القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين، وكان أبو عمرو بن العلاء يروي كارهًا شعر جرير، لأن هذا "المولد" كان مجيدًا. ثم ظهر الخلاف في منتصف القرن الثاني بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين، أي ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء، وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر. ثم ظهر الخلاف في القرن الثالث بين الذي كانوا ينتصرون للبحتري وأبي تمام، والذي كانوا ينتصرون لأبي نواس ومسلم. ثم ظهر الخلاف في القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبي، والذين كانوا ينتصرون لأبي تمام.

فأنت ترى أن كل هذا لعصر الأدبي الذهبي عند العرب كان مملوءًا بالاختلاف بين القدماء والمحدثين، وليس عليك إلا أن تنظر في كتب الأدب على اختلافها، لترى هذا المقدار الموفور من الكلام الكثير الذي قيل وقيل في الانتصار للشعراء، وتفضيل بعض من على بعض، سواء منهم أبناء الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلا وعصرًا. ولكن أريد أن أعلم قيم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين؛ وما نتائجه الكبرى؟

الحق أني أكاد أعلم ذلك، فقد كان الخلاف قبل كل شيء في اللفظ، ثم في المعنى، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين.

كان القدماء والمحدثون أيام بني أمية يختلفون في اللفظ اختلافا ظاهرًا، وكانوا يتخذون اللفظ مقياسًا لجودة الشعر، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة، وكلما كان رصينًا يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيدًا، أي إن جزالة اللفظ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية في العصر الجاهلي كانت هي المزية الأولى للشاعر، ثم تأتي بعد ذلك جودة المعنى والتعميق فيه.

ثم ظهر هذا الخلاف بينه في أول العصر العباسي، فاختلف الشعراء العباسيون، واختلف معهم الأدباء واللغويون في أي الشعريين أجمل وأرقة وأحسن: الشعر الذي يحتذي شعراء الجاهلية والإسلام في متانة اللفظ ورصانته وبداوته، أم الشعر الذي يتخير الألفاظ السهلة العذبة التي ألفها الناس عامة، لا علماء اللغة خاصة؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر في المعنى فاختلف الشعراء في معاني الشعر: أتبقى كما كانت بدوية أعرابية، أم تتحضر كما تحضر الناس؟ أتصف الأطلال والخيام والصحراء والإبل والخيل والسلاح، أم تعدل عن هذا كله إلى القصور والأنهار والرياض والمدن؟ ثم أتتناول الشعور الإنساني فتصفه لا كما لا يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر، بل كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية والمستطرقات التي لم يعهدها الأعراب؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد؟

ظهر هذا الخلاف، وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجًا وأكثرها خصبًا، لأن أنصار الجديد– وعلى رأسهم أبو نواس – أقدموا غير خائفين ولا وجلين، فوصفوا لنا الحياة الجديدة دقيقها وجليلها، مفصلها ومجملها، فجددوا الشعر من ناحية، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى. وكان هذا كمل ما عرف العرب من اختلاف في الشعر بين القدماء والمحدثين:

اختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التي أخرجت أبا تمام والمتنبي وأمثالهما من أصحبا البديع، واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس التي أخرجت البحتري وغيره من أولئك الشعراء الذي آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد، ولم يتكلفوا بديعًا ولا استعارة ولا جناسًا.

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين وهذا كل ما أنتجه الخلاف، وهو على خطره ليس بالشيء الكثير، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه، ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغيرًا قليلاً جدًا. بقيت القصيدة

كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوحدة المعنى، وبقى موضوع الشعر كما كان مدحًا وهجاء ورثاء ووصفا" وغزلا، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير، ولم يكن تجددها جوهريًا ولا مطردًا، وإنما هو التجدد الذي يكفي ليشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد، وقد مضت القرون وتعاقبت، والشعر العربي في لفظه ومعناه وصرته وموضوعه كما كان قديمًا، لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذي أشرنا إليه.

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة، وأن نتبين الأسباب القوية التي أكرهت الشعر العربي المحافظ على أن يتصور قليلا، ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك في الأسبوع الآتي.

obeikandl.com

القدماء والمحدثون [1]

رأينا في الأسبوع الماضي أن الآداب العربية، قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التي تشترك فيها الآداب الحية جميعا: ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين، ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه، لم ينتج لهذه الآداب شيئا كثيرا في الشعر على أقل تقدير، وسنعرض للنثر في غير هذا الفصل.

لم ينتج شيئًا كثيرًا، فظل موضوع الشعر كما كان لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات، وظل شكل الشعر كما كان، لم يخترع فيه شكل جديد، ولم تضف إليه صورة طريفة، وإنما بقيت القصيدة مظهرًا للعشر محتفظة بأوزانها وقوافلها.

وإذن فلم يحدث تطور الأمة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئا ذا خطر في موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون،وإنما أحدث شيئًا جديدًا في لفظ الشعر ومعناه كما قلنا في الفصل الماضي، وربما اضطررنا إلى أن نقول اليوم أيضًا إن هذا الشيء الجديد كان أقل جدًا مما كنا ننتظر، فإن الحياة العربية تطورت في القرن الأول والثاني للهجرة تطورًا يوشك أن يكون كاملاً؛ بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربي تبدلت في هذين القرنين تبديلاً" تام؛ فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب، فتتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها.

ولكن شيئا من ذلك لم يكن، فبينما كانت الحياة في بغداد أبعد ما تكون عن الحياة في صحراء جزيرة العرب من كل وجه، كان الشعر الذي ينشد في بغداد شديد القرب جدًا من الشعر الذي كان ينشد في تلك الصحراء.

وإذن فنحن بإزاء ظاهرتين لابد من تفسيرهما: الأولى أن الحياة العربية قد تطورت تطورًا كاملاً، وأن الشعر العربي قد تطور معها تطورًا ما؛ والأخرى أن تطور الشعر لم يكن مناسبًا لتطور الحياة في جميع فروعها.

وربما لم يكن من العسير جدًا تفسير هاتين الظاهرتين، ذلك أن الأمة العربية قد خضعت خضوعا تاما لمؤثرين مختلفين اختلافًا تامًا، فينما كان أحدهما يدفعها دفعاً؟ قويًا إلى الأمام فتندفع، كان الآخر يجذبها جذبا قويا إلى الوراء فتنجذب. كانت تندفع إلى الأمام اندفاعا قويا في

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ – ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٢.

الحضارة المادية، يمثل قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحدائقها ورياضها، وما تشتمل عليه هذه القصور والحدائق والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها وبين خيام الصحراء وما كانت تحتوى من مظاهر العيش الخشن والحياة الساذجة. وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية، فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطور وآثاره السيئة، واجب ديني لا سبيل إلى جحوده أو التقصير فيه.

إذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعًا إلى حيث لا يكون تقدمه مصدر شر على الدين أو لغة الدين،وكان يبطئ ف حركته حين يكون التقدم خطرًا على هذه أو ذاك.

ومن هنا كان التناقض ظاهرا بين حياة العرب المادية في تفصيلها وبين حياتهم الأدبية في إجمالها، فكانوا أحرارًا في الحياة المادية، محافظين في الحياة الأدبية.

وكان الشعراء الذين يجرءون على أن ينكروا هذه المحافظة، ويحاولون تحرير الشعر قليلا أو كثيرًا، موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر، ولا ضئيلة الأثر في الحياة العامة؛ كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراص على القديم، أعداء لكل جديد،وكان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية، مضطرون إلى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب، بل ألفاظها وأساليبها أيضًا، فكانوا يكرهوا كل لفظ دخيل، وينفرون من كل أسلوب مستطرف. وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها و لا يؤذيها، فتستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهى الفقهاء والوعاظ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الأكل والشرب واللباس والزينة وما إلى هذا من ضروب الحضارة؛ أضف إلى هذا كله، أن الأمة العربية بفطرتها حريصة على سنتها القديمة، محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية، وأن الآداب العربية القديمة في نفسها جذابة محببة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب، فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله،

وأن يكون موقف الشعراء المجددين، كموقف الفلاسفة المجددين، ثقيلا شديد الحرج، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب.

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون في العصر العباسي ضروبا من المحن تختلف قوة وضعفًا باختلاف الخلفاء والوزراء، كانوا محببين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء، فكثير من هؤلاء الخلفاء، والوزراء كان يحب شعر بشار ويلذ لشعر أبي نواس، ومع ذلك فقد ضرب بشار، حتى ما، وحبس أو نواس في عصر الرشيد كما حبس في عصر الأمين، ولو أدرجه المأمون لقتله، مع أن إعجاب المأمون بأبي نواس شديدًا جدًا.

ومصدر هذا التناقض في سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيريهم كانوا يحيون حياتين مختلفتين: حياة للشعب يحتفظن فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية، فهم من هذه الناحية محافظون؛ وحياة لأنفسهم، ولخلصائهم في القصور ومن وراء الحجب، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية، فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقترفون ضروبًا من الآثام.

أضف إلى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة، أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب، وإنما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس؛ فكان الشاعر أو المفكر لا يُفتَن لأنه شارع أو مفكر فحسب، بل قد يفتن أيضًا لأنه يرى رأيًا سياسيا لا يراه السلطان، لأنه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع، لأنه يرى رأي العلويين، لأنه يؤثر الفرس على العرب، إلى آخر هذه المسائل الكثيرة التي نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين.

كل هذه الأسباب جعلت تطور الأدب عامة – والشعر خاصة– بطيئًا قليل الإنتاج؛ ولكن هناك سببا نعتقد أنه هو السبب الأساسي الذي حال بين الشعر العربي وبين ما كان ينتظر له من التجديد، هذا السبب هو أن الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئًا يذكر، ولم تخالط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جدًا، فلم تعرف من آثارها إلا شيئًا من العلم والفلسفة، ونتفًا من الحكم والأمثال، فجهلت الأمة العربية جهلا تامًا، أو جهلا يوشك أن يكون تاما، آداب الأمة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الموفور، ولم تكد تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية، وروايات مشوهة في الحكم والأمثال، وسياسة الملوك، ولم تكد تعلم من أمر الهند إلا شيئا من النجوم، وقليل من المواعظ والوصايا.

ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبي جديد يحتذونه ويسعون في تقليده ومحاكاته، فظلوا على ما كانوا عليه، يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقافيه وبألفاظه ومعانيه، لا يجددون من هذا كله إلا ما يضطرهم إلى تجديده نوع الحياة الجديدة الذي هزم فيه، وهم في هذا

التجديد القليل نفسه، مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية. وقد علمنا تاريخ الأدب في جميع العصور وعند جميع الأمم، أن الحضارة المادية وحدها لا تكفي لترقية الشعر ودفعه في سبيل التطور المنتج، وإنما يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة الدينية للشعوب الأجنبية، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الأمم المعاصر، لما تطور شعرهم هذه الأنواع من التطور. وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور لآدابهم،وقل إن الأمم الأوروبية مدينة بتطور آدابها لهذه الحركة التي حدثت في عصر النهضة، فأظهرت الإيطاليين وغير الإيطاليين على آداب اليونان والرومان.

ويطول القول إذ أردنا أن نذكر أثر اختلاط بين الأمم الأوربية نفسها في الآداب الأوروبية الحديثة، وقد حرم العرب هذا الاختلاط، فحرم الأدب العربي نتيجته، وهي التجديد المنتج، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية، فجهلوا الشعر القصصي، والشعر التمثيلي، وجهلوا من الشعر الغنائي نفسه فنونا كثيرة وضروبا مختلفة، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربي، وتجدد تجددًا ما، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هذا التجديد وما قيمته، وأين يوجد الفرق الواضح القوي بين الشعر العربي الجديد والشعر العربي القديم، وموعدنا بهذا الفصل الآتي.

obeikandl.com

القدماء المحدثون [1]

تجدد الشعر في العصر الأموي – الغزل الإباحي– الغزل العفيف – الشعراء المتوسطون بين هذين الفنين.

نظلم العصر الأموي– ونظلم معه تاريخ الأدب العربي، إن زعمنا أن التجديد الذي تناول لفظ الشعر ومعناه، إنما حدث في العصر العباسي خاصة، فإن العصر الأموي قد كان عصر تجديد أيضًا، بل قد كان عصر تجديد قوي ظاهر في اللفظ والمعنى.

وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجًا من عصر العباسين، فقد حاول الشعر في هذا العصر أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب، بل فيهما وفي الموضع أيضًا، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقًا تامًا، لأن عصر الأمويين لم يطل، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان، وإنما كان عصر تحول وانتقال، وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسي ما بدأه العصر الأموي من تجديد موضوع الشعر، ولكنا سنرى في غير هذا الفصل ان هذا لم يتح للشعر العربي، لأن العصر العباسي سلك بالأمة العربية طريقًا جديدة، مغايرة شديدة للطريق التي سلكها العصر الأموي.

لم يكد يمعن المسلمون في الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة، والروم من جهة أخرى، حتى تغير كل شيء في حياة الطبقة العليا من الأمة العربية، وكان مصدر هذه التغير شيئين: أحدهم مادي، وهو كثر ما أفاء الله على المسلمين، في هذا الفتح والتغلب، من المال والغنائم الموفورة، التي بذلت حياة هؤلاء الناس، فجعلتها يسيرة بعد عسر، سهلة بعد صعوبة لينة ناعمة بعد شدة وخشونة. والآخر معنوي؛ فقد رأى العرب في هذه البلاد المفتوحة نظمًا للحكم والسياسة لم يألفوها، وطرقًا للإدارة وتدبير الأمور العامة لم يعهدوها من قبل، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسة أيضًا، ونتج عن هذا التأثر المزدوج، أن استبدال العرب بالخيام دورًا وقصورًا فيها ضروب الدفء واللذة، وحالوا أن يستبدلوا بالخلافة التي كانت بدوية في كل شيء ملكًا حضريًا في كل شيء، وما لبثوا أن وقفوا إلى الأمرين جميعًا.

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤١– ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢م.

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثارا ظاهرة قوية في حياة العقل والشعور، فإن الحضري يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوي في شعوره وتفكيره. وكذلك يشعر الرجل الغني المنعم الذي لا تشرق عليه الشمس إلا اشتد طمعه في اللذة والنعيم، بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذي أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة.

ثم إن الأمة العربية كانت أمة ذات عصبية شديدة، فمل تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم، أو تذعن لسلطان ثابت الملك، وإنما كانت قبائل وشعوبًا، ترى كل قبيلة من نفسها السيادة والسلطان، وكان هناك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبية أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة، وكانت هناك فكرة جديدة تحاول أن تمحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة.

ومن هنا كان تجدد الشعر ملائما كل الملاءمة لتجدد الحياة، فنشأ عند العرب في عصر بني أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفهما الجاهليون، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمها والعناية بهما: الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة، وهو "الغزل" وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب، فنحن نعلم ذلك ولا نشك في أن الشعراء الجاهليين جميعًا قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء، وإنما نريد أن فنا جديدا قد نشأ في هذا العصر لم يكن موجودًا من قبل وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه، لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر، هو فن الحب من حيث هو حب، هو الفن الذي يعني به شاعر قد فرغ من كل شيء، فحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه، فلك ما يعينه هو أن ينعم بهذه اللذات، وأن فينها في شعرهن، لا أكثر ولا أقل.

ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه، فلسنا نعرف في العصر الجاهلي شاعرًا قصر شعره على الغزل، وحياته على الحب والغرام، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر، أو بعبارة أصح: كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر، كان العرب يبدءون قصائدهم – مهما يختلف موضوعها – بوصف الطلول والنساء، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر. وقلما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقصر قصيدة بأسرها على الغزل.

وليس الأمر كذلك في عصر بني أمية؛ فقد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفنا مختارا، لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه، فهم لا يمدحون ولا يهجون، وإنما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء في أ،فسهم من عواطف وأهواء وميول، فإن طلبت إليهم القول في شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا.

وفي الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفا متنوعًا في هذا العصر باختلاف الشعراء، واختلاف ضروب الحياة التي كانوا يحيونها، فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم وافتنانهم فيما يتذوقون عن نعيم الحياة، وزعيم هؤلاء الشعراء "عمر بن أبي ربيعة" ذلكم الذي أقام بمكة فأتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها، ولم يكتف بالوصف والقول، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير، وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون إلى وصف الذات وما تستتبعه، وإنما يقصدون إلى شيء آخر، يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة، التي تعذب صاحبها وتعنيه دون أن تتيح له لذة مادية ما، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها، والتي هو بها كلف وعليها حريص، هي لذة الألم بأنه يحب، ويحب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه،وزعيم هؤلاء الشعراء "جميل" الذي أمضى حياته، وقصر شعره على حب "بثينة"، لا يطمع من هذا كله بشيء إلا الشعور بأنه يجب وبأن حبه لا حد له، وبأن هذا الحب يضنيه ويعنيه، وبأنه يجد في هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة بل كان يطمع في شيء آخر، وهو أن تحس صاحبته ما يدخر لها من حب وما يلقي في سبيلها من ألم.

كان "عمر بن أبي ربيعة" زعيم المتغزلين الإباحيين، وكان "جميل زعيم المتغزلين العذريين، وكان بني هذين الرجلين المتناقضين، شعراء يتوسطون في الأمر في فيبيحون أحيانا ويعفون أحيانا أخرى، وربما كان كلفهم بالفن الشعري والإجادة فيه، أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة، أو بالعفة لأنها عفة، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ماهر في تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقا للعفة وطهارة القلب، وإنما كان يعنيه أن يقال: لقد تغزل فأجاد الغزل، وشبب فأحسن التشبيب، وهؤلاء الشعراء كثيرون، ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده، وإنما تناول مع الغزل فنونًا أخرى. ومن هؤلاء الشعراء "كثيِّر" الذي تغزل فأكثر الغزل، واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصدر حبه الغرامي وهي "عزة"، ولكنه مدح وارتزق من شعره. ولست أشك – والرواة لا ينكرون ذلك – أن كثيرًا لم يكن صادق الحب و العفيفة، وإنما كان يتخذ الغزل صنعه، ويقفوا فيه أثر أستاذه جميل.

ولقد راج هذا الفن الجديد في عصر بني أمية رواجًا طاهرًا جدًا، نشأ عنه أن كلف به الشعب، فأضاف إلى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها، واخترع شعراء ربما لم يكونوا قط، وألف لهم فصولا من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة، فمن ذلك حياة "قيس بن الملوح" "وليلاه" ومن ذلك هذه الأخبار الكثيرة المسرفة التي تضاف إلى "قيس بن ذريح" و"لبناه".

ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن، واختراع المواقف الحرجة المعضلة التي ليس لها حل وليس منها مخلص، ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذان البيتان اللذان يضافان إلى ليلى الأخيلية:

وذي حاجة قلنا له لا تبح لها فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وحليل

فانظر إليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير، موقف عاشقين كلفين، ليس على وصالهما سبيل، لأن كليهما متزوج، ولأن كليهما وفي عفيف.

لا أشك في أنك ستقول ليس في هذا الموقف شيء من الغرابة، فقد كانت ليلى متزوجة وكان "توبة" متزوجا، وليس غريبا أن يكون كلاهم وفيا عفيفا، لا أشك في أنك ستقول هذا، وقد أقوله أنا أيضا، ولكني لا أدري لماذا أميل ميلا قويا جدا إلى اعتقاد أن هذا الوقف موقف فني اخترعته الشاعرة لتجيد في الفن، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الحياة الواقعة.

ومهما يكن من شيء، فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عظم شأنه عند العرب في هذا العصر، واختلفت مذاهب الشعراء فيه، فذهب بعضهم فيه مذهب اللذة، وذهب الآخرون فه مذهب العفة.

وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار، الذي ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم،وحيل بينهم وبين العمل السياسي لأمر ما.

ومن هنا كانت مكة والمدينة – في هذا العصر – أقرب إلى اللهو والمجون والافتتان في اللذة، وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل، من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخليفة؛ وإن الذي ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا في هذا المذهب كانوا من أهل البادية، بل إن الشعراء الذين اخترعوا – ولم يعرفهم التاريخ – كانوا أيضا يخترعون في البادية، وكانت عشيقاتهم من نساء البادية أيضا، ولقد يكون من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة والإباحة، أقرب منهم إلى هذه الحياة العذرية.

وإذن فقد يحسن أن نفترض أن شعورا جديدا قد أخذ في هذا العصر يستأثر بالنفوس العربية، وأن هذه النفوس قد خضعت في هذا العهد الجديد لنزعة جديدة هي الطموح إلى المثل الأعلى والسمو إلى حياة عقلية وشعورية جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل، ولكن هذا افتراض لم أوفق إلى تحقيقه بعد.

على أن الشعراء آخرين الذي كانوا يمثلون السنة المورثة، ويذهبون مذهب الجاهليين فيمدحون ويهجون ويصفون، قد تأثروا بهذا الفن الجديد، قمع أن حياته الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل، فإن هذا الغزل نفسه قد رق ولطف في شعر الفرزدق وجرير والأخطل حتى أصبح الفرق بينه وبين غزل الجانيين ظاهرا بينا، فقليلا ما تجد في شعر الجاهليين غزلا يقارب في عذوبة اللفظ وسحره، وفي لطف المعنى ودقته. وقول جرير:

إن الـذين غـدوا بلبلـك غـادروا وشـلا بعينـك مـا يـزال معينـا

غيضـن مـن عبـراتهم وقلـن لـي مـاذا لقيـت مـن الهـوى ولقينـا

فانظر إلى هذا الشطر الأخير "ماذا لقيت من الهوى ولقينا". انظر إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع، وحسن موقعه من النفس، وانظر إلى دقة معناه ولطفه، وإلى سعة هذا المعنى التي لا حد لها، والتي عجز الشاعر عن أن يستقصيها، وأراد أن يشعرك بهذا العجز، فعمد إلى الاستفهام "ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟" شيء ليس إلى وصفه ولا إلى تحديده من سبيل، فهذا هو الفن الأول الذي استحدث في الشعر العربي أيام بني أمية ولنختصر...

نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين "مذهب اللذة" ورافع لوائه "عمر بن أبي ربيعة" ومذهب العفة، ورافع لوائه "جميل بن معمر". ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون، فمنهم من اتخذ الغزل صنعه وفنا فحذا حذو أولئك أو هؤلاء، ومهم ن سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة، ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجديد فرق لفظه وسهل. ودق معناه ولطف.

أما الفن الآخر الذي استحدث أيام بني أمية فهو "الشعر السياسي"، وقد نشأت عن استحالة الخلافة إلى ملك،وعما كان من حرب بين العصبيات من جهة، ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى، ولعل من الخير أن نرجئ بحث هذا الموضوع إلى حديث الأسبوع الآتي..

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر في العصر الجاهلي العباسي – أسبابه العامة – نموذج من نماذج هذا التطور.

رأينا أن تطور الشعر في عصر بني أمية كان قويا منتجا من بعض الوجوه؛ فقد تناول اللفظ والمعنى وأحدث فنين جديدين: فن الغزل وفن الشعر السياسي وقلنا في آخر الفصل الماضي: إن تغير الحياة العربية أيام بني العباس أثر في حياة العشر تأثيرا ظاهرا، فمحا الفن السياسي محوا، وحوّل الغزل عن طريقته الأموية.

وفي الحق أن الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقا تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية. فنشأت معان جديدة. وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها، ونشأت عن هذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام. ذلك أن الحياة في عصر بني العباس كان جديدة من كل وجه، فانقطعت الصلة شيئا فشيئا أو كادت تنقطع، بين هذه الحاضرة البديعة التي كانت تزدهر في بغداد وضواحي بغداد، وبين هذه البداوة القاسية الخشنة التي كانت تبسط سلطانها على بلاد العب، فبينما كانت دمشق، على حضارتها أيام الأمويين، ملتقى للجديد والقديم، وبينما كان الحضري الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة، وكان الدوري المغرق في البداوة يستطيع أيضا أن يعيش هذه العيشة وكان كلاهما يستطيع أن يفهم صاحبة بدون مشقة أو عناء، وبينما كانت الخلفاء من الأمويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم، وعلى كثرة ثروتهم وغناهم، وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة، بادين في لغتهم وسيرتهم الظاهرة، بينما كانت دمشق وأهلها على هذه الحال، كانت بغداد على حال تخافها كل المخالفة، فهي مدينة بنتها الحضارة الجديدة، وبنتها في أرض قد بعد عهدها بالبداوة، واختلفت عليها الحضارات الكثيرة،

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١– ٢ يناير سنة ١٩٢٣.

وأتاحت لها لطبيعة من خصب الأرض وثرائها واعتدال إقليم وصفاء الجو، ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقي والنمو في وقت سريع؛ فليس عجيبا أن يأنس إليها أهل احضر وينفر منها الأعراب ومن يشبه الأعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة، ولم يبعد عهدهم بالنعيم.

كان الحضري يأنس إلى بغداد، وكان البدوي ينفر منها وينكر نفسه فيها، ولم يكن خلفاء بني العباس يحبون البادية ولا يحنون إليها ولا يتكلفون في قصورهم عيشة أهلها، وإنما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة، واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مُثُلا يحتذونها في ضروب الحياة، ولم يحيطوا أنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بني أمية، وإنما استوزروا الفرس واستشاروهم، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة؛ فليس غريبا أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشام، وليس غريبا أن ينشد في بغداد والعراق شعر يحالف ما كان ينشد في دمشق والشام.

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت في هذا العصر تغيرًا شديدا مختلفا، فكان السلطتان الفعلي للفرس كما قدمنا، وكانت الحكومة المركزية في بغداد قوية شديدة البطش ممتدته في الأمصار والأقاليم، ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة، وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة، فانمحى هذا الفن ا لذي أزهر أيام بني أمية ولم يخلفه في الشعر فن جديد.

وهناك تغير آخر شديد الخطر وهو تغير الحياة ا لعقلية، فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التي سبقتها إلى الحضارة، فلم يقف هذا الاختلاط عن المحاورة والمعاشرة والحديث والتقليد،وإنما تجاوز هذا كله إلى ما هو أشد منه وأقوى أثرا في الحياة المادية والمعنوية: تجاوزه إلى الإصهار والتوالد من جهة، وإلى لاختلاط العقلي الخالص من جهة أخرى؛ فنشأت أجيال ورثت إلى المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير الفارسي، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة،وفي الفلك والنجوم، وفي السياسة والأخلاق وفي العلم والفلسفة. فلا جرم، كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد ف حا ية النفس العربية، أنتج أدبًا لم تنتجه تلك الحياة البدوية الخالصة في الجاهلية وصدر الإسلام، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة في أيام بني أمية أنتج أدبًا حضريًا خالصاً؟ يعبر عن شعور حضري خالص ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة، ولولا أن هذه الأجيال الجديدة لم تقرأ شيئًا من آداب هذه الأمم، وإنما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى – نقول: لولا هذان الشيئان لاستحال الشعر العربي استحالة أشد وأعظم أثرًا وأكثر إنتاجا من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها في هذه الفصول: ومهما يكن من

شيء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية في القرن الثاني للهجرة، تغيرًا للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل.

ادرس هذا العصر درسا جيدا، واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث، تدهشك ظاهرة غريبة هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم، دينا كان هذا القديم أم خلفا أم سياسة أم أدبًا.

فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشارا فاحشا، اضطر الخلفاء من نبي العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب، لأنهم اتهموا بهذه الزندقة، وظهر ازدراء الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة ا لعربية القديمة، بل ظهر ازدراء الأمة العربي نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهرا لهذا كله.

وليس يعنينا الآن أن تكون النهضة السياسية الفارسية، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير، وإنما الذي يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهورًا جعل إنكاره مستحيلا، فيكفي أن كان تقرأ شعر أبي نواس، وما كان بينه وبين أصحابه وخصومه من معارضة ومناقضة، لتعرف مقدار هذا التغير، ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعية، فنهض القديم للدفاع عن نفسه، واشتد الجهاد بينه وبين الجديد، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى... بالسيف حين يتعرض الدين أو السلطان السياسي للخطر، وباللسان حين لا يتعرض لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة.

ولعل من ألذ ما يقرأ عبث أبي نواس بالفقهاء والمحدثين، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبي نواس وأمثال أبي نواس.. لذيذ هذا الإشفاق وذلك العبث، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة في الحياة العربية، فقد كان أبو نواس محدثا روي عنه الشافعي، وكان مع ذلك فاجرا ماجنا يذيق المحدثين ألوانا من الأذى؛ فكان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى، ويشهرون به في دروسهم مرة ثالثة، فكان أبو نواس يجد لكل شيء من هذا جوابا، فيرد الواعظ ردا حسنا فيه شيء من التهديد، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير، ويكذب على من يشهر به، حتى لقد نظم مرة شعرا اختلق فهي حديثا رفعه إلى النبي ورواه عن أحد المحدثين المعاصرين، ثم كتب هذا الشعر وبعث به إلى هذا المحدث المسكين وكان تقيا ورعا. وروى ابن عساكر أن صاحبا من أصحاب هذا المحدث دخل عليه فوجده يبكي، فلما سأله عن ذلك قال للجارية: هات الرقعة، ودفع الرقعة إلى صاحبه، وهو يقول: انظر إلى الفاسق! لقد كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، والله ما حدثته بهذا قط.

وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة، ولكنهم كانوا يعبثون في هذا كما يعبثون في غيره، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها.. ولعلهم أقاموا الصلاة في مثل هذا الحال يوما،ي وأمهم أحد الندماء، فغلط وهو يقرأ "قل هو الله أحد" فاستحالت الصلاة من خشوع الله، إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل، فقال أبو نواس:

أكثـــر يحيـــى غلطـــا فـــي قـــل هـــو الله أحـــد

وقال العباس بن الأحنف:

قـــام طـــويلا ســـاهيا حتى إذا عيا سجد

وقال الحسين الخليع:

يزحـــر فـــي محرابـــه زحيـــر حبلـــى بولـــد

وقال الرابع ولعله مسلم بن الوليد:

كأنمـــــا لســـــانه شـــد بحبـــل مـــن مســـد

ومثل هذا ما تحدث به الجاحظ: أن خمسة من الظرفاء ذهبوا إلى دير يبتغون الشراب واللهو ،وإنهم لفي ذلك إذ قام أحدهم يصلي، وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم، فقالت: كم أنتم؟ن قالوا: أربعة؛ وأهملوا صاحبهم لأنه يصلي، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال: سبحان الله! وعرفت الدلالة أنهم خمسة...

كان هذا العصر إذن عصر شك في كل شيء، وعصر مجون وإباحة وتهتك في الحياة العملية وفي القول أيضا؛ ومن هنا نجد في هذا العصر شعرًا كثيرا نستطيع أن نقرأه في الكتب، دون أن نستطيع ترديده في الصف، بل في دار اكتب المصرية كتاب ف أ×بار أبي نواس ليس إلى نشرة من سبيل، لأن قوانيننا لا تبيحه، وليس إلى إصلاحه من سبيل لأن هذا الاصطلاح يذهب بخير ما فيه.

على أننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر، دون أن نضطر إلى مثل هذا الفحش إذا روينا لك قصيدة من شعر أبي نواس، ولم نحذف منها إلا بيتا واحدا ليس على روايته من سبيل، ولكنا نحجب أن نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى البيت في غير إثم ولا فحش، لولا أنه تعمد الإثم، لأن الإثم والفحش كانا بدع بغداد في ذلك العصر:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... ودواني التي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء
... .
قامت بإبريقها والليل معتكر ... فلاح من وجها في البيت لألأء
فأرسلت من فم الإبريق صافية ... كأنما أخذها بالعين إغفاء
وقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها ... حتى توالد أنوار وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم ... فما يصيبهم إلا بما شاءوا
لتلك ابكي ولا أبكي لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء
حاشا (لدرة) أن تبنى الخيام لها ... وأن تروح عليها الإبل والشاء
فقل لمن يدعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت أمرأ خرجا ... فإن حظركه في الدين إزراء

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها، كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقا، فليس فيها لفظ واحد غريب، وإنما ألفاظها كلما مألوفة تجريب على السنة الناس جميعا في أحاديثهم العادية،وليس فيها معنى واحد بدوي، وإنما معانيها كلها حضرية لا تحظر إلا لمن نشئوا في المدن وامتلأت رءوسهم بما يملأ رءوس أهل المدن من جد ولعب، بل في هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية، فهو يريد أن يبكي على الخمر لا على الأطلال والدمن:

لتلك أبكي ولا ابكي لمنزلة ... كانت تحل بها هند وأسماء

فإذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درسا مفصلا، رأيت هذه الإباحة في البيت الذي لم نروه،ورأيت في آخر القصيدة بيتا يعتز بالدين نفسه في نصر هذه الإباحة وتأييدها، فهو يريد أن يكون ماجنا فاسقا، وأن يستمتع باللذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله، وهو نيكر

على صديقه "النظام" وأصحابه من المعتزلة تشددهم في أمر العفو والخطيئة والتوبة، ويؤثر مذهب أهل السنة الذي يفتحون باب العفو أمام المذنبين، ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة، وأن يلهوا في مقتبل الشباب حتى إذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفوا الله. وكان المعتزلة يغلقون على ا لناس هذا الباب، فلا عجب إذا انصرف عنهم الشعراء وأهل المجون.

ويقال أن أبا نواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه،، فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره في طاعة الشيطان. وغلا بعضهم حتى أيأسه من الآخرة، فقال: أسندوني، وتكلف النهوض، وروى حديثا يضمن له عفو الله.

وقد تحدث الرواة بعد موته أنه دخل الجنة، لأن أحدهم رآه في المنام فسأله عما فعل الله به، فقال: غفر لي بأبيات قلتها، وهذه الأبيات في الزهد والند قالها في مرض موته،وزعم الرواة أنها وجدت تحت وسادته، وسنعرض لها حين نعرض لزهد أبي نواس.

إلى جانب هذا كله في هذه القصيدة معاني لا يمكن أن توجد، إلا في نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين، فانظر إلى قوله:

رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة وجفا عن شكلها الماء

فهذا أسلوب "النظام" وغير النظام حين كانوا يتكلمون في الجزء الذي لا يتجزأ، وفي كثافة الأجسام ولطافتها، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة، وكذلك قوله "حتى تولد أنوار وأضواء" فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص، والبيت الأخير من هذه القصيدة:

لا تحظر العفو إن كنت أمرأ حرجا فإن حظركه في الدين إزراء

ليس إلا وضعا لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبة. مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة.

هذه القصيدة إذن تمثل الحية الشعرية في بغداد أيام أبي نواس، ولكنها تمثلها تمثيلا مجملا، فإذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بينة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة، وجب أن تدرس حياة الجماعات الأدبية في بغداد والبصرة وهي شيء يشبه "الصالونات الأدبية" (les Salon Litéraires) في فرنسا إبان القرن الثامن عشر، وسنحدثك عن هذا في الأسبوع الآتي.

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر في العصر العباسي – الأندية

الأدبية – الشك والمجون.

كان أمر العرب مع الفرس كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة؛ فقد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام، وأخذوا منهما بنصيب موفرو، قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية، فلما جاء الإسلام، وكان الفتح، ومكن الله للعرب في بلاد الفرس، كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداوة العربية، بين اللين والخشونة، بين الحياة المترفة المعقدة، والحياة الساذجة الهينة.

لم يكن هذا الجهاد عنيفا حين كانت الحياة المادية موضوعة؛ فكل الناس يثر اللين على الخشونة، ويفضل النعمة على البؤس، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم، وإنما كان الجهاد عنيفا بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعا له، فاشتد النضال بين أنصال العادات العربية القديمة، والسنن العربية الموروثة، وأنصار العادات والسنن الفارسية. وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد، ولكنه لم يكد ينقضي، حتى ظهر انتصار الجديد، وأخذ القديم ينهزم أمامه، وينحصر في البلاد العربية الخالصة، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلاد شريك ولا منازع، في العراق والشام وغيرهما من البلاد التي خضعت للعرب، وكانت متحضرة قبل وصول العرب إليها. وكذلك كانت الرومان بعد أن أخضعوا اليونان، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحًا سياسيًا، ولكن اليونان فتحوا روما فتحا أدبيًا، كما قال الشاعر الروماني هوارس.

انتصرت الحضارة، واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية، وكان هذا لانتصار عامًا، تناول الحياة المادية والعقلية، وتناول معهما حياة الشعور. ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء،

---

(١) نشرت بالسياسة في يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ – ١٠ يناير ١٩٣٢.

وعاشوا كذلك في دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور، وهو الأدب، نثرًا كان أو شعرًا.

وقد أشرنا في الفصل الماضي إلى إن أول لعصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار، أنكر العقل العربي فيه قديمه، ولم يشتد اطمئنانه إلى الجديد، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في الحياة، وإنما عاش من يوم إلى يوم، فاحتمل الآلام كارهًا، واستمتع باللذات، راغبًا فيها، مستزيدًا منها، وكانت هذه اللذات كثيرة مختلفة، وكانت هذه اللذات ميسرة له، موفورة عليه، فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة، ولم تكن هذا المرأة عربية، وإنما كانت فارسية أو غير فارسية، ولم يكن الوصول إليها عسيرًا،وإنما كان شيئا سهلا ميسورًا، فقد كانت المرأة تابع وتشترى، وكثيرا ما كانت تنال بالهبة والعطاء.

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية، وإنما كانت أعجمية متحضرة، قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة، فرقّ طبعها وصفا مزاجها، وافتنت في تلطيف الحياة وترفيهها، وفي اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم،ولم تكن جاهلة، وإنما كانت متعلمة، ومتعلمة تعلما متقنا، فقد وجدت في ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة المختلفة، ولم تكن هذه المرأة حرة،محتفظة بكرامتها الشخصية، حريصة على أن تكونه لها منزلة السيدة، وإنما كانت مبتذلة ممتهنة، تباع وتشترى، كما يباع المتاع ويشترى.

وكان العرب مندفعين في هذا النوع من اللذة، يستمتعون به في غير قصد ولا احتياط؛ وإلى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الأخرى، لذات الطعام، ولذات الشراب، ولذات الأثاث، ولذات اللباس، ثم كانت توجد اللذات العقلية، كانت تترجم لها آثار الفرس وآثار اليونان، فيقرءون ويفهمون، ويتأثرون في حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون، ولم يكن من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة، أو ترغب فيها، وإنما كانت تصرف عنها، وتنفر منها، وتملأ قلوب الناس لها بغضًا، وليها سخطًا، فلا جرم آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم، على عيشة العرب وتفكيرهم، ووجد هؤلاء الشعراء والكتاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم، ويحتفلون بكل جديد، يجهرون بذلك حينًا ويُسرون حينًا آخر، يأمنون معه دهرًا، ويلقون في سبيله الموت من وقت إلى وقت. وُجد "مطيع بن إياس" الذي كان لا يبالي أكان عفيفًا أم غير عفيف، ولا يبالي أكان حرًا كريما نفي العرض، أم ممتهنًا مبتذلا مرذول السيرة، ووجد "حماد عجرد" الذي لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا، وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها، وينوعها ما استطاع إلى تنويعها سبيلا، والذي أسرف في المجون والتهتك، حتى

لامه أبو حنيفة وشهر به، فلم يجد حماد ردًا على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التي يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك، وأنه كثيرا ما شاركه في الإثم والمعصية:

إن كـــــان نســـــكك لا يتـــــ ـــــم بغيـــــر شـــــتمى وانتقاصـــــي

فاقعـــد وقـــم بـــي حيـــث شئـــ ـــــت مـــــع الأدانـــــي والأقاصـــــي

فلطالمـــــــــا زكيتنـــــــــي وأنـــــا المقـــــيم علـــــى المعاصـــــي

أيـــــــام نأخـــــــذها ونعـــــــ ـــــطي فـــــي أبـــــاريق الرصـــــاص

ووجد رفيقهما "يحيي بن زياد" الذي كان يقاسمهما حظهما من كل إثم في القول والعمل، ثم أدركه الكبر، فتاب وأناب. وظهر "بشار" الذي كان يؤثر النار على الطين، أي كان يميل إلى دين الفرس القديم، ويزدري الإسلام، والذي مهر في وصف الفسق والمجون، حتى حبسه المهدي، وحتى شكا منه، إلى الخليفة، أشراف الناس، لأنه كان يفسد عليهم نساءهم. ووجد"والبة بن الحُباب الأسدي" الذي عرضت منادمته على الرشيد، فأبى وأشفق، وأعلن إباءه وإشفاقه في ألفاظ لا تسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق، ومصدر هذه الإباء والإشفاق شعر لوالبة ألعن فيه بغيه وفجوره، إعلانا خاف الرشيد عاقبته على نفسه، فيما ذكر الرواة، وكان الرشيد مازحًا من غير شك، ولكنه كان يجل مجلسه عن مثل هذا الشاعر، الذي لا يستر فسقه. وكان أبو نواس تلميذًا لوالبة بن الحباب هذا، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي، بل قل: إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها.

ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التي ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجونًا، وأكثر منها فجورًا، وأقل منها حرصا على الاستتار؛ وكان "أبو نواس" من زعماء هذه الطبقة، وكان معه "الرقاشي" و"العباسي ابن الأحنف" و "مسلم بن الوليد" و "الحسين الخليع" وغيرهم من الشعراء، كان هؤلاء الناس لا يستترون في معصية، ولا يكفون عن فاحشة، وكانوا يتنقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة و الرقة، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقًا ولا دينًا، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة، فاستتروا حينًا، أو اضطروا إلى السجن، حتى ينالهم العفو، فما هي إلا أن يستأنفوا سيرتهم الأولى. ومن هذه قصة منتحلة – فيما أعتقد – ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأي هذه الطبقة في الخلفاء.

روي عن أبي نواس أنه قال: لما حبسني الأمين رأيت بشارًا في المنام؛ فقال لي: بماذا حبسك هذا الغلام؟ (يعني الأمين)، قلت: بقولي:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

فقال: أو يحظر عليك شيئا وهو يجاهر به؟ هلا بدأ نفسه، لعن الله من نقل إليهم الملك؛ فقلت: فبماذا حبسك جده المهدي؟ قال بقولي:

قاس الهموم تنل بها نجحا والليل إن وراءه صبحا

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يسلس بعد ما جمحا

قلت: فيم أفرج عنك؟ قال بقولي:

يا منظرا حسنا رأيته من وجه جارية فديته

ومخضب رخص البنا ن بكى على وما بكيته

بعثت على تسومني برد الشباب وقد طويته

والله رب سريرتي ما إن صبوت ولا نويته

أعرضت عنك وربما عرض البلاء وما أتيته

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته

ونهاني الملك الهما م عن النساء فما عصيته

لا بل وفيت ولم أضع عهدًا ولا رأيا رأيته

وبقولي أيضًا:

والله لـــولا رضـــا الخليفـــة مـــا أحـــ ـــتملت ضـــيما علـــى فـــي شـــجني

قد عشت بين الريحان والراح والمز هـــر فـــي كـــل مجلـــس حســـن

ثـــم نهـــاني المهـــدي فانصـــرفت نفســـي صـــنيع الموفـــق اللقـــن

فانتبهت وقد حفظت الأبيات، وبشار أمامي فقلت:

أعـــاذل أعتبـــت الإمـــام واعتبـــا وأعربـــت عمـــا فـــي الضـــمير وأعربـــا

وقلـــت لســـاقيها أجزهـــا فلـــم أكـــن ليـــأبى أميـــر المـــؤمنين وأشـــربا

وقلت أيضا:

أطـــع الخليفـــة واعـــص ذا عـــرف وتـــنح عـــن طـــرب وعـــن قصـــف

فصارت هذه الأبيات إحدى منجياتي، وكان الشيخ بشار سببها. ولا تنس أن الأمين الذي حبس أبا نواس كان ينادمه، وكان أبو نواس به كلفا، ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين،وكان أبو نواس صديقا للكسائي، فقال له أبو نواس يوما: أحب أن أقبل الأمين.

فجزع الكسائي لذلك، وأشفق منه، وألح فيه أبو نواس، ولم يكتف بالإلحاح، بل أنذر وصنع هذين البيتين، وأظهر أنه سيرفعهما إلى الرشيد،وهما:

قـــل للإمـــام جـــزاه الله صـــالحة لا يجمـع الـدهر بـين السـخل والـذيب

الســـخل غـــر وهـــم الـــذيب غفلتـــه والذيب يعلم ما في السخل من طيب

فاشتد جزع الكسائي، واحتال لأبي نواس، فقال له: أطل الغيبة،ثم أقبل كأنك قادم من سفر، فأعانقك، ويعانقك الأمين فتقبله! ففعل أبو نواس، ثم خرج، فقال في ذلك شعرًا.

فهذا القليل الذي رويته لك، والذي ليس هو شيئا يذكر بالقياس إلى ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة، يبين لك إلى أي حد وصل هؤلاء الناس في هذا العصر من المجون والتهتك والاندفاع في الحرية، والاستمتاع باللذة، ولا يزجهم عن ذلك حياء ولا دين.

خسرت الأخلاق من هذا التطور، وربح الأدب، فلم يعرف العرب عصرًا كثر فيه المجون وأتقن الشعر التصرف في فنونه وألوانه، كهذا العصر... ثم كان من كثرة المجون، أو بعبارة أصح، كان من فساد الخلق في ذلك العصر و العصور التي تلته، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفا في الجاهلية، ولا في صدر الإسلام، ولا في أيام بني أمية، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما خالطت العرب، أو عند ما انتقل العرب إليها، فاستقر سلطانهم في بغداد، وهذا الفن الجديد هو "الغزل بالغلمان" الذي سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل.

وإنما الذي يعنينا الآن أن نلاحظه، أن هؤلاء الناس، الذي وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء، وعبث بكل شيء، وإسراف في المجون واللهو، كانوا يجتمعون، ويجتمعون كثيرًا أكثر مما كان يجتمع أسلافهم، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة، فيها اللهو، وفيها الترف، كانوا لا يجتمعون إلا على لذة، إلا على كأس تدار، أو إثم يقترف، وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا،يتحدثون فيها شعرًا ونثرًا، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضًا، ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائما من النساء، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديار، وفي بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة. فيلذون ويتحدثون.

فأنت تستطيع أن تتكهن بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من اثر عظيم في الأدب العربي والعقل العربي، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة، ولا ثقيلة الروح، كانت تصدر عنهم عفوًا، فتمثل عقولهم وشعورهم، وقوة حصرهم على اللذات، وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل، ولكنا لم نحدثك بعد عن هذه الأندية الغريبة، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها، فلتنتظر اليوم، لنستمع إليهم في الأسبوع الآتي.

القدماء والمحدثون [1]

تطور الشعر في العصر العباسي – الأندية

الأدبية– الألفاظ والمعاني.

انتهى بنا الحديث في الأسبوع الماضي إلى الأندية الأدبية، التي كان لها أيام بني العباس أثر في الأدب لا يمحي، ويد على الشعر لن ينالها النسيان. لم تكن هذه الأندية تجتمع في أماكن معينة، أو منازل معرفة، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع، كانت تنتقل بأدبها وعلمها، وبجدها وهزلها بين مدن العراق المختلفة، وبين ما كان في هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ومن الأديرة والمساجد ومن الحانات وبيوت الإثم، وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة، وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سينا لك بعضهم في الأحاديث الماضية،وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك في كل شيء، والعبث بكل شيء، يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء وفي المجالس طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة، فكانت أحاديثهم في هذه المجالس متأثرة بجد هؤلاء العلماء، وبمهارة الأمراء والوزراء؛ فكانوا فلما يتجاوزون جد القول إلى هزله، وفلما يمعنون فيما كانوا يمعنون فيه إذا خلوا إلى أنفسهم من الفحش الذي لا حد له، والمجون الذي لا يعدله مجون. كانوا في هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه، فتراهم يروون الشعر، وينقدون الشعراء، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه، ويتناولن الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه في اللهو واللعب، وفي اللذة والفسوق.

فأنت ترى أن الإنصاف، وحسن الوفاء للتاريخ يضطر إننا إلى أن نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر، وإنما كان إلى جانب الشك يقين، وإلى جانب الهزل جد. كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكون ويعبثون، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين، يؤثرون الجد ويغلون فيه.ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة،

---

(١) نشرت بالسياسة في جمادى الأولى سنة ١٣٤١– ١٧ يناير سنة١٩٢٣.

تحكم بها عليه حكمًا صادقا، فأنت مضطر إلى أن تراجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب، أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقًا، ويعبرون عن أهوائها وميولها؛ ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة، أفتظن أن شاعرًا كأبي نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس في بغداد، وغيرها من مدن العراق، بل في الشام ومصر حين ذهب إلى الشام ومصر، فيحفظون شعره ويتناشدونه، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف، ثم لا يكتفون بذلك، بل يروون عنه الروايات، وينتحلون له القصص، ويتحدثون عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب، أفتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحياة، فيكفلون به هذا التكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق، ومرآتهم الصافية؟ كلا! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء، وبين طبقات الناس المختلفة، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين، لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر، وما يضطرب في نفوسها من عواطف، في حين كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه، وعلى الكلام يمحصونه، وعلى الحديث يروونه، وعلى الأخبار يلتقطونها ويذيعونها بين الناس، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد، و لا يعبرون عن رأي أحد، ولا يمثلون إلا العلم الذي يعنون به، ويعكفون عليه.

بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك، ونحتاط بعض الاحتياط، حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم في البر والتقوى؛ فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقًا، ولكن كان منهم أيضًا الذي يحبون الحياة ويتذوقون لذاتها، ويظهرون للناس برًا من ورائهما شيء كثير!

ولعلك تذكر ما يروي من أخبار "أبي عبيدة معمر بن المثني"، وما كان بينه وبين الشعراء، بل لعلك تذكر ما يروي من أخبار الخلفاء أنفسهم، وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب، دو أن يمنعهم ذلك من أن يظهروا مظهر الأئمة الأتقياء. ولقد آن لن ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد وأمثال الرشيد، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو، فظن ابن خلدون أن هذه

وحدة يكفي لتبرئه الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان يلهو ويسكر وكذلك ذكروا عن المأمون خلالا نقية، وخصالا طاهرة، ربما صحت كلها، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهوا ويشرب الخمر.

كان هذا العصر عصر شك ومجون، وكان رياء ونفاق، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان: أحدهما للعامة والجمهور، وهو مظهر الجد والتقوى، والآخر للخاصة ولأنفسهم، وهو مظهر اللهو والمجون، الذي يخلع في العذار، وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة.

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك، ويعلنون المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذي كانوا يعيشون فيه من العلماء والخفاء والوزراء وكبار الدولة، وليس هذا مقصورا على العرب، ولا على العباسيين، ولا على بغداد، فقد عرفه اليونان واليونان والرومان والأوربيون، وعرفته أثينا وروما وباريس، وما لنا نطيل في هذا! ويكفي أن تقرأ عصر بريكليس وأغسطس ولويس الرابع عشر، لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون.

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحًا، فلنا أن نتخذهم مقياسًا للحكم على هذا العصر. ولكن تغير الحياة أيام بني العباس لم يحدث الشك والمجون وحدهما، ولم يغير الشعر من هذه الناحية فسحب، وإنما أحدث أيضًا والمجون وحدهما، وغير الشعر من ناحية أخرى: أحدث سهولة في التعبير عما في النفس؛ لأنه أطلق العواطف والأهواء حريتها، فانطلقت الألسنة بوصف هذه العواطف والأهواء.. ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة، وضعف رقيب السلطان السياسي أيضًا، وتركتهم السياسة أحرارًا، واستفادت من هذه الحرية، فينما كانوا يلهون ويلعبون، وبينما كانوا يعبثون ويسرفون في الهزل، كانت السياسة تقوى سلطانها، وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية.

أصبحت العواطف حرة، فأصبحت الألسنة حرة، ونشأ من حرية العواطف تنافس في اللذة، واستباق إليها، فنشأ من هذا التنافس في اللذة العملية، تنافس في وصفها، واستباق إلى إجادة هذا الوصف، وكان هؤلاء الشعراء إذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه في الشرب وغير الشرب، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه في وصف الشرب وغير الشرب، ومن هنا كثر الافتنان في اللذات، وكثر معه الافتنان في القول.

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه، فإن العاطفة التي أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب، أصبح تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيدي بالقديم. وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهرًا دون أن يستخفي من الشرطة، فماله لا يصف الخمر كما يحب دون أن يخشي سطوة الأصمعي أو أبي عبيدة!

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء، وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل في العصر منه في العصور الأخرى، وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثاني من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا

أو كادوا يتحدثون شعرا لا نثرا،وكثيرا ما كانوا يوقفون إلى القول البديع، الشعر الطريف، وكثيرا ما كانوا يسقطون إلى سخيف اللفظ ومتكلفه، وإلى رديء المعنى وفاتره، ولم يكن ذلك يؤذيهم أو ينال منهم، فهم كانوا لا يعنون في هذه المجالس إجادة أو إتقان، إنما كانون يعنون بوصف شعورهم وعواطفه من جهة، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى.

فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء،وقد اجتمعت مرة تناشد وتتحدث،

حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها: أين نحن العشية؟ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة إلى بيته، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعرًا لا نثرًا، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة، وأحسنهم كلامًا، فقال دواد بن رزين الواسطي:

قومـــــا لمنـــــزل لهـــــو وظـــــل بيـــــت كنـــــين

فيـــه مـــن الـــورد والنـــر جـــــس والياســـــمين

وريـــــح مســـــك ذكـــــى وفـــــائح المرزجـــــون

وقنيـــــة ذات غـــــنج وذات عقـــــل رصـــــين

تشـــــدوا بكـــــل طريـــــف مـــن محكـــم "ابـــن رزيـــن"

وقال أبو نواس:

لا، بـــــل إلـــــى ثقـــــاتي قومـــــوا بنـــــا لحيـــــاتي

قومـــــوا نلـــــذ جميعـــــا بقـــــول هـــــاك وهـــــات

....

....

فثـــــــاوروه مجونـــــــا فـــــي وقـــــت كـــــل صـــــلاة

وقال الخليع:

إلـــــى "الخليـــــع" فقومـــــوا إلـــــى شـــــراب الخليـــــع

إلـــــى شـــــراب لذيـــــذ وأكـــــل جـــــدي رضـــــيع

ونيـــــل أحـــــوى رخـــــيم بالخنـــــدريس صـــــريع

فـــي روضـــة جادهـــا صـــو ب غاديـــــات الربيـــــع

قومـــــوا تنـــــالوا وشـــــيكا منـــــال كـــــل رفيـــــع

وقال الرقاشي:

لله در عقـــــــــــــار حلـــــت ببيـــــت "الرقاشـــــي"

عـــــــذراء ذات احمـــــــرار إنـــــي بهـــــا لا أحاشـــــي

قومـــــــوا نـــــــداماى رووا مشاشـــــــكم ومشاشـــــــي

ونـــــــاطحوني بكـــــــأس نطـــــاح ســـــود الكبـــــاش

فـــــإن نكلـــــت فحـــــل لكـــــم دمـــــي ومشاشـــــي

وقال عمرو الوراق:

عوجـــوا إلـــى بيـــت "عمـــر" إلـــى ســـماع وخمـــر

وناشـــــــجات علينـــــــا تطـــــاع فـــــي كـــــل أمـــــر

فهـــــاك أجلـــــى وأشـــــهى مـــــن صـــــيد نـــــار وصـــــقر

هـــــذا، ولـــــيس علـــــيكم أولـــــى ولا وقـــــت عصـــــر

obeikandi.com

وقال الحسين الخياط:

قضـــــت عنـــــان علينـــــا   بـــــأن نـــــزور "حســـــينا"

وأن نقـــــــــر لديـــــــــه   بـــــاللهو والقصـــــف عينـــــا

فمـــــا رأينـــــا كظـــــرف "الـــــ   حســـــين" فيمـــــا رأينـــــا

قـــــد قـــــرب الله زينـــــا   مـــــه وباعـــــد شـــــينا

وقال عنان:

مهـــــلا أفـــــديك مهـــــلا   "عنـــــان" أحـــــرى وأولـــــي

بـــــأن تنـــــال لـــــديها   أشـــــهى النعـــــيم وأ؛لـــــى

فـــــإن عنـــــدي حرامـــــا   مـــــن الشـــــراب وحـــــلا

لا تطمعـــــوا فـــــي ســـــرائي   مـــــن البريـــــة كـــــلا

يـــــا إخـــــوتي خبرونـــــي   أجـــــاز حكمـــــي أم لا

ومضى كل واحد يقول كلاما كهذا، وفيه ترغيب، وفيه حث على اللذة، وفيه تفضيل لما عنده، يقول كما قاله أصحابه في لفظ سهل رشيق غير متكلف، بل غير معنى به، حتى يسقط في الخطأ اللفظي، أو في الضرورة فرأى أبو نواس أن القوم قد استبقوا، فلم يسبق أحد صاحبه، فاقترح إلا يذهبوا إلى بيت أحد، بل إلى حانة، فقال:

ألا قومـــــوا إلـــــى الكـــــرخ   إلـــــى منـــــزل خمـــــار

إلـــــى صـــــهباء كالمســـــك   إلـــــى جونـــــة عطـــــار

وبســـــتان بـــــه نخـــــل   لـــــه زهـــــر بأشـــــجار

فـــــإن أحببـــــتم لهـــــوا   أتينـــــاكم بمزمـــــار

obeikandi.com

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر في حياته المعنوية والمادية، بل في تصوره وشعوره، وتعبيره عن هذا التصور والشعور! عواطف حرة يصفها كلام حر، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث عنها صاحبها، لم يطل البحث، وإنما وجدها في نفسه، فأظهرها في لفظ لم يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه.

فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز في حياته الأدبية بخلال أربع: الشك، والمجون وحرية العواطف، وسهولة اللفظ.

وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه، فهذا المثال هو أبو نواس، الذي سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله.

obeikandl.com

القدماء والمحدثون [1]

أبو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء، وألحوا في الإنكار ،وكتبوا في الصحف يعلنون إنكارهم، ويطلبون إلينا والي السياسة أن نصلح هذا الحديث،ونعدل به عن الشر إلى الخير، وعن الهزل إلى الجد، وزعموا أن ما نرويه في هذا الحديث من شك الشعراء حينًا، ومجنونهم حينًا آخر، مفسد لأخلاق الشباب، مدنس لقلوبهم الطاهرة، وتجاوزوا هذا إلى أكثر منه، فزعموا أنا متكلفون مخطئون، حين نصف القرن الثاني للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون، وأن الناس كانوا فيه أحرارًا، لا يكادون يأخذون أنفسهم في اللهو بخلق أو دين، زعموا أننا مخطئون، وأننا قد أخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن، فجعلناهم مقياسا للعصر الذي عاشوا فه، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجد وأصحاب الحديث، قالوا وليس هذا من الإنصاف في شيء.

كتبوا هذا كله،ن وتجاوزوه إلى شتم نعرض عنه، ونشكره لكاتبيه، ولعل حديث الأربعاء الماضي يغنينا عن الرد على هؤلاء الكاتبين، من بعض الوجوه، فقد بينا في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقا، وكانوا أشد له تمثيلا، وأصدق لحياته تصويرًا، من الفقهاء والمحدثتين وأصحاب الكلام، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية، ومنازلهم الاجتماعية والسياسية، وعلى أن كثيرا منهم كان ورعا مخلصا طيب السيرة، لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء، ولها كما لها الشعراء، واستمتع بلذات الحياة في سره، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم.

فلسنا إذن في حاجة إلى إعادة هذا الحديث والخوص فيه، وإنما نلفت سادتنا على أخلاق الشباب وطهارته، إلى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقا على هذا الشباب، أن يسوء خلقه، أو يفسد قلبه، ولكنا لسنا نرى رأيهم في هذا التحرج، ولسنا نحب أ يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتا من الشعر، ليس حظه من المجون والفتنة شيئا يذكر، فنحن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظا، وأنزره من الفجور نصيبًا، ولسنا نروي لك ما

---

(١) نشرت بالسياسة في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١- ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣.

يسمع وما لا يسمع، ولسنا نحدثهم بما يقال وما لا يقال، وإنما ننظر في هذا كله إلى الذوق والمنفعة جميعًا، وأين يقع ما نرويه وما نتحدث به مما يقرأ ا لشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم، وفي ملاعبهم وملاهيهم!

ولو أن ما نرويه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد أن الذي نخشاه على أخلاق الشاب، لكنا أسرع الناس إلى إجماله، ولتحدثنا إلى قرائنا في الزهد والتقوى، وفي الطاعة والنسك، ولكن نخشى على الأخلاق أخطارا أعظم وأسوأ وقعًا من هذا الحديث البريء، الذي ننشره كل أسبوع. وهل يجب سادتنا أن يجهل الناس بشارًا وأبا نواس والرشيد والأمين؟ أم هل يحبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جد، حين كان حظ هذا العصر من الهزل عظيمًا؟ على أن هؤلاء السادة الذين يتحرجون ويعتصمون بالدين، يضيقون على الناس ما وسع الدين، ويعسرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا.

ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين، كان أشد منهم بالله إيمانًا، أكثر منهم لله طاعة، وكان في الوقت نفسه أرحب منهم صدرًا، وأشد احتمالا، فكان يسمع للجد، وكان يسمع للهزل، بل كان يجد وكان يهزل.. وإن أخلاقنا العامة عاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس في المسجد الحرام، وقد سئل عن الشعر "أينقض الوضوء"؟ وإن أخلاقنا وعاداتنا لتمنعنا أن ننشر للناس ما أنشده عبد الله بن الزبير حين لقى الفرزدق بالمسجد الحرام أيضًا، وكان عبد الله خليفة، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت زوجها، بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس بيتًا قاله حسان، يهجو به هندًا زوج أبي سفيان، فما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به، وقال لشاعره فيما ذكر الرواة: "قل وروح القدس معك".

نعم! تمنعنا من الأخلاق أن ننشر هذا الآن، لأن العصر قد تبد، وقد تطورت نظم الحياة، ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجني على الأخرق، أو نعرضها للخطر، ونحن نستأذن السادة في أن نرغب في ألا تكون حياتنا خلا، وإنما نريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة، ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيها من فقهاء هذا العصر الأول:

سألت الفتي المكي ذا العلم ما الذي يحل من التقبيل في رمضان؟

فقال لي المكي: أما الزوجة فسبع، وأما خلة فثمان!

وقال شاعر آخر في مثل هذا المعنى:

سألت الفتي المكي هل في تعانق وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟

فقال معاذ الله أن يذهب التقي تلاصق أكباد بهن جراح؟

ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ويعجبون به. ويرتاحون له، وكان سفيان الثوري يقول؛ إن أبا نواس أشعر الناس لقوله:

يا قمرا أبصرت في مأتم ينددب شجوا بين أتراب

يبكي فيذري الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

***

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبي نواس. وأنا أريد أن أحدثك عن أبي نواس، ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١هـ، ومات سنة ١٩٩؛فأنت تعلم ذلك، وتستطيع أن تجده في أي كتاب من كتب الأدب، ولست أصف لك نشأته الأولى، ففيها غموض كثير، وفيها اختلاف واضطراب، وربما كان من الحق على ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبي نواس، ففيه شيء من الإثم كثير، قد يغضب سادتنا المتحرجين، وهو في الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام.

لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس، بل لا أريد أن أحدثك في هذا المكان عن سيرة أبي نواس وحياته؛ فإن ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العلميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة، ولكني قلت: إن أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذي عاش فيه، وإن العصر كان يمتاز بالشك والمجون وإثارة اللذة، وقلت في حديث آخر، إن شعراء هذه العصر وأدباءه كانوا قد اتخذوا لأنفسهم قاعدة، هي أن يستمتعوا بلذات الحياة ما استطاعوا، فإذا أدركهم الشيب والضعف لجئوا إلى عفو الله، ولاذوا به، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة، وينكر على النظام رأيه في الخطيئة والتوبة.

قلت هذا كله، وأريد في هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن قليل الخطر، ولا رجلا لا يؤبه له، وإنما كان ذا مكانة عالية، وعالية جدًا، وأنه على هذه المكانة قد كان ماجنًا، مجاهرا بالمجون، مستمتعا باللذة، لا يخشى في ذلك سخط الأمراء، ولا إنكار الفقهاء والمحدثين، وإنما يعتمد على شيء واحد، هو عفو الله، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعا، فلما مرض وعلم

أنه ميت، أنفق مرضه يتوب وينيب، ويعتذر وستغفر، فلما مات رأى بعض الرواة في المنام أن الله قد غفر له، وأنه قد دخل الجنة.

ولست أروي لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة، وإنما أعتمد في حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه، وهو "تاريخ دمشق" للحافظ بن عساكر، فانظر إلى الذين روي عنه أبو نواس، وانظر إلى الذين رووا عن أبي نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث، فإما الذين روي عنهم – فيما ذكر بن عساكر – فهم: حماد بن حماد، وحماد ابن يزيد، وعبد الواحد بن زياد، ومعتمر بن سليمان، ويحيى القطان، وأزهر ابن سعد السمان، وأما الذين رووا عنه فهم – فيما ذكر ابن عساكر أيضا– محمد بن إبراهيم، وابن كثير الصيرفي، وعبيد الله بن محمد العبسي، ومحمد ابن جعفر غندر، وأحمد بن حمزة بن زياد الريفي، وعمرو بن بحر الجاحظ، ويعقوب بن زيد الفارسي، ومحمد بن إدريس الشافعي، وجماعة سواهم.

فإذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين، فارجع إلى طبقات الفقهاء والمحدثين، وستثق بأن شاعرنا لم يكن رجلا ما، وإنما كان رجلا يقدره أهل عصره، ويكبرونه في كل ما غرض له من الفنون، فكان أجل اللغة يقولون: إنه أعلم الناس بالغريب، وكان الأدباء يقولون: إنه أرق الناس أدبًا وأحسنهم شعرًا، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه، وحسن حديثه، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق، وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يحدثوه، وأن يتحدثوا عنه، ولو روينا لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا في الإطالة.

ولكنا ننتقل من هذا إلى ذكر شيء من دعابة أبي نواس ومجونه، مع الفقهاء والمحدثين والخلفاء.

تحدث ابن عائشة أنه قال: كنا على باب عبد الواحد بن زياد، ومعنا أبو نواس، فقال: ليسأل كل واحد منكم. ثم قال سل يا فتى؛ فأنشأ أبو نواس يقول:

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتادة

عن سعيد بن المسيب أن سعد بن عباده

قال: من مات محبا فله أجر شهادة

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد، فقال اعزب عنى يا خبيث! والله لا حدثتك بشيء وأنا أعرفك، فقام أو نواس، وقال: والله لا أتيت مجلسك وأنت ترد الصحيح من الأحاديث!

وتحدث محمد بن جعفر قال: لقى شيبة أبا نواس، فقال له: يا حسن، حدثنا عن ظرفك فقال:

حـــدثنا الخفـــاف عـــن وائـــل وخالـــد الحـــذاء عـــن جـــابر

عـن مسـعر عـن بعـض أصـحابه يرفعـــه الشـــيخ إلـــى عـــامر

قـــالوا جميعـــا: إيمـــا طفلـــة عقلهـــا ذو خلـــق طـــاهر

فواصـــلته ثـــم دامـــت لـــه علـــى وصـــال الحـــافظ الـــذاكر

كانـــت لهـــا الجنـــة مفتوحـــة ترتـــع فـــي مرتعهـــا الزاهـــر

وأي معشـــوق جفـــا عاشـــقا بعـــد وصـــال دائـــم ناضـــر

ففـــي عـــذاب الله بعـــدا لـــه معـــم وســـحق دائـــم داحـــر

فقال له شيبة: إنك لجميل الأخلاق!

فما رأي سادتنا المتحرجين؟

وتحدث سليم بن منصور قال: رأيت أبا نواس في مجلس أبي – وكان واعظا – يبكي بكاء شديدا، فقلت: إني لأرجو ألا يعذبك الله بعد هذا البكاء أبدًا، فأنشأ يقول:

لـــم أبـــك فـــي مجلـــس منصـــور شـــوقا إلـــى الجنـــة والحـــور

ولا مـــن القبـــر وأهوالـــه ولا مـــن النفخـــة فـــي الصـــور

لكـــن بكـــائي لبكـــا شـــادن تقيـــة نفســـي كـــل محـــذور

ثم قال: أم ترى الأمرد الذي عن يمين أبيك! إنما بكيت رحمة لبكائه!

وتحدث ابن الزيات، عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الدلهمس، قال: كان أبو نواس يزورني في الكوفة، فيأتي عنده ما يأتي عليه سنون، قال فرأى في يده يوما شيئا عجيبا، في نهاية الحسن، وطيب الرائحة، فقال لي: يا أبا جعفر! لا يجتمع هذا والهم في صدر. قال: وكان معجبا بضرب الطنبور، فكان إذا جاءني جمعت له ضراب الطنابير، ومعدنهم الكوفة، فكان يسكر في الليلة سكرات، قال فجاءني مرة من داره، فقال: قد حديث مرة قلت ما هو؟ قال: نهاني أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر، وأنشدني:

أيهـــا الرائحـــان بـــاللوم لومـــا لا أذق المـــــدام إلا شـــــميما

القصيدة...

فقلت ما تريد أن تفعل؟ قال: لا أشربه أخاف أن يبلغه أني شربتها، فأتيناه بنبيذ، وجلسانا في منزل جابر، فلم دارت الكأس بيننا أنشأت أقول، وأذكر قوله لي:

خفيـــت عليـــك محاســـن الخمـــر أم غيرتـــــك نوائـــــب الـــــدهر

فصـــرفت وجهـــك عـــن معتقـــه تفتـــر عـــن خلـــق مـــن البشـــر

ونســـيت قولـــك حـــين تمزجهـــا فنريـــك مثـــل كواكـــب النســـر

لا تحســـــبن عقـــــار خابيـــــة والهـــم يجتمعـــان فـــي صـــدر

فأخذ يسب الأمين في كلام لا نرويه. وشرب الخمر،ثم شخص إلى محمد؛ فقال له: أين كنت؟ قال: عند صديقي الكوفي،وحدثه الحديث، قال فقال لي: ما صنعت حين أنشدك الشعر؟ قال: شربتها يا أمير المؤمنين، قال: أحسنت وأجملت! ثم قال: اشخص حتى تحمل إلى صديقك هذا، قال: فشخص فحملني إليه فلام أزل مع محمد حتى قتل.

ولكنا قد أكثرنا من رواية هذا المجون، ونخشى أن نكون قد أثقلنا على المتحرجين، فلنور لهم شعرًا لأبي نواس ملؤه البر والتقوى، فيه والزهد والموعظة.

نقل عن عبدوس رواية أبي نواس أنه قال: دخلت على أبي نواس الحسن بن هاني، في علته التي مات فيها، فقلت له: كيف تجدك يا أبا نواس؟ فقال أجدني قائلا:

سبحان من خلق الخلـ ق من ضعيف مهين

يسوقه من قرار إلى قرار مكين

يحول شيئا فشيئا في الحجب دون العيون

حتى استوت حركات مخلوقة من سكون

قال: ثم أطرق فتركته وانصرفت، فلما كان من غد دخلت عليه، فقلت له: كيف تجدك يا أبا نواس؟ قال أجدني قائلا:

وعظتك أجداث صمت ونعتك أزمنة خفت

وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور ست

وأرتك قبرك في القبـ ـر وأنت حي لم تمت

ولربما انقلب الشمات فخل بالقوم الشمت

ثم أطرق فتركته، فلما كانت في اليوم الثالث دخلت عليه، فقلت له: كيف تجدك يا أبا نواس؟ قال أجدني قائلا:

يا نواسي تفكر وتعز وتصبر

ساءك الدهر بشيء وبما سرك أكثر

يا كثير الذنب عفـ و الله من ذنبك أكبر

أكثر العصيان في أصغر عفو الله يصغر

فلما كان في اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نواس؟ قال أجدني قائلا:

كـن مـع الله يكـن لـك   واتـق الله لعلـك
لا تكـن إلا معـدا   للمنايـا فكأنـك
إن للمـوت لسـها   واقعـا دونـك أو بـك
فعلـى الله توكـل   وبتقـواه تسـمك
نحـن نمسـي بـين أسـبا   ب سكون وتحرك

قال: ثم أطرق فتركته وانصرفت، فلما كان في اليوم الخامس دخلت عليه فقلت له: كيف تجد يا أبا نواس؟ قال أجدني قائلا:

يـا نـاظرا يرنـوا بعينـي راقـد   ومشـاهدا للأمـس غيـر مشـاهد
منتـك نفسـك ضـلة فأبحتهـا   درك الجنـان بهـا وفـوزا العابـد
ونسـيت أن الله أخـرج آدمـا   منهـا إلـى الـدنيا بـذنب واحـد

قال: ثم أطرق فتركته وانصرفت، فلما كان في اليوم السادس دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نواس؟ قال أجدني قائلا:

دب فـي السـقام سـفلا وعلـوا   وأرانـي أمـوت عضـوا فعضـوا
لـيس تـأتي مـن سـاعة بـي إلا   تقتضـيني بمرهـا بـي جـزوا
ذهبـت جـدتي بطاعـة نفسـي   وتـذكرت طاعـة الله نضـوا
قـد أسـأن كـل الإسـاءة يـا رب   فصـفحا عنـا إلهـي وعفـوا

ثم أطرق وانصرفت، فما كان في اليوم السابع دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نواس: قال أجدني قائلا:

obeikandl.com

إنـــي ومـــا جمعـــت مـــن صـــفد وحويـــت مـــن ســـبد ومـــن لبـــد

همـــم تصـــرفت الخطـــوب بهـــا فغـــدوت مـــن بلـــد إلـــى بلـــد

لـــــو لـــــم تكـــــن لله متهمـــــا لـــم تمـــس محتاجـــا إلـــى أحـــد

ثم أطرق فتركته وانصرفت، فلما كان في اليوم الثامن جئت لأدخل، فلقيني الغلام في الطريق ومعه رقعة مختومة، فسألته عنه، فقال: أعظم الله أجرك في ابي نواس، فقد توفي، وكان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته، فقرأتها فإذا فيها:

شـعر حـي أتـاك مـن لفـظ ميـت صـار بـين الحيـاة والمـوت وقفـا

لـــو تـــأملتني وأبصـــرت وجهـــي لـم تجـد مـن مثـال رسـمي حرفـا

نفـــس خافـــت وجســـم نحيـــل أرمضـــته الأســـقام حتـــى تعفـــي

فجئت معه إلى منزل أبي نواس، فإذا به قد مات، ونظرت فيما خلَّف، فإذا مقدار ثلثمائة درهم، وإذا بين مخدتيه رقعة فيها هذا الشعر:

يـا رب إن عظمـت ذنـوبي كثـرة فلقـد علمـت بـأن عفـوك أعظـم

أدعـوك ربـي كمـا أمـرت تضـرعا فـإذا الـذي يرجـو ويخشـى المجـرم

مـــالي إليـــك وســـيلة إلا الرجـــا وجميـــل عفـــوك ثـــم أنـــي مســـلم

قال: فوقف حتى جهزناه وصلينا عليه ودفناه وانصرفت.

***

أكثر هذا الشعر لأبي نواس من غير شك، ولكن هذه النقطة التي رويناها متكلفة من غير شك أيضا، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته، وقال بعضه عند ما أحس الموت. ولسنا نلح في هذا البحث ولا نفصله، فقد أطلنا أكثر مما ينبغي، وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا. فقد رأيت مكانة شاعرنا ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك، فلنترك هذا كله، ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي.

القدماء والمحدثون [1]

أبو نواس – النقد في عصره – نقد

الفقهاء – نقد الأدباء – أشعر الشعراء.

زعمت لك في الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالا لعصره، وأن الذي عاصروه كانوا يعجبون به الإعجاب كله، ويقدمونه على شعراء عصره جميعا إلا بشار بن برد، وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم، وأن أستوفي هذا الموضوع حقه من البحث، ويخيل إلى أن بحثا كهذا – على ما فيه من الرواية والنقد – لن يخلو من فائدة، وإن خلا من لذة، أو بعبارة أصح، وإن لم يحدث في نفسك هذه اللذة التي يحدثها الشعر الماجن الظريف.

لن يخلو هذا البحث من فائدة، لأنه سيظهر على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأي في هذا الشاعر، الذي اخترت شعره موضوعا لهذه الأحاديث، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعا في نقد الشعر، وفي فهمه، وفي تصوره والحكم عليه.

وليس هذا بالشيء القليل، ولقد اضطر إلى أن أستأذن رجال الأدب القديم، من المعاصرين، في أن أكون جريئا وحرًا في هذا البحث، وأرجوا ألا تغضبهم هذه الجرأة، ولا تسوءهم هذه الحرية، وأؤكد لهم أني لم أعمد إليها عمدًا، وإنما اضطررت إليهما اضطرارًا، اضطرني إليهما بحث أعتقد أنه صحيح، وصدق في التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين.

إذن فأنا أستأذن أئمة الأدب، وشيوخه المعاصرين في أن أكون حرًا، وفي أن أكون جريئًا، وفي أن أزعم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة، لم يكن لهم في النقد مذهب معروف، أو خطة واضحة، وإن شئت فقل: إنهم قد كانوا يذهبون في النقد مذاهب لا ترضينا، ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليهن من مثل أعلى في النقد خاصة، وفي الأدب عامة.

ولست أدري أكنت هذه المذاهب تحقق ما كان يسمو إليه أدباء العصر العباسي أم لا. ولست أدري أكنت تظل حال النقد على ما كانت عليه أيام الجاحظ والمبرد، لو أن حياة العرب

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١هـ- ٣١ يناير سنة ١٩٢٣م.

السياسية لم تفسد، ولم تتغلب أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي. ولكني استطيع أن أقول إن هذه المذاهب التي نجدها منبثة في كتب الأدب على اختلافها قبل أن يصبح البيان علما ذا قواعد وأصول، ليس من شأنها أن تضري باحثا أو تقنع أديبًا، وإننا نستطيع أن نقول إن أدبنا العربي يخلو أو يكاد يخلوا من النقد الصحيح خلوا تاما.

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء:

الأول: أن تصل إلى شخصية الشاعر، فتفقهما وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت، فتعرف كيف أحس ما أحس، وكيف أشعر بما شعر به، ثم كيف وصف إحساسه،وأعرب عن شعوره؟

الثاني: أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء، وسيلة إلى فهم العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر، والبيئة التي خضع لها هذا الشاعر، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر، فأنت لا تقصد إلى فهم الشاعر لنفسه، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها.

ومهما تكن مقتصدًا، ومهما تكن متواضعا، فأنت سواء شعرت بذلك أم لم تشعر به، لا تقنع بالأشخاص، وإنما تطمع في الجماعات، لا ترضي بالجزئي، وإنما تسمو إلى الكلي، كما يقول أهل المنطق، فأبو نواس وحد لا يعنيك، وإنما أبو نواس من حيث إنه كان يعيش، لا أقول مع فلان وفلان، وقل مثل ذلك في شوقي، وقل مثله في حافظ.

فالشاعر ليس شاعرًا لأنه يقول فيحسن، وإنما هو شاعر لأن قوله الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرءونه، يرضيهم ويقع من نفوسهم موقع الإعجاب، ولم يرضك البيت من الشعر إلا لأنه يوافق هوى في نفسك، ويلائم عاطفة من عواطفك، ويرضي حاجة من حاجاتك إلى الجمال.

إذن فأنت تنقد الشاعر لتفهم شخصيته أولا، ثم جماعته أو عصره أو بيئته، أو هذا كله ثانيا، وهناك شيء ثالث تقصد إليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده، وهو اللذة: اللذة الفنية، اللذة التي تجدها إذا نظرت على شكل جميل، أو استمتعت إلى قطعة من الموسيقى، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة، عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر، وحين تنقده؛ لأنك تريد أن تفهم، وتريد أن تلتذ.

ولا تقل إن في هذا شيئا من التحرج، أو إن فيه تضييقا ومحاولة من هذه المحاولات، التي أرادت غير مرة أن تجعل النقد علمًا ذا قواعد وأصول فلم تفلح، ولم توفق إلى شيء كثير. لا تقل هذا، فإني لا أتحرج، ولا أضيق، ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولا معينة، وإنما

أحاول أن أفهم معك معنى النقد، وما يرمي إليه الناقد، ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكهم، فهم يقصدون إلى هذا كله أو بعضه.

سل "سانت بوف" (Saiute Beuve) ينبئك بأنه يعني قبل كل شيء إذا قرأ قصيدة من الشعر، أو فصلا من النثر، بأن يجد شخص الشاعر أو الكاتب، وبأن يحلل هذا الشخص، ويصل إلى دقائقه ودخائله، كما يفعل علماء التاريخ الطبيعي في معاملهم، ولكن الشخص الواحد لا يكفيه ولا يعنيه؛ وإنما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة إلى النوع، يتخذا هذا الجزئي وسيلة إلى الكلي.

ثم سل "تين" (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر، أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكون نفسه، لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من آثار العصر الذي عاش فيه، والبيئة التي خضع لها، والأمة التي نجم منها، فالشخص عنده أثر من آثار هذا العصر، وهذه البيئة، وهذه الأمة.

ثم سلك "جول لمتر" (Yules Lemaitree) ينبئك بأن هذا كله لغو وثرثرة، وأن الفن وحده هو الذي يعنيه،ويعنيه من حيث إنه يؤثر في النفس، فيبعث فيها العواطف على اختلافها، ويبعث فيها الرضا والإعجاب.

وفي الحق أن الناقد لا يقنع بما كان يقنع به "سانت بوف" أو "تين" أو "جول لمتر" أو غيرهم النقاد، وإنما يود لو استطاع أن يوفق إلى هذا كله، ويستخلص منه غرضا شاملا يطلبه ويسمو إليه حيث ينقد، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب، وعصره، وفنه.

ولست أريد أن أتعمق في تفصيل هذا كله، فإن فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق، وإنما أردت أن أنتهي بلك إلى ما نطلبه الآن إلى النقد، لأنتقل من هذا إلى ما كان يطلبه المعاصرون لأبي نواس إلى هذا النقد. والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جدًا... نطلب نحن كثيرا، ولم يكن يطلب القوم إلا شيئا قليلا.

***

قلت في أول هذا الفصل،إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة في النقد، أو إن مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا، وكلا القولين صحيح، فإنا لا نعرف لأدباء القرن الثاني والثالث للهجرة مذهبا في النقد معروفا، أو خطة فيه واضحة.

ومع ذلك فقد نقدوا، وحكموا على الشعر والنثر، فاستحسنوهما وازدروهما، ولم تكن أحكامهم متفقة، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة، وإنما كانوا يختلفون، ويختلفون اختلافًا كثيرًا، ولعنا لا نخطئ إذا قلنا إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذا صناعته وفنه الذي غلب هلي مقياسا لنقده، وميزانا لرأيه، في جودة الأثر الأدبي أو رداءته.

فالجيد عن أبي عبيدة، ويونس بن حبيب، وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي: ما اشتمل على الألفاظ الجزلة المتينة، والأساليب الفخمة الرصينة، وما كان إلى لغة الأعراب أقرب منه إلى لغة أهل الحضر.

والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ، ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة، وإنما تناولوا الأدب من حيث هو، وعنوا بالمعاني عناية لا تقل عن عنايتهم بالألفاظ، وربما تفوقها: ما اشتمل على المعنى الطرفي في اللفظ المستعذب، الذي لم يمعن في الغرابة، ولم يسفل إلى لغة السوقة.

والجيد عند الفقهاء والمحدثين: ما لاءم أصلا من أصول الدين، أو غرضا من أغراضه، أو نزعة من نزعاته.

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريرا على الفرزدق. ولما كلم بشار في ذلك قال: ليس ذا من عمل أولئك القوم، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله إلخ.. وروي مثل هذا في أمر أبي نواس ومسلم، فقد كان الأدباء والشعراء يفضون أبا نواس، وكان ثعلب يفضل مسلما. وسئل البحتري عن ذلك ففضل أبا نواس، فما ذكر له أمر ثعلب قال كلامًا كالذي قاله بشار.

ولعل مما يمثل لك هذا المعتنى تمثيلا حسنا ما كان بين المأمون وابن الأعرابي. فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوي عن أجود ما قيل في الخمر، فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل، ومما رواه له قول الأعشى:

تريك القذى من فوقها وهي فوقه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

فلم يحفل المأمون بشيء من ذلك، بل آثر قول أبي نواس:

فتمشـــــت فـــــي مفاصـــــلهم كتمشـــــي البـــــرء فـــــي الســـــقم

فعلـــت فـــي البيـــت إذ مزجـــت مثـــل فعـــل الصـــبح فـــي الظلـــم

فاهتـــدى ســـاري الظـــلام بـــه ا كاهتـــــداء الســـــفر بـــــالعلم

فانظر إلى هذين الذوقين المختلفين، فأما المأمون فحضري يؤثر المعنى الجديد في اللفظ السهل، وأما ابن الأعرابي فمحب للغريب، مؤثر للفظ الجزل.

وكان أبو عمرو الشيباني يقول: لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لا حتججنا بشعره. وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبي نواس، ولا يكرهون منه إلا هذا الرفث والمجون؛ ذلك لأن مقامهم وصناعاتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ.

فأما الأدباء والشعراء ومن إليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجابا لا حد له، لا يصرفهم عنه أنه آثر السهل على الغريب، أو الهزل على الجد، وربما رغبتهم ذلك في شعره، وحب إليهم سيرته.

ولو أني ذهبت أروي لك آراء هؤلاء العلماء، والأدباء والشعراء، في أبي نواس، لأطلت عليك إطالة ثقيلة مملولة، ولكنك تستطيع أن تصدقني، وأن ترجع إلى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أبا نواس أعشر المحدثين، لا يستثنون منهم إلا بشار بن برد.

ومع هذا فلست أرى لهذا الإجماع قيمته ولا خطرًا، لأن القوم حين استحسنوا شعر أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصي، وإنما كان يعجب أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة، فلا يأبي أن يقول إن أبا نواس أشعر الناس، فانظر أبا نواس على الشعراء جميعا لأنه قال:

يـــا قمـــرا أبصـــرت فـــي مـــأتم ينـــــدب شـــــجوا بـــــين أتـــــراب

القصيدة...

وانظر إلى الأصمعي يفضل أبا نواس لأنه قال:

أمـــا تـــرى الشـــمس حلـــت الحمـــلا وقـــــام وزن الزمـــــان فاعتـــــدلا

وانظر إلى ابن الأعرابي، الذي كان يفضل أبا نواس على الشعراء جميعا لقوله:

تغطيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمي لما درت وأين مكاني ما عرفن مكاني

وانظر إلى أبي العتاهية والعتابي، اللذين كانا يفضلان أبا نواس على الشعراء جميعا لقوله:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعا لقوله:

الناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

وفضل المبرد أبا نواس على المحدثين جميعا، لأنه شبب ومدح في أربعة أبيات فقال:

تقول غداة البين إحدى نسائهم لي الكبد الحرى فسر ولك الصبر

وقد خضبتها عبرة فلدمها على خدها خد وفي نحرها نحر

وقالت إلى العباس؟ قلت فمن إذن ومالي من العباسي معدي ولا قصر

فهل يكلفن إلا براحته الندى وهل يزهون إلا بأوصافه الشعر

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس في هذه اللحظة، كانوا يفضلون غير أبي نواس في لحظة أخرى، فلو أنك أردت أن تعرف من شعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء، لكان الناس جميعا أشعر الناس!

وما زال العرب يسأل بعضهم بعضًا من أشعر الناس؟ فيجب المسئول أشعرهم من قال، ثم يروي بيتًا أعجبه، ولا يمنعه ذلك أن يروي غدًا بيتًا آخر لشاعر آخر، على أن هذا البيت أجمل الشعر، وعلى أن هذا الشاعر أشعر الناس، وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر إلى هذه المنزلة، لأن لكي شاعر بيتًا جيدا على أقل تقدير.

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن إليها ناقد في نفلسها، ولا أن يطمئن إليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها، فإن هؤلاء النقاد إنما كانوا يجيبون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل.

ومع هذا كله فما زلت أرى أن معاصري أبا نواس كانوا يقدمونه ويدينون له الزعامة، وليس هذا الاقتناع عندي أثرًا من آثار هذه الأحكام التي رويت لك طرفا منها، وإنما هو أثر القراءة الطويلة في الكتب الكثيرة، وأثر الموازنة بين الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده.

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه، وكانوا في ذلك محقين، ولكنهم لم يقولوا، ولعلمهم لم يعلموا، لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس؟ فمن الحق أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار، أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس فيه شك، وأن نبحث عن هذا المصدر، لا كما بحث المتقدمون في البيت أو البيتين أو القصيدة، وإنما في الديوان كله، ومن الحق ألا يكن سبيلنا في هذا البحث جودة الفظة المنى وحدهما، إنما سبيلنا فيه اللفظ والمعنى، وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضًا، وهذا هو الذي سنبدأ في الأسبوع الآتي.

obeikandl.com

إلى الأستاذ طه حسين [1]

سيدي الأستاذ!

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكن الأسبوعية على أدب القدماء والمحدثين، أو "حديث الأربعاء"، ومما يلفت النظر، ويستدعي التمحيص والحذر في ذلك الحديث، حكمكم أن أبا نواس ومن في طبقته أو على شاكلته من الشعراء كانوا مثالا صادقا للعصر الذي عاشوا فيه، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر، مذهب إبي نواس وأضرابه من شعراء المجون، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم، واستنتجتم منها ذلك الحكم الذي يحتاج إلى تمحيص أكثر.

نعم! إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة لأول وهلة،ولأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقليه وقائلها، وهم معروفون مشهورون في التاريخ، لكن هذا وحده لا يكفي لمثل ذلك الاستنتاج، و تبني عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع، كتاريخ الرشيد المأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء، واري أن الأستاذ تعجل في الحكم، لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من شعره، كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها إليه، وصدورها عنه، وهذا لا يصح للمؤرخ الممحص التسليم به، والسكوت عليه.

إن الحقائق التاريخية، ولاسيما في تاريخ الإسلام، تشبه الدر الملقي بين أشواك، يحتاج مريد استخراجه من تلك الأشواك، إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الشوق. ولا نريد أن نذهب بعيدا في مذاهب الشك التي ذهب إليها الأستاذ، وإنما يكفي أ، ننبهه بما نقول – وهو العليم – إلى ما عاناه رواة الحديث، ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية، كانت تعمل للسياسة باسم الدين، وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية، وإن كان فيه مساس بالبدين وتشويه له، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة، وانتساب إلى صاحب الشرع، فما بالك بأخبار الخلفاء وواقع التاريخ وأخبار الناس!

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١– ٧ فبراير سنة ١٩٢٣.

نقرأ شيئًا في التاريخ وشيئا في كتب القصاصين، عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح، في عصور المحنة التي مرت على المسلمين، نقرأ في كتب التاريخ أخبارا نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية، وأخبارًا نسبها شيع آل على إلى خلفاء بني العباس، هي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت، كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة في المنزلة التي أنزلهم إليهم الوضاعون، ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ.

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوبًا إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب.

فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص، واعتبرناها أخبارًا صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق، لكان لنا أقبح مثل من أمثلة العصور الإسلامية الأولى، التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد.

الحقيقة التي ينبغي أن تقال، إن التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الإخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء، وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية.

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة، لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعها، شأن كل مؤرخ بحاث لا يلقي الكلام على عواهنة، ولا يأخذ الحوادث بظواهرها، ولا شك عند كل منصف أن بان خلدون أوثق وأصدق كلاما من أبي نواس وأمثاله من المجونيين، هذا إذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء.

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر، لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية، أو سياسية، أو دينية. أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع، وأما البواعث السياسية أو الدينية، فهي منع العامة عن الخوض في سياسة الخلفاء والحكام، و الخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن؛ إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضي فيه العامة أوقات الفراغ، وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم، تدور على أخبار الصحابة حوادث الصدر الأول لقرب العهد به، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم، وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ في أخبار أهل السنة والشيعة في بغداد

عاصمة الملك والخلافة، وكانت هذه المنازعات والفتن تفضي أحيانا إلى إهراق الدماء بين العامة. الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه، بلا علم ينفع، أو فهم يردع.

فكان هذا سببًا على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأخبار، فأخذ بعض الأذكياء ف وضع قصص تتلى في المجتمعات، فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف والأحقاد، فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب، ومنها المطول المجموع في كتب على حدة، ومن ذلك أخبار الفتوحات، كفتوح الشام، وفتوح مصر، وفتوح اليمن، المنسوبة إلى الواقدي وهي ليست له. وكتاب قصة عنترة العبسي وواضعها مجهول، وكتاب ألف ليلة وليلة وكاتبها مجهول أيضا، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك.

ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار، وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة، لأن فيها نوعا من التلهي وترويح النفس، تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فيك كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك... فكان منها الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة.

وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس في الشهوات، مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق، ما فيها من العبث بالأخلاق، والتجرد عن معنى الأدب، الذي أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير، ينافي ما ينسب إليهم من إطراح رداء الحشمة والمروءة. ولا أظنني مخطئًا إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر، ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر الشك والمجون، ويتخذه دليلا على حكمه على أهل ذلك العصر، إنما هو تلفيق قصصي يراد به أحد أمرين: إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون، وإما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة. على أنه لو صح شيء منه، لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر؛ لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون.

على أنه أعتقد كما قلت إن ما نسب إلى أولئك الشعراء كأبي نواس وبشار ومن في طبقتهما محل للشك، ولاسيما إذا صح أن شعر أبي نواس لم يجمع في كتاب (ديوان) على حده في حياته، وإنما جمعه رواة القصص وأخبار شعراء المجون، وتناولوه بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد، وحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها، لا يحتاج إلى تعريف بعد الذي قدمناه، وحسبنا أن الأستاذ طه حسين نفسه تردد في قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التي قال إن أبا نواس أنشدها له قبيل وفاته في أيا متتابعة في التوبة والاستغفار، تردد الأستاذ في صحتها: وقال

إنها قصة متكلفة من غير شك، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر من هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته.

فالذي جوّز للأستاذ الشك في صحة هذه القصة يجوز الشك في صحة أكثر القصص، والراويات التي نقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء المجون، ويثبت أنها قصص موضوعه ليس لها قيمة تاريخية، فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقًا لذلك العصر، وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحًا للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل، وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات من السنين.

ولقد أحسن الأستاذ في مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك في قوله "إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاً، وإنما يريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة". فإن في قوله هذا دليلا على أنه يريد أن يخفف عن أبي نواس عبئ الحمل الذي ألقاه على عاتقه، وأن يستدرجنا، ونعم ما فعل، إلى الشك في صحة تلك القصص المخزية، وأنه يستدرجنا، ونعم ما فعل، إلى الشك في صحة تلك القصص المخزية، وأنه إنما أوردها للفكاهة، ولاسيما بعد أن عزز ذلك بقوله "إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر، ولا رجلا لا يؤبه له، وإنما كان ذا مكانة عالية، وعالية جدًا" ثم سرد عن تاريخ الحافظ بن عساكر أسماء من رووا عن أبي نواس، وروي عنهم أبو نواس.

ولا جرم أن المجاهرة بالمجون، والاستمتاع باللذات، ثم رواية الحديث، نقيضان لا يجتمعان، وهذا ما يؤيد رأينا في أن أكثر ما نقل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء المجون، وإنما هي روايات قصصية بعيدة عن الصحة، وأنه لا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر، وفوق كل ذي علم عليم.

رفيق العظم

رد على نقد[1]

كيف تفهم التاريخ؟ – المؤرخون في عصر

المجد – المؤرخون عصور الانحطاط.

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذي نشرته "السياسة" للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين، ووعدت بالرد عليه، ثم حالت حوائل بيني وبين هذا الرد إلى الآن. ما زلت أذكر هذا المقال،وأريد أن أرد عليه؛ فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبيني لا يتناول أشياء مفصلة فحسب وإنما يتناول مبدأ عاما قبل كل شيء.

وقد عرف الناس رأي هذا العالم الجليل في هذا المبدأ،وأريد أن يعرف رأي فيه، ولست أدري أأطمع في إقناع هذا العالم الجليل أم أيأس منه؟ لأن الخلاف بينه وبيني جوهري جدًا، وشديد جدًا، ويذهب مذهبا في التاريخ وفهمه، وأذهب مذهبا آخر في التاريخ وفهمه، ويخيل إلى أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل.

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم، وكثير من العلماء المعروفين في الشرق، يسبغون على التاريخ الإسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني، أو الذي يشبه الديني. تحول بين العقل وبين النظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم، وهم يضيقون إليهم كل خير، وينوهونهم عن كل شر،وهم يصفونهم بجلائل الأعمال، ويرفعونهم عن صغائرها، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث، ومقياسًا من مقاييس النقد، فإذا أضفت ذلك قاعدة من قواعد البحث، ومقياسًا من مقاييس النقد، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئا فليس هذا الشيء صحيحًا إلا إذا كان في نفسه خليقًا بالرشيد، يليق به ومكانته، وليست هذه المكانة هي مكانته في نفسها، وإنما هي المكانة التي خلعها عليه القدم، وبعد العهد، وجلال الخلافة، وكرامة الدين وسطوة الأمة العربية.

---

(١) نشرت بالسياسة في ٦ رجب سنة ١٣٤١– ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣.

فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي، فأما النظر على الناس من حيث هم ناس، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات، وما اكتنفها من الظروف والأحوال، فذلك شي قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه.

ولست أغض من هؤلاء العلماء، وإنما أجله وأكرمهم؛ وحسبك أن إمامهم في هذا المذهب هو ابن خلدون. ولعلك تعلم أني أجل ابن خلدون وأكبره، ولكني أخلفهم في الرأي، وأرى أن مذهبهم في التاريخ غير مستقيم، وأنه خليق بأن يتغير، وأنه سيتغير بدون شك، بل أنا أرى أكثر من هذا، أرى أن هذا المذهب – مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر، مذهب إسباغ الدين على التاريخ – طور من أطوار التاريخ لابد من أن يمر به، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس، لابد من أن يمروا به، وقد خضعت لهذا الطور أمم أخرى غير العرب، فكتب مؤرخوها كما يكتب الأستاذ رفيق بك العظم، ورأوا في الآباء والأجداد ما يرى في قدماء العرب.

ذلك أن هذه الأمم إذا اضطرتها صروف الحياة إلى أن تنزل عن مجدها، وتنحط عن مكانتها العالية، فتخضع لحطوب الدهر حينا، وتنام عن العزلة والسلطان، ثم استفاقت من هذا النوم، وتنبهت بعد الغفلة، وطمحت إلى أن تسترد المجد القديم، وتستأنف سيرها في سبيل العلياء، فأول شعور تجده في نفسها إنما هو الشعور بهذا المجد القديم، والحاجة إلى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثُلا عليا.

فأنت لا تنظر إلى هؤلاء الناس نظرا علميًا مجردًا بريئًا، وإنما تنظر إليهم نظرًا متهمًا، ملؤه الإعجاب والإكبار؛ لأنك تتأثرهم، وتحتذي على مثالهم. وإذن فرأيك فيهم غير صحيح، وحكمك لهم أو عليهم متهم، وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذي لا حد له، وبين النقد العلمي الذي لا يعرف الهوى، ولا يتأثر بالميول والعواطف! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذا الإعجاب، وهذا الميل إلى الاحتذاء والتقليد، فتصرف همتك إلى أن تبرئ موضع إعجابك من كل عيب، وتدفع عنه كل مكروه، وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد، لتوجد فنا من النقد التاريخي له قيمته وخطره.

ولكن الغاية التي يسمو إليها ليست علمية بالمعنى الصحيح. لأنه يسمو إلى التنزيه والتمجيد، لا إلى التحقيق الذي لا يسمو إلى مدح ولا إلى ذم،والذي لا يحفل بحمد أو هجاء.

انظر إلى مقدمة ابن خلدون، وإلى القسم الأول من هذه المقدمة، انظر بنوع خاص إلى منهجه التاريخي، وإلى هذا النقد الذي بسطه ليبين أغلاط المؤرخين وتورطهم في ضروب من الخطأ في الحكم، تجده قد تصور قواعد علمية لا بأس به، فهو يكره الغرض والهوى، ويحذر من أخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ، ويحبب إليك، أو يحتم عليك، تحكيم العقل فيما يروي لك من الحوادث، وهو يصل من هذا كله إلى استكشاف قوانين قيمة في النقد التاريخي،ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يقولون، حتى يتورط في مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل، لأنه متأثر بمجد القدماء،وصلاح القدماء، وطهارة القدماء، وانحطاط المعاصرين، وفساد أخلاقهم وأحوالهم.

فهو إذا أراد مثلا أن يصحح نسب الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى لم يعمد إلى بحث تاريخي، وإنما استدل على صحة هذا النسب بحديث شريف، فيه أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وهو إذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العبث والمجون، لم يذهب مذهب المؤرخين في ذلك وإنما تحدث إليك بأن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم، وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى، وإذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبث، ولا أن يلهو.

ولم يفكر ابن خلدون في أن من حق مؤرخ آخر، أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم، أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين الصلاة وبين العبث، ولم يخطر ذلك لابن خلدون، لأن ابن خلدون كان يعجب بالرشيد ويكبره، ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى.

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليوناني "بلوتارك" "plutarque" قصد بها إلى نقد "هيرودوت" "Hérodote" واتهمه فيها بالكذب والافتراء، وكان لهذه الرسالة الظنون، لأنه اتهم قدماء اليونان وأبطالهم في الحرب الفارسية اليونانية بالنقائض المختلفة،فوصف بعضهم بالخيانة، وبعضهم بالغدر، وبعضهم بالجبن، وبعضهم بالرشوة. ونهض "بلوتارك" للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن "أبا التاريخ" كاذب، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة، وأعلى منزلة، وأجل خطرًا، من أن يقعوا فيمثل هذه الآثام.

وفتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرئ الآباء والأجداد من هذه النقائص، فلما كان العصر الحديث، وكان استكشاف الآثار اليونانية، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ، ظهر أن "هيرودوت" لم يكذب ولم تكلف، وأن "بلوتارك" هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس.

وليس هذا بغريب، فقد عاش "أبو التاريخ" في أيام مجد اليونان وعزتهم، فلم يكن يؤذيه، ولم يكن يؤذي اليونان، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب، وعاش "بلوتارك" أيام ذلة اليونان، وانحطاطهم السياسي، فكانت هذه النقائص تؤذيهم،وكانوا محتاجين إلى المبالغة في مجدهم حين أعوزهم المجد الطريف.

هذه حالنا.. ليس لنا مجد ولا مأثرة؛ فنحن ننتحل مجد الآباء، والأسلاف زينة لنا وافتخارًا، ويخيل إلينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يغض من الأسلاف وحدهم، وإنما يغض منهم ومنا. أليس كذلك وإلا فما مفاخرتنا بالعرب؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة؟ ضرب من الغرور، نخفي به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف.

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذي عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم، لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم، بما يتصف به الناس من نقص لأن هذا الوضع لم يكن يؤذيهم، ولا يؤذي العرب في أيامهم، وحسبك أن تقرأ، لا أقول كتابا بعينه، وإنما أقول في أي كتاب من كتب الأدب والتاريخ، لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوي المكانة فيهم، يوصفون بالخير ولا شر، وبالرفعة والضعة، بما هو مشرف وبما هو مزر، ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناسًا لا ملائكة.

يقول الأستاذ وأصحابه إن هذه الأخبار مختلفة منتحلة، وأنا أول من يعترف بأن كثيرا من الأخبار مختلق منحول، ولكني لا أستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضي منحول، وأن كل خير يصفهم بما يرضي صحيح.

هذا إسراف، وإسراف كثير، وإنما القصد والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد وال تمحيص، فتتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقًا،وما كان منحولا، وأنا أزعم أن كثيرا جداُ من خلفاء بني أمية وبني العابس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو، ويستمتعون بفنون من اللذات كان يكرهها الدين. لقد كان "أغسطس" و "نيبريوس" و "نيرون" كبار الكهنة في روما، ولكنهم كانوا قياصرة أيضًا، فكانا يؤدون للدين حقه، وكانوا يؤدون للدنيا حقها.

ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهرًا لقوة المسيح في فرنسا، ولكنهما كانا في الوقت نفسه مظهرًا لسلطان الفرنسيين، وثروة الفرنسيين ومجون الفرنسيين، فكانا يصليان،وكانا يعبثان، وكان يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطبائها، وكان هذا الوعظ بوجه إليهما عنيفًا مخيفًا كأنه الصواعق، فيعجبان ويفزعان من سخط الله، ثم ينصرفان إلى القصر فما هي إلا أن يتورطا في الموبقات.

ولا تقل كان هذان مسيحيان، وكان قياصرة الرومان وثنيين، وكان خلفاؤنا مسلمين. فقد تتلف الديانات في جوهرها. ولكن الأثر الديني في نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف. فمن المسيحيين والوثنيين أتقياء ورعون. كما أن من المسلمين والإسرائيليين أتقياء ورعين، ولا تقل إن مجد العرب وما كانون يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبسط للسلطان، كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث، فأنا أوكد لك أن "أغسطس" لم يكن خاملا ولا عاجزًا. وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلا ولا مغرقًا في النوم.

وما رأيك في أن عصر الثورة الفرنسية، وهو عصر هذا الجد المفزع المخيف. كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجونًا، وكانت تجرب فه أنهار الدماء وأنهار الخمر!

وما رأيك في هذا العصر الذي نعيش فيه؟ وما رأيك في الحرب الكبرى، وما جرت على أوربا من هول؟ أتظن أن الأوربيين انصرفوا إلى جد هذه الحرب وأخطارها، عما في الحياة من عبث ولهو؟ كلا! لقد ازداد سلطان اللهو في أوروبا، ولقد كان الجندي يقتتل ويتعرض لألوان الهول، حتى إذا ظفر باليوم أو الأيام بعيدًا عن ساحة القتال اندفع في لذاته وشهواته اندفاعا لم يكن يعرفه قبل الحرب... ماذا أقول؟ لقد كانت تتحمل إليهم اللذات في ميدان القتال، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات أن تصل إلى آذان الجند، وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجند فتروعهم، فإذا سلموا منها وظفروا بوقت الراحة، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات، ولم يمنعهم هذا كله أن يظفروا بالمجد سواء منهم الغالب والمغلوب.

فلم يكن إذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة، ولم يكن الفتح ليمنعهم أن يستمتعوا بهذه اللذات، ولم يكن العلم ليحول بينهم وبين ذلك، فما كان حظهم من العلم، بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا، لقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل أوربا وأمريكا.

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ، ونحاول فهمه وتفسيره. خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون، ولكن أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون. وهما: أن الناس جميعًا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم، وأن الناس جميعًا مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبة.

يجب أن نفهم هذه القانونين، وأن نحسن الملاءمة بينهما. وأن نعرف فيم يختلف الناس، وفيم يتشابهون، وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه؟ ونحن إذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسي قد كان كغيره من عصور المجد والحضارة، فيه جد وهزل، فيه شكل ويقين.

وأنا أزعم – وأعتقد أني قادر على إثبات ما أزعم –أن القرن الثاني الهجري قد كان عصر لهو ولعب،وقد كانت عصر شك ومجون، وكل شيء يثبت صحة هذا الرأي، فقد كان هذه العصر عصر انتقال من بداوة إلى حضرة، ومن سذاجة إلى تعقيد، ومن فطرة خالصة إلى علم وفلسفة،وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة، وشعوب متباينة، منها البدوي والحضري، ومنها الجاهل والعالم، ومنها الغني والفقير.

أفتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد؟ إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان، أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصري والرومي،،أن تبقي الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال، فأما في الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل.

ها نحن أولاء عاشرنا الأوروبيين معاشرة ليست بالقوية ولا المتصلة، فانظر إلى أثرها القوي العميق في حياتنا العامة والخاصة، ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الأوربيين كان من القوة العمق مثل الاتصال بين العرب والفرس والروم، لست ادري لم تفرق بين هذه العصور والأجيال المتشابهة وإن اختلفت، المتفقه وإن افترقت.

يجب أن نفهم قانوني أبن خلدون. فالناس جميعًا متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم، مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبة.

أنا أزعم إذن أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون، وأزعم أن كل شيء في هذا العصر يؤيدني في هذا الرأي. وحسبي أن ألفت الأستاذ رفيق بك إلى أن هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد، وختم بخلافة الأمين ابن الرشيد، وأحب أن يقارن بين هذين الخليفتين، ثم ألفت الأستاذ إلى بشار، ومطيع، وأبي نواس، والرقاشي، والعباس بن الأحنف، ومسلم ابن الوليد، وحماد عجرد، ويحي بن زياد، وابن المقفع، وأبان بن عبد الحميد، وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين، ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون.

ألفت الأستاذ إلى هؤلاء جميعًا، وأحب أن يقرأهم ويدرس على حياتهم على هذه القاعدة وهي أهم ناس لا ملائكة. ولكني أخشى ألا يفعل الأستاذ لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء، أما أنا فلا أقدس القدماء، وإنما أنظر أليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي، وأعلم أنهم مثلك ومثلي يجدون، ويمزحون، يحسنون ويسيئون، وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما مضى، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك في الأسبوع الآتي عن الخمر عند أبي نواس.

oberkandl.com

الخمر قبل أبي نواس [1]

الأعشى – عدي بن زيد العبادي –
المنخل اليشكري – عصر الخلفاء –
عصر الأمويين – الأخطل–الوليد بن يزيد.

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء، ولا بالفخر، ولا بالوصف، ولا يغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه، وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محببة إليك وإلى في هذه الفنون نفسها، كما سنرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره في الخمر، وبافتنانه في المجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والغلمان.

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون، ولم يسبق إليها، بل هو لم ينفرد بها في عصره، وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء في الجاهلية وفي الإسلام ونافسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه، سبقه إليها كثيرون، ونافسه فيها كثيرون، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره من لحقه، وظل زعيم القدماء، وزعيم المحدثين في الخمر والغزل والمجون.

ولو أننا نعني في هذه الأحاديث بالتعميق في البحث العلمي، لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمريات أبي نواس أن ندرس مع شيء من التفصيل خمريات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس، وأن نجتهد في أن نتبن المقدار الذي سبق إليه أبو نواس، لنعرف ما اخترع وما استحدث، وليكون حكما له أو عليه صحيحا من كل وجه، ولكنك تذكر أنا لا نزعم لهذه الأحاديث صفة البحث العلمي المستقصي، لأن هذا البحث لا يليق بالصحف السيارة، ولا بالأحاديث التي تقرأ، أو تسمع في أي مكان وعلى أي حال، دون أن يختصها القارئ أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر في هذه الصحف من ضروب الكلام.

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رجب سنة ١٣٤١ – ٢٨ فبراير ١٩٢٣.

قليل من شعراء الجاهلية من لم يعرض للخمر في شعره، فأكثر هؤلاء الشعراء كانوا يشربون الخمر، ومنهم من كان شربه لها متصلا،ومنهم من كان يلم بها إلمامًا، وكانوا يصفعون الخمر وأقداحها وآنيتها المختلفة، ولهم في ذلك الكلام الجيد الكثير، لاسيما "الأعشى" الذي أكثر في الخمر وأطال، واشتهر بأنه من وصافها المجيدين، واستطاع ابن الأعرابي أن يزعم للمأمون أنه أشعر من وصف الخمر لقوله:

تريك القذى من فوقها وهي فوقه إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

بل ربما كان لنا أن نقول إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ منه شيئًا ليس بالقليل، وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ودواني بالتي كانت هي الداء

فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير "وداوني بالتي كانت هي الداء" وبين قول الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

فليس من شك في أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره السابق، ولكن أبا نواس لم يأخذ اللفظ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح ويغير ويضيف، فإن قوله "دع عنك لومي فإن اللوم إغراء" ليس في شعر الأعشى، وهو يكفي لأن يحتفظ لأبي نواس بالبيت كله، وقوله "وداوني بالتي كانت هي الداء" يذكر بقول الأعشى، ولكنه ليس إياه، لأن الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأسًا ويتداوي بكأس أخرى، فمعناه ضيق محدود، في حين قد مد أبو نواس هذا المعنى وبسط أطرافه، فأصبح لا حد له، أصبح يرافق الحياة، أصحت الخمر داء ملازمنا لمن يشربها، وأصبحت هي لهذا الداء، فهو يتداوى طول حياته من الخمر بالخمر. أم الأعشى فكن يتداوى من كأس بكأس، كان لا يذكر الداء والدواء إلا إذا شرب، بينما أبو نواس لا ينفك يذكرهما، لأنه لا ينفك في داء ودواء.

وللأعشى غير هذا كثير، ولكننا لا نعرض له، لما قدمنا، وهناك شاعر آخر جاهلي، يظهر أنه قد عنى بالخمر وأجاد فيها إجادة لا بأس بها. وكان مسيحيًا عاش قبل الإسلام، ولم يكن باديًا بمعنى الكلمة، وإنما كان حاضرًا أو كالحاضر،وكان يعيش في هذا الإقليم الذي عاش فيه أبو نواس، وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التي ربما اختلف إليها أبو نواس بعده بنحو قرنين، وكان هذا الشاعر يجيد من معان أجاد فيها شعراء العرق، وكان يجيد في الخمر،

وكان يجيد في الخمر، وكان يجيد في الزهد، والنسك، وضرب الأمثال، وإطلاق الحكم البالغة، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس، وكان يحسن حيث أحسن أبو العتاهية، ويروي له غزل لا بأس به، وهو "عدي بن زيد العبادي" الذي عاش في الحيرة في أواخر ا لعصر الجاهلي. لم يرو الرواة له كثيرًا في الخمر، ولكن ما يروي عنه يدل على أنه كان بها كلفًا، وفي وصفها مجيدًا، وانظر إلى هذه الأبيات القليلة، التي يختلف فيها الرواة اختلافا كثيرًا، والتي كانت تغني للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر:

بكر العاذلون في وضح الصبـ ... ـح يقولون لي أما تستفيق

ويلومون فيك يا بنة عبد اللـ ... ـه والقلب عندكم موثوق

لست أدري إذ أكثروا العذل فيها ... أعدو يلومني أم صديق

ثم ثاروا إلى الصبوح فقامت ... قينة في يمينها إبريق

قدمته على عقار كعين الـ ... ـديك صفى سلافها الراووق

مزة قبل فوقها فقاقيع كالد ... ر صغار يثيرها التصفيق

ففي هذه الأبيات على جاهليتها رقة الحضارة، دون أن تخلو من رصانة البداوة، ولا بأس بهذا البيت الأخير الذي يوصف ما يبدو على الخمر حين تمزح، فيذكر على بعد بقول أبي نواس:

كأن صغري وكبري من فقاقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله:

ثم ثاروا إلى الصبوح فقامت ... قينة في يمينها إبريق

ولو أن لدينا شيئا كثيرا من شعر هذا الشاعر في الخمر وغير الخمر، لاستطعنا أن نتبين شيئا من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق في العصر العباسي، وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الإقليم العراقي، والبيئة العراقية في الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية، ولكن ما يروي عن هذا الشاعر قليل جدًا، وأكثره مشكوك فيه، وأحسب أن الحظ الموفور منه – ولاسيما الزهد والحكم– قد نحل في العصر الإسلامي وأضيف إلى هذا الشاعر؛

لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلا من الزهد، فأضاف المنتحلون إلى هذا القليل ما يجعله كثيرًا، وهذا الانتحال على الجاهليين معروف مشهور.

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر، وأجادوا فيها بعض الإجادة، ولكن وصفهم لم يكن عميقًا، ولم يصطنع فيه التدقيق، وإنما كانوا يقنعون بالظواهر فيصفون لون الخمر ومظهرها، ويصفون أقداحها وأباريقها وصفا مجملا، ويصفون طعمها، ويصفون ما تحدث من نشوة، غير مبالغين في هذا الوصف ولا مسرفين في البحث عن الدقائق، بل إنما كانوا يقصدون، حين يصفون الخمر، إلى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الحلال، فكثير جدا في ذلك العصر ما يشبه قول عنترة:

وإذا شـــربت فـــإنني مســـتهلك مـــالي وعرضـــي وافـــر لـــم يكلـــم

وكثيرا جدا ما يشبه هذه الأبيات التي قالها "المنهل اليشكري" في وجهتها، وهي الفخر، لا في معانيها. وهي من أبدع ما يروي عن الشعراء الجاهلين، ولكن لا تنس أن المنخل اليشكري شاعر من شعراء العراق أيضًا. كان يعيش في الحيرة، وينادم النعمان، ويعاصر النابغة، وهذه هي الأبيات:

ولقـــد دخلـــت علـــى الفتـــا ة الخـــدر فـــي اليـــوم المطيـــر

الكاعـــــب الحســـــناء تـــــر فـــل فـــي الـــدمقس وفـــي الحريـــر

فـــــــدفعتها فتـــــــدافعت مشـــــي القطـــــاة إلـــــى الغـــــدير

فلثمتهـــــــــا فتنفســـــــت كتـــــنفس الظبـــــي البهيـــــر

ولقـــد شـــربت مـــن المـــدا مـــــة الصـــــغير وبـــــالكبير

فـــــإذا ســـــكرت فـــــإنني رب الخورنـــــــق والســـــــدير

وإذا صـــــــحوت فـــــــإنني رب الشـــــــويهة والبعيـــــــر

يـــــا هنـــــد مـــــن لمتـــــيم يـــــا هنـــــد للعـــــاني الأســـــير

فانظر إلى أول هذا الشعر، لكيف أحسن تصوير هذه الفتاة. وكيف ذكر يوم لهوه. ثم انظر إلى هذين البيتين، أحدهما يشبه تدافع الفتاة بمشي القطاة إلى الغدير، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبتها، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها، ثم انظر إليه كيف عرض للخمر، فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس، وشرب منها بالقدح، وعلى أنه قد يسكر فيخيل إليه أنه الملك ذو القصر، وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها، إلا إذا صحا فرأي الشاة ورأي البعير.

وانظر إلى قول الآخر. من شعراء الجاهلية:

ومعرس عرض الردى عرسته والصبح ساطع لونه لم ينجل

فأتيت حانوتا به فصبحته من عاتق بمزاجها لم تقتل

صهباء صافية القذى أغلى بها يسر كريم الخيم غير مبخل

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر، ولكنهم لم يكونوا يمعنون في هذا الوصف إمعانهم في وصف الخيل والإبل، وما إلى الخيل والإبل، لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون أن يعطفوا عليها، ويعاشروها معاشرة متصلة. كما كانوا يعاشرون الإبل والشاة. وإنما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة، يشرب فيها ويلهو. فإذا فرغ من شربة ولهو تحدث بذلك مفاخرا، وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب، ولم يأخذ من اللهو بحظ، وإنما دعاه إلى ذلك الفخر والفن؛ فقد دخل وصف الخمر والإلمام بها في فن الفخر، والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء، ومن العفة حيث يدعو كل شيء إلى إطراح العفة إلى غير ذلك من هذه المعاني الشائقة، التي تجدها عند الجاهلين جميعًا.

فإذا أردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه. وجدت صفتين اثنتين: الأولى أن الشعراء كانوا يلمون بالخمر إلمامًا، ولا يلحون في وصفها ولا يكثرون منه ولا يدققون فيه، وإنما كانوا يعرضون له مع شيء من الاحتياط، الثانية أنهم لم يتخذوا وصف الخمر فنا مستقلا من فنون الشعر، كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون.

ولم يكن من الممكن أن يستقل وصف الخمر في هذه العصر. ويصبح فنا قائما بنفسه يقصد من حيث هو، لأن الحياة الجاهلية لم تكن تسمح بذلك ولا تدعو إليه، ولهذا اشتهر الأعشى، وعدي بن زيد بإكثارهما في وصف الخمر، لأن ذلك لم يكن شيئا مألوفا، فلما جاء الإسلام سكت الناس عن الخمر حينا، صرفهم عنها الدين، وصرفه عنها جد الخلفاء، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار. ومع ذلك فيظهر أن الشعر وحده، هو الذي سكت عن الخمر خوفا إشفاقا، وأن كثيرا من العرب، البادين والمتحضرين، كانوا لا يضنون على أنفسهم باللهو،

يختلسونه اختلاسا ويسترقونه استراقا، وللرواة في ذلك أحاديث مها الصحيح، ومنها المتكلف المنحول. فهناك بيت يحضرني ولست أدري لمن هو، ولكني أعلم أنه قيل أيام عمر رضي الله عنه، وأنه موجه إليه وهو:

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا في الجوسق المتهدم

وقصة الوليد بن عقبة – عامل عثمان رضي الله عنه على الكوفة – شائعة معروفة، والرواة يزعمون أنه كان يدمن على الشراب، وأنه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران، فركع ثلاثا ثم التفت إلى المصلين وقال "إن شئتم زدناكم!" ويروي الرواة أن عثمان أمر بحده، ون عليا رضي الله عنه هو الذي ضربه، والرواة يتحدثون بشيء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدي، فيزعمون أنه كان يحب الخمر، ويعكف عليها، وكأنه كلم في ذلك، وذكر بآيات الله فقال كلاما لا نرويه!..

وما كاد ينتهي عصر الخلفاء، ويثبت سلطان بني أمية، حتى ضعف سلطان الدين، وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع، إلى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات، وكثرت الغنائم، وعظمت الثروة، واضطر أفراد كثيرون من أحفاد المهاجرين والأنصار وأشراف قريش، إلى أن يقيموا في الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغنى كثير، وقد حيل بينهم وبين العمل السياسي خوفا منهم أو عقابا لهم، فانصرفوا إلى اللهو، وعكفوا على للذة وأسرفوا فيهما وتغيرت الآية.. فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزلين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو، وكانت لهؤلاء الناس جميعا مجالس معروفة مشهورة، كثر ذكرها فكتب الأدب و التاريخ،وكثرت حولها الأخبار والشائعات، واضطر الخلفاء من بني أمية إلى أن يظهروا في بعض الأحيان ضربًا من القسوة، فنكلوا ببعض هؤلاء الناس، وعذبوا بعضه ثم ينفون، وخبر الأحوص بن محمد الأنصاري معروف، وخبر المخنثين في المدينة معروف أيضًا، وشعر محمد بن أبي ربيعة، وأخبار الدلال، أكثر وأشهر من أن ملح في ذكرها.

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون، ولكنهم كانوا يحتشمون فلا يكادون يذكرون ذلك في الشعر إلا إلماما، كانوا يحتشمون إشفاقا ووقارا، ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشموا، ولا أن يخافوا، بل كانوا يجهرون بلذاتهم وظهر في ذلك وبرع فيه الأخطل بني أمية، ولسانهم الناطق بسياستهم، المناضل عن حزبهم، كان مسيحيا، وكان كلفا بالخمر مشغوفا بها، حتى كره ذلك منه القسس، ويقال أنهم عذبوه وضربوه، لأنه كان شديد الخضوع للدين، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين.

أكثر الأخطل من الشرب، وأكثر من وصف الخمر، وأجاد فيه، وجاهر بشربه، ولهوه، واستخدمه في السياسة. فيروي أنه دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان وهو سكران يترنح، فأنشده هذين البيتين.

إذا مـا نـديمي علنـي ثـم علنـي ثـــلاث زجاجـــات لهـــن هـــدير

خرجت أجر الذيل تيها كأنني عليـــك أميـــر المـــؤمنين أميـــر

وكـان زفـر بـن الحـارث جالسـا مـع عبـد الملـك علـى السـرير، وقـد كـان عـادي بنـي أمية،وكلفهم ضروبا من العناء، فلما أنزلوه على حكمهم، قربه عبد الملك وأخذ يحبه، فاغتاظ لذلك الزعماء، وأغروا به الأخطل، فدخل على الخليفة في هذه الحال، وأنشده البيتين ثم روي من عشر زفر هذين البيتين:

أريـنـــي ســـلاحي لا أبالـــك إننـــي أرى الحـــرب لا تـــزداد إلا تماديـــا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقـى حـزازات الصـدور كمـا هيـا

فيقال إن عبد الملك ضرب برجله في صدر زفر، فألقاه على السرير، وكاد يقتله.

ولسنا نريد أن نطيل في شعر الأخطل ووفه للخمر، فشعر الأخطل معروف، وديوانه مطبوع، ولكننا نستطيع أ، نقول بالإجمال: إن الأخطل على إكثاره في وصف الخمر، لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيره من شعراء الجاهلية، فهو أكثر في وصف الخمر، ولكنه لم يخترع شيئا كثيرًا.

ثم أخذ الزمن يتقدم، وأخذ الناس يترفون، وأخذا الاحتشام يقل ويضعف في الطبقات المختلفة، وأخذ الميل إلى اللذة والإسراف فيها ينتقلان من مكة والمدينة إلى دمشق، ولسنا نذكر يزيد بن معاوية، فقد كان الإنكار عليه شديدا، وكان سخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريبا، وحرصهم عليه لم يزل قويا، بل لا نذكر أبناء عبد الملك؛ فقد كانوا يحتاطون في اللهو، ويتسترون.

ولكن القرن الأول للهجرة لم يكد ينتهي، حتى كان الجيل قد تغير، والعهد قد تبدل، وحتى كان الاختلاط بين العرب، والفرس، وهذه الأمم الكثيرة المتباينة في الشام، قد عمل عمله، وأخذ يظهر آثره الكثيرة المختلفة، ومن أعظمها وأشدها خطرًا، المجون، وحب اللهو، وحرية الفكر والسيرة، ولقد أشرنا في الحديث الماضي إلى أن هذا القرن الثاني للهجرة قد كان عصر مجون وشك، قلنا يكفي هذا القرن قد بدئ بالوليد بن يزيد، وختم بالأمين بن الرشيد.

ولقد كنا نود لو أتيح لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد، وعما سلك من طرق الهزل، وما ابتدع من ألوان المجون، حين كان وليا للعهد، وحيث كان أميرا للمؤمنين، ولسنا نود ذلك حبا فيه، أو كلفا به، بل لأن الوليد بن يزيد أثرا قويا جدا عرفه المتقدمون أنفسهم في شعر أبي نواس، فإن صاحب الأغاني مثلا يتحدث بأن الشعراء العباسيين أخذوا كثيرا عن الوليد في الخمر، ويختص منهم أبا نواس؛ لأنه أكثر الانتفاع بشعر الوليد.

وليس في هذا شيء من الغرابة، فقد كان الوليد شيء الحظ في حياته وبعد موته، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره، فعدا عليه الشعراء، وأمنوا أن يتهموا بالسرقة؛ كان الوليد سيء الحظ، فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه، ويريد أن يخلعه من ولاية العهد، ويضع ابنه مكانه، فكان لذلك يضطهده، ويضطهد أولياءه،فما مات هشام واستخلف الوليد، لم يطل عهده بالخلافة، وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه!.

وليس يعنينا أن يكون الوليد ظالما أو مظلوما، وليس يعنينا أن نحكم في أمر الوليد من جهة الدين والسياسة، وإنما الذي يعنينا الآن، هو أن نقول: إن الوليد كان شاعرا مجيدًا، وماجنا ماهرا في المجون، مفطورا عليه، وإنه هو الذي فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء، وهو من هذه الجهة سيء الحظ؛ لأن شعره ضاع ولم يحفظ، وتفرقت شخصيته بين الشعراء، فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تنم به أخباره في الأغاني.

نقول: إن الوليد هو الذي فتح للشعراء باب المجون، ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط، حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه، فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهدا في حياته أيام عمه هشام، وأنه اضطهد بعد موته، ولاسيما أيام بني العباس، وأن خصومه وأعداءه من الأمويين والعباسين قد أضافوا إليه من ا لشعر والحوادث ما لم يقل، ولم يعمل، إذن فيجب الاقتصاد، والحذر، عند قراءة ما يضاف إليه، ومع هذا الاقتصاد والحذر فليس من شك في أن الوليد كان ماجنا خليعا، وكان مسرفا في الخلاعة والمجون.

ولم يكن إسرافه في الخلاعة والمجون أثرا من آثار اللذة، والكلف بها فحسب. وإنما كان فيما يظهر أثرًا من آثار اضطراب الدين، وفساد العقيدة في نفسه، كان أثرا من آثار البدع الجديد، الذي نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة، فأحدث الشك والإلحاد في نفوس نفر منهم غير قليل؛ فلم يكن مؤمنا بالعبث، ولا بالعقاب والثواب،وكان مع هذا يؤدي فرائضه الدينية، فيصلي ويصوم لأن الناس كانوا يصلون ويصومون، ولأنه كان وليا لعهد الناس، او خليفة على الناس، وانظر إلى هذه الأبيات:

أدر الكأس يمينا ... لا تدرها ليسار
اسق هذا ثم هذا ... صاحب العود النضار
من كميت عتقوها ... منذ دهر في جرار
ختموها بالأفاويه ... وكافور وقار
فلقد أيقنت أني ... غير مبعوث لنار
....
وذروا من يطلب الجنة ... يسعى لتبار

في هذا الشعر شيء من روح أبي نواس، ولكنه لم يبلغ من الصقل، وصفاء الأديم، ما بلغه أبو نواس، والوليد يعترف فيه بأنه لن يبعث ولن يعذب؛ وإذن فليستمتع باللذات، وليدع الأتقياء يشقون بخيال الجنة الذي يسعون إليه، بل هو لا يريد أن يدع هؤلاء الناس، وما يسعون إليه من نعيم، حق أو باطل، وإنما يريد أن يروضهم، حتى يصل بهم إلى ما يريد من إنكار كل شيء، والعبث بكل شيء، سواء في ذلك الدين والخلق والعادة.

ولقد تحدث بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خلفية، فلما كانت العصر نهض فصلاها، ثم جلس يتحدث، فلما كانت المغرب نهض فصلاها، ثم تعشى، ثم جلس يتحدث، ثم قال: اسقيني، فأقبلت جوار، فقمن بينه وبين الراوي، فسقينه، وأخذ يقول: اسقيني، وأخذا الجواري يسقينه، حتى أقبل الفجر، قال الراوي: فأحصيت له سبعين قدحا.

obeikandi.com

ومثل هذا كثير في أخبار الوليد، والناس يرونه أنه سكر يوما، فأمر جاريه له، فصلت بالناس، ولم يكن الوليد مغرقا، ولا مندفعا في اللذات اندفاعا غير منظم، لم يكن كيرا معربدًا، وإنما كان في قلبه مكان للحب، وللحب القوي المتين، فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان، وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى، فجال هشام بينه وبين ذلك، فأنطقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير، فيه نقاء وجوده، وفيه رقة ووفاء، فلما ولي الخلافة وصل إلى ما أراد، ولكن سلمى لم تقم عنده إلا أربعين يومًا، ثم ماتت فجزع الوليد، ورثاها بالشيء الكثير، وأكثر ما قال الوليد في سلمى غنى فيه، وروي أبو الفرج منه طائفة لا بأسس بها، فذا أردت أن تتعرف روح الوليد وشخصيته الشعرية، فاقرأ هذا الشعر في الأغاني، ولكني أروي لك أبياتًا له في الخمر لا تشك، حين تقرؤها في أنك تقرأ أبا نواس:

اصدع نجي الهموم بالطرب ... وانعم على الدهر بابنه العنب

واستقبل العيش في غضارته ... لا تقف منه آثار معتقب

من قهوة زانها تقادمها ... فهي عجوز تعلو على الحقب

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها ... من الفتاة الكريمة النسب

فقد تجلت ورق جوهرها ... حتى تبدت في منظر عجب

فهي بغير المزاج من شرر ... وهي لدى المزج سائل الذهب

كأنها في زجاجها قبس ... تذكو ضياء في عين مرتقب

في فتية من بني أمية أهـ ... ـل المجد والمأثرات والحسب

ما في الورى مثلهم ولا بهم ... مثلي ولا منتم لمثل أبي

فانظر إلى هذا الشعر الجيد السهل، وانظر إلى ما فيه من تشبيه بديع ينم عن حضارة وترف.

فهي بغير المزاج من شرر ... وهي لدى المزج سائل الذهب

obeikandi.com

ثم ألست تحس في هذا الشعر كله، رقة أبي نواس، وخفة روحه! ومع هذا، فالوليد محتفظ بالسنة القديمة، يتخذ الخمر وسيلة إلى الفخر..

لم يكد يبتدئ القرن الثاني إذن حتى ظهر المجون، وانتشر، ووصل إلى قصور الخلفاء، ثم كانت ثورة العباسيين، فبم انتصار الفرس على العرب، وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق، وأصبح الأدب عراقيا، لا شاميا ولا بدويا، أي أصبح خاضعا من كتب، لتأثر الفرس، وحضارة الفرس. فتم انتصار العبث والمجون، وتمت استحالة الطبع العربي، وانقطع – أو كاد ينقطع – العهد بين هذا الطبع وبين بدواة العصر الأموي، وأقبل أبو نواس وأصحاب أبي نواس، فوجدوا سنة موروثة وطريقا ممهدة، فأحيوا السنة، وسلكوا الطريق، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد، فلم يضيعوا الميراث، ولم يفسدوه. وإنما نموه ورقوه، وكان هذا الشعر العباسي الذي نزعم أن أبا نواس يمثله، والذي سنحدثك عنه في الأسبوع الآتي.

obeikandl.com

الخمر عند أبي نواس [1]

سحر الشعر – إدمان الخمر – وعبادتها – المذهب السياسي – تفضل الفرس على العرب.

رأيت في الأسبوع الماضي أن الخمر قد وصفت قبل أبي نواس بنحو قرنين، فأحسن وصفها، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عليها، وأن الوليد ابن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخمر وسيلة إلى إعلان المجون فيما نعلم، وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره، فأحسنوا وأجادوا، ولكن أبا نواس هو زعيم هذا الفن كما قلنا.

والناس مجمعون على ذلك، فلا نعرف من يقدم أحدًا على أبي نواس في وصف الخمر، والافتنان فيها، ولقد كان بعض الرواة يغلون في ذلك، فيزعم أن أبا نواس ق وصف الخمر وصفًا لو سمعه الحسنان لهاجرا إليها، ولعكفا عليها (يريد الحسن البصري وابن سيرين) ولسنا ندري إلى أي حد تصح هذه الرواية، ولكنا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخمر إحسانا لم يسبق إليه، ولم يلحق فيه، ونعلم أيضًا أن هذه الأوصاف التي نستحسنها ونستعذبها، ليست من الجودة أو الحسن بحيث ترغبنا في الخمر، أو تحملنا على أن نهاجر إليها، ونعكف عليها، بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك، فنزعم أن كثيرًا من هذا الإحسان، وهذه الإجادة قد يمر بنا دون أن نلاحظه أو نلفت إليه إلا إذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذي عاش فيه أبو نواس، وبينا ذوق أهله، وما كانوا يحبون ويكرهون، ففي هذا الإحسان والإجادة شيء كثير إضافي، أي أنه إحسان وإجادة بالقياس إلى العصر الذي قيل فيه، وإلى الناس الذين سمعوه؛ فإذا تغير الزمان واستحال الذوق، فليس بالإحسان ولا بالإجادة، وربما كان أدني إلى الثرثرة ولغو الكلام، ولهذه الملاحظة خطرها؛ فهي تدل على شيئين قيمين.

أحدهما: أن الحكم على شعر القدماء – ولاسيما الشعر الغنائي – لا ينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصري وحدة مقياسًا للجودة والرداءة، وإنما ينبغي أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذي عاش فيه الشاعر؛ فإن الشعر الغنائي بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه، ممثل لما كان يحس الشاعر قومه وما كانوا يشعرون به، وأوضح أن هذه العواطف ليست متحدة على

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رجب سنة ١٣٤١ – ٧ مارس سنة ١٩٢٣.

اختلاف الأزمنة والأمكنة، وأن أهل بغداد كانوا يحبون ما لا نحب، ويكلفون بما لا نكلف به، ويميلون إلى ما لا نميل إليه، فليس غريبا أن يستعذبوا من الشعر منا لا نستعذب، وأن يفتنوا منه بما نقرؤه نحن غير مكترثين.

والآخر: أن قليلا جدًا من هذا الشعر الغنائي ما يبقي عليه الدهر، ويخلد على مر الأيام، وأن قليلا جدًا من الشعراء المغنين ما يظفرون بإعجاب الجيل الذي يعيشون فيه، والأجيال التي تليه، فإذا ظفر أحدهم بهذا الإعجاب المتصل فذلك آية نبوغه، وقدرته على وصف العواطف، التي تهز قلوب الناس من حيث هم ناس، لا من حيث إنهم بغداديون أو مصريون، ولا من حيث إنهم من أهل القرن الثاني أو الرابع عشر للهجرة.

ولأبي نواس حظ غير قليل من هذا الإعجاب، كما رأين فيما مضى، وكنا سنرى فيما نعرض له من شعره، ولكن لأبي نواس شعرًا كثيرًا عجب به الناس في عصره ولا نحفل به نحن الآن، وهذا الشعر كثير في الخمر، وربما كان أحسن مثالا له هذه القصائد الطوال، التي قالها أبو نواس وغير أبي نواس في قدم الخمر وتعتيقها، وإنها قد شهدت عصر نوح، ثم عاد وثمود، وأنها تستطيع أن تتحدث إليك بأخبار الأولين، إلى آخر ما هناك، مما هو كثير يملأ شعر القدماء ولا نعجب نحن إلا إعجابًا إضافيًا، لأننا نعلم أن القدماء كانوا يعذبون به ويتنافسون فيه، ومن ذلك أيضًا هذا الشعر الكثير الذي يصف الشعراء فيه بحثهم عن الخمر، وارتيادهم إياها، ومغالاتهم في ثمنها، فيشبهونها بالعذراء تخطب إلى أبيها الدهقان، ويغالي هذا الدهقان في مهرها، ويتمنع في تزويجها من شاربيها، لأنه يريد أن يتخذ لها الأكفياء، ومنة ذلك أيضًا الإكثار في وصف الخمر وريحها، وأنها تقطب الجبين،وتزيل الزكام، إلى آخر ما هناك مما لا نحفل به الآن، ثم الكلام الكثير في أن الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس وإنما عتقت وتخمرت في جوف الأرض بمعزل عن حر الشمس والنار، وقد نقرأ الشعر الذي يتناول هذه المعاني فنعجب به لأن لفظه جيد، أو لأن فيه مغالاة تدهشان، وتخالف ما ألفنا، أو لأن يفه شيئًا من الإحالة والبعد عن معقول الناس.

فإذا أردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح.، ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا، لم نجد شيئًا. وأغرب من هذا الشعراء المعاصرين الذي يحتذون القدماء، ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة،ويسحروننا بكلام نسمعه فنعجب به، حتى إذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئًا، أو وجدنا ما لا يروق، فأي الناس سمع هذه الشعر من قول حافظ ثم لم يفتن به:

يا غلام المدام والكاس والطا   س وهيئ لنا مكانا كأمس

واسقنا يا غلام حتى ترانا   لا نطيق الكلام إلا بمس

خمرة قيل إنهم عصروها   من خدود الملاح في يوم عرس

فانظر إلى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك، أو تستطيع أن تنظر إليه دون أن تتأذى وينالك شيء من الألم غير قليل؟ إذن فينبغي أن نحتاط ونقتصد في الإعجاب بالشعر عامة،وبشعر القدماء خاصة، فإن سحر الشعر كثير قوي، مختلفة أسبابه وبواعثه.

والآن وقد بسطنا في المقدمة التي يكن منها بد، نستطيع أن نعرض لوصف الخمر في شعر أبي نواس، وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التي نستطيع أن نعتبرها مقياسا لذوق الشعراء في ذلك العصر، وللموضوعات التي كانوا يلمون بها، ويقصدون إليها، وهي:

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها   بالرطل يأخذ منها ملئه ذهبا

قصرت بالراح فاحذر أن تسمعها   فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا

إني بذلت لها لما بصرت بها   صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا

فاستوحشت وبكت في الدن قائلة   يا أم ويحك! أخشى النار واللهبا

فقلت لا تحذريه عندنا أبدًا   قالت فبعلي؟ قلت الماء عن عذبا

قالت لقاحي؟ فقلت الثلج أبرده   قالت فبيتي؟ فما أستحسن الخشبا

قلت القناني والأقداح ولدها   فرعون قالت لقد هيجت لي طربا

لا تمكنني من العربيد يشربني   ولا اللئيم الذي إن شمني قطبا

ولا المجوس فإن النار ربهم   ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا

ولا السفال الذي لا يستفيق ولا   غر الشباب ولا من يجهل الأدبا

obeikandi.com

ولا الأراذل إلا مــــن يـــــوقرني   مــن السـقاة ولكـن أسـقني العربـا

يــا قهــوة حرمــت إلــى علــى رجــل   أثــري فــأتلف فيهــا المــال والنشــبا

فانظر إلى هذه القصيدة، فلن تجد فيها معنى يخلبك،أو شيئا يستهويك، ومع ذلك، فأستطيع أن أوكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعاني، ويستعذبون الشعر الذي ترد فيه، وكانوا يحبون هذا التشبيه "تشبيه الخمر بالعروس تخطب ويغالي في مهرها" وكانوا يحبون هذا الحوار يجري بين الخمر ومن يرتادها، وكانوا يحبون هذه الأبيات الأخيرة التي تقص عن الخمر من ليس لشربها أهلا، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت الأخير الذي يحل الخمر للغني يتلف ثروته فيها، أما نحن فلعلنا لا نحب من هذا كله شيئا. ولعلنا نقرأ هذه القصيدة، فلا نجد فيها ما ستخف، ولا ما يرغب في الخمر..

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حبًا ربما كان أشبه بالدين، كان يعبدها ويقدسها تقديسا، فانظر إلى هذه الأبيات، ولست أشك في أنك ستستحسنها، وتعجب بها الإعجاب الكثير، وتشعر بأنها ليست مدحا للخمر، وإنما هي صلاة إلى الخمر:

أثـــن علـــى الخمـــر بآلائهـــا   وســـمها أحســـن أســـمائها

لاتجعـــل المـــاء لهـــا قـــاهرا   ولا ســـتلطها علـــى مائهـــا

كرخيـــة قـــد عتقـــت حقبـــة   حتـــى مضـــى أكثـــر أجزائهـــا

فلـــم يكـــد يـــدرك خمارهـــا   منهـــا ســـوى آخـــر حوبائهـــا

دارت فأحيـــت غيـــر مذمومـــة   نفـــوس حراهـــا وأنضـــائها

والخمـــر قـــد يشـــربها معشـــر   ليســـوا إذا عـــدوا بأكفائهـــا

فانظر إلى هذا البيت:

أثـــن علـــى الخمـــر بآلائهـــا   وســـمها أحســـن أســـمائها

أليس الشطر الأول منها تسبيحًا للخمر؟! أليس الشطر الثاني منه تقديسا للخمر؟ أليس في هذا البيت على شهوته وبراءته من ألفاظ المجون أشد ألوان المجون؟ أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه؟ أليس يذكرك القرآن؟ أليس يذكرك قول الله تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾. ثم انظر ما جاء بعد هذا البيت، انظر إلى سهولة اللفظ، وخلوه من التكلف، انظر إلى هذا النظم يكاد يكون نثرا، وانظر إلى دقة هذا المعنى الذي قد لا يعجبك في نفسه، ولكنه على هذا جميل دقيق، يمثل عقل أبي نواس، واصطباغه بالصبغة الفلسفية التي كانت عامة في عصره:

كرخيـــة قـــد عتقـــت حقبـــة حتـــى مضـــى أكثـــر أجزائهـــا

فلـــم يكـــد يـــدرك خمارهـــا منهـــا ســـوى آخـــر حوبائهـــا

فهذه الدقة لا تستهويك ولا ترغبك في الخمر، ولا تنزع بك إلى حب الشراب، ولكنها في نفسها جميلة محببة. وانظر إلى استئناف الثناء على الخمر، في لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع:

دارت فأحيـــت غيـــر مذمومـــة نفـــوس حراهـــا وأنضـــائها

والخمـــر قـــد يشـــربها معشـــر ليســـوا إذا عـــدوا بأكفائهـــا

فقد رأيت في هاتين القصيدتين شيئين مختلفين:

رأيت في الأولى معاني لا تعجبك ولا تروقك، وكانت تعجب القدماء وتروقهم،ورأيت في الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحث عليها، وإنما هي جميلة لنفسها؛ لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته، و حسن غوصه على المعاني،وهي تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين.

وانظر إلى هذه الأبيات التي تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء؛ لأنها تصف شيئا ترغب أنت كما كان يرغب القدماء في وصفه:

كـم متـرف عقـل الحيـاء لسـانه فكلامـــه بـــالوحي والإيمـــاء

لمـا نظـرت إلـى الكـرى فـي عينـه قـــد عقـــل الجفنـــين بالإغفـــاء

حركتـــه بيـــدي وقلـــت لـــه انتبـــه يـــا ســـيد الخلطـــاء والنـــدماء

حتـــى أزيـــح الهـــم عنـــك بشـــربة تســـمو بصـــاحبها إلـــى العليـــاء

فأجـابني والسـكر يخفـض صـوته والصـبح يـدفع فـي قفـا الظلمـاء

إنـــي لأفهـــم مـــا تقـــول وإنمـــا رد التعـــافي ســـورة الصـــهباء

ومع ذلك فأنت لا توقظ نديمك من نومه، ولا تحركه بيدك، ولا تسأنف الشراب إذا أقبل الصباح كما كان يفعل القدماء، ولكن انظر إلى هذا البيت بنوع خاص:

فأجـابني والسـكر يخفـض صـوته والصـبح يـدفع فـي قفـا الظلمـاء

كـان أبـو نـواس إذن يعبـد الخمـر ويـدمن شـربها، فيشـربها إذا أمسـى، ويشـربها إذا أصبح،وربما عكف عليها ليله ويومه. ورما عكف عليها الأسبوع كله، لا ينصرف عنها إلا حيث يثقله النوم، كنا ترى ذلك في قصيدته التي مطلعها:

يـا طيبنـا بقصـور القفـص مشـرقة فيهـا الدسـاكر والأنهـار تطـرد

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه أمين الذي كان ينادمه ويساقيه، واتخذ أنصار المأمون في خراسان هذا سلاحًا يحاربون به الأمين، وفكان ينشد مجون أبي نواس في المسجد الجامع عند الصلاة، ويلعن من قاله، ومن أحبه، وكأن هذا قد وصل إلى الأمين في بغداد فأشفق منه، وأراد أ، يحتاط ويصطنع الوقار، فنهى أبا نواس عن شرب الخمر، وأظهر أبو نواس الطاعة، ولكن ذلك شق عليه، فقال فيه شعرًا كثيرًا جدًا، منه هذه الأبيات:

أعـاذل أعتبـت الإمـام وأعتـاب وأعربـت عمـا فـي الضـمير وأعربـا

وقلـت لسـياقيها أجزهـا فلـم أكـن ليـأبى أميـر المـؤمنين وأشـربا

فجوزهـا عنـي سـلافا تـرى لهـا إلـى الأفـق الأعلـى شـعاعا مطنبـا

إذا عـب فيـه شـارب القـوم خلتـه يقبـل فـي داج مـن الليـل كوكبـا

وقال هذه القصيدة الأخرى التي تبين مقدار ما يعاني من الألم والحرمان لطاعة الأمين:

أيهـــا الرائحـــان بـــاللوم لومـــا لا أذوق المـــــدام إلا شـــــميما

نـــالني بـــالملام فيهـــا إمـــام لا أرى لـــي خلافـــة مســـتقيما

فاصـــرفاها إلـــى ســـواي فـــإني لســـت إلا علـــى الحـــديث نـــديما

كبـــر حظـــي منهـــا إذا هـــي دارت أن أراهـــا وأن أشـــم النســـيما

فكـــأني ومـــا أزيـــن منهـــا قعـــدي يـــزين التحكيمـــا

كـل عـن حملـة السـلاح إلـى الحـر ب فأوصـــي المطيـــق ألا يقيمـــا

وليس كل الناس قادرًا على أن يفهم هذين البيتين الآخرين على أنهما لا يخلوان من جمل، فهو يشبه نفسه في وصفة للخمر وحثه الناس على شربها، دون أن يستطيع لها مذاقًا، بالخارجي الذي عجز عن الحرب، فقعد وأخذا يحث الناس عليها.

على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر، ولم يكن يستطيع أن يتوب. ولعل التوبة لم تدركه إلا حين أدركه الموت، وقد ذكرنا لك في غير هذا الفصل ما كان من أمر صديقه الكوفي الذي مازال به حتى حمله على خلاف الأمين، فشرب الخمر، وسب زبيدة، وعاد إلى الأمين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته، فلم يغضب لذلك الأمين، بل حمده ورضي عنه، وأمر أبا نواس فحمل إليه صديقه الكوفي، فاتخذه نديمًا!...

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئا غير هذا الفسق والإغراق في المجون، وهو أنه كان يريد أن يتخذ – ويتخذ الناس معه– في الشعر مذهبًا جديدًا، وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحضارة، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء، لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء، وما ألفوا من ضروب العيش، فإذا تغيرت ضروب العيش هذه، وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها، فليس يليق ساكن بغداد، والمستمتع بالحضارة ولذاتها، أن يصف الخيام والأطلال، أو يتغنى الخمر والقيان، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف.

أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب، فجد فيه ووفق التوفيق كله، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة،وذم طريقة القدماء.

ولولا ما نعرفه من سرته وإدمانه، لكان من الحق أن نشك في أنه من اللهو والمجون بحث يصف نفسه، وأن نتساءل أليس هذا الغلو والإسراف، أثرًا من آثار التعصب لمذهبه الجديد؟

على أن هذا المذهب الجديد، على حسنه واستقامته، وعلى أن أبا نواس موفق ليه، لم يسلم من أشياء تمكننا من أن نفسه بغض الناس عله، ونعيهم عليه، فهو ليس مذهبًا شعريًا فحسب، وإنما هو مذهب سياسي أيضًا.

يذم القديم – لا لأنه قديم – بل لأنه قديم، ولأنه عربي، ويمدح الحديث – لا لأنه حديث – بل لأنه حديث، ولأنه فارسي، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب،مذهب العشوبية المشهور.

ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصال العربية، على هذا المذهب الجديد، ونفهم أيضا أ الشريد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب، و مهما يكن من شيء، فالخمريات التي عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجديد، وذم المذهب القديم، هي أجود ما يروي عن أبي نواس ولا بد من أن نلم بكل هذه القصائد، لنستطيع أن نستخلص أوصل هذا المذهب الجديد، كما كان يتصوره أبو نواس، ولكننا نرجئ هذا إلى الأسبوع الآتي ونختم حيث اليوم بهذه الأبيات في هذا الموضوع:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند وأشرب على الورد من حمراء كالورد

كأسا إذا انحدرت من خلق شار بها أجدته حمرتها في العين والخد

فالخمر يا قوتهن والكأس لؤلوة في كف جارية ممشوقة القد

تسقيك من يدها خمرا ومن فهما خمرا فما لك من سكرين من بد

لي نشوتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدي

ويتحدث الرواة أن أبا نواس أنشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه، فخروا له سجدًا؛ فقال فعلتموها! أعجمية! والله لا كلمتكم ثلاثا وثلاثًا وثلاثًا!! ثم ندم، وقال: تسعة أيام في هجر الإخوان كثير! وربما كان أصحاب أبي نواس مسرفين حين سجدوا له إعجابا به.

ولكن الشيء الذي لا شك فيه، هو أن هذه الأبيات من أحسن شعره وأجوده، وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الأبيات، ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهويك، دون أن تستطيع له تحديدًا؛ جمال في اللفظ وجمال في المعنى، فليس في اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع، بل هي ألفاظ متخيرة ليست بالمبتذلة، ولا التي لا يفهمها عامة الناس، وليس في المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل، بل هي معان مألوفة، ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها، فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة، ما كنت لتحسهما، لولا أن قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها إلى بعض، انظر إلى قوله "واشرب على الورد من حمراء كالورد"وانظر إلى قوله:

فالخمر يا قثوته والكأس لؤلؤة في كف جارية ممشوقة القد

تسقيك من يدها خمرا من فمها خمرا فما لك من سكرين من بد

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضا، ويكمل بعضها بعضا، هي التي تحدث في نفسك اللذة، وتبعثها على الإعجاب، وانظر إلى هذا البيت الأخير، وإلى شطره الثاني بوجه خاص، تجده حضريا، فانيا في الحضارة، ومترفا مغرقا في الترف، يعبر عن حضارته وترفه، لفظ يكاد يصل إلى قلبك، دون أن تسمعه:

لي نشوتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدي

ولست أدري لماذا لم أسمع هذا البيت مرة، إلا وددت لو سمعته من فم مغن يجيد الغناء!.

الخمر عند أبي نواس [1]

الشـــعر لســـان الحيـــاة – تجديـــد فـــي الأســـاليب
والمعـــــاني – صـــــعوبة الاعتـــــراف بـــــالتطور –
المجـون مـن مظـاهر الحيـاة– الحنـين إلـى الفـرس

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس؛ فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال، كتبناه عن وصف الخمر في شعره، وما إخالك إلا قد نسيت هذا المقال، كما هو شأ، القارئ لما يكتب في صحيفة السيارة، مهما يكن هذا الذي يكتب، سياسة أو أدبا أو غير السياسة والأدب، وما إخالك إلا نسيت هذا المقال، على أنه لم يكن إلا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبي نواس.

فقد رأينا أن أبا نواس كان – بعد الوليد بن يزيد – أشد الشعراء عناية بالخمر وأكثرهم وافتتانا فيها، وأن الناس جميعا شهدوا له في ذلك بالسبق والتقدم، لم يفضلوا عليه أحد من الشعراء، الذين جاءوا قبله أو بعده، ورأينا أن الناس محققون في هذا ولكننا رأينا أن معاني أبي نواس في الخمر – على أنها كثيرة مختلفة – يكاد ينالها الإحصاء، ونستطيع أن نقسمها إلى قسمين اثنين:

القسم الأول، هذه المعاني الكثيرة، التي كانت تعجب القدماء، وتفن النقاد منهم، ثم أصبحت لا تعجبنا، أو لا تفتننا على أقل تقدير، كتشبيه الخمر بالعذراء تخطب إلى أبيها الدهقان، وكالإسراف في وصف قدم الخمر وما مر عليها من الأجيال والعصور، وكالافتنان في وصف طعم الخمر وريحها.

القسم الثاني، هذه المعاني التي أعجبت القدماء وفتنتهم،وما زالت تعجبنا وتفتننا، لأنها لاءمت ذوق القدماء وحياتهم، ومازالت تلائم ذوقنا وحياتنا، ولأنها حببت إلى القدماء شرب الخمر، وما زالت تحبب إلى المحدثين شرب الخمر. وهذه المعاني قليلة في شعر أبي نواس، قليلة في شعر غريه من الشعراء، قليلة في الخمريات قلتها في غير الخمريات، ذلك لأن المعاني التي تتفق على استحسانها العصور المتباعدة، والأجيال المتباينة، قليلة بطبعها في كل فن من فنون الشعر والأدب.

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٤١– ١١ يونيه سنة ١٩٢٣.

ثم مثلنا فلي ذلك المقال لهذه المعاني وتلك، وأشرنا إلى أن شعر أبي نواس في الخمر لم يكن هزلا كله، ولم يكن الغرض منه المجون وحده، أو الإسراف في وصف اللذات، وإنما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسلة إلى شيء من الجد، له خطره في الأدب، ووسيلة إلى شيء آخر من الجد، له خطره في غير الأدب.

كان أبو نواس إذن حين يصف الخمر، أو حين يتغزلن يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء المجيدون من وصف الحس والشعور، وتمثيل العاطفة تمثيلا صحيحا ولكنه كان يقصد – مع هذا الشيء المشترك بينه وبين الشعراء – إلى شيئين آخرين، أشرنا إليهما فيما مضى ونعود إليهما اليوم.

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجا جديدًا، لم ينهجه المتقدمون، أو قل أنهم نهجوه، ولكنهم لم يشعروا بذلك، ولم يتخذن عقيدة أو مذهبا في الأدب؛ كان يريد أن ينهج بالشعر منهجا يشبه المنهج الذي نريد نحن وأصحابنا أن ننهجه بالكتابة، كان يريد أن يتخذه الشعر لسانا للحياة الحاضرة، وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء، الذي يسمعون للشعراء، كان يريد – بعبارة مجملة – أن يعدل عن أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها، وفي تغني الإبل والشاء، إلى وصف الحياة التي يحياها الشعراء والمستمعون لهم، إيثارًا للصدق وبعدا عن الكذب.

كان أبو نواس إذن في هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة، محبا للأخلاق وأصول الفضيلة، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب، ولكن يجب أن تفهم هذا على وجهة،فلم يكن أبو نواس مؤثرا للصدق لأنه صدق لم يكن واعظا ولا ناسكًا، لم يكن حكيما يبشر بالحكمة، أو فيلسوفا يدعو إلى الفلسفة، وإنما كان شاعرًا يصدق في شعره، ويحب أن يتحدث إلى الناس يما يفهمونه، فينال منهم موضع الإعجاب والفتنة، وكان يحب الصدق حبا عمليا، أو قل كان يجب الصدق حبا فنيا، ولم يكن يدعو إليه، لأن الدعوة إليه ترضي الدين، أو ترضي الفضيلة، وإنما كان يدعو إليه، لأن الدعوة إليه ترضي الذوق، وترضي الجمال الفني.

وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها، لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء في المعاني فحسب وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدماء في المعاني وفي الألفاظ جميعا،وكان يريد ألا يسرف المحدثون في استعارة ألفاظ القدماء، لأن لهم ألفاظهم، أي لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم،أو لأن حياتهم تطورت، فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة.

حدثت معان لم يكن يألفها القدماء، فيجب أن تحدث لهذه المعاني ألفاظ غير الألفاظ التي ألفها القدماء، رقت حاشية الحياة الحديثة، وظهر فيه الترف ولين العيش، فيحب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة.

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين:" الأول: أن هذا التطور في اللغة واقع على كل حال، سواء أراد الشعراء والكتاب أم لم يريدوه، وآية ذلك ظاهرة في اللغة العربية وغير العربية،فشعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين، ون كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قويا، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين وقل مثل ذلك في النثر أيام بني أمية وأيام بني ألعباس، التطور إذن واقع، لأنه قانون لا منصرف عنه لأي جماعة من الجماعات، والناس خاضعون لهذا التطور، راضون عنه، وإنما هي في "اعترافهم " به، واتخاذه مذهبا وطريقا.

وهذا هو الشيء الثاني الذي نريد أن نلاحظه:وهو أن الخلاف بين القدماء والمتحدثين، يكاد يكون في "الاعتراف" بالحديث لا في "قبول" الحديث؛ فالحديث مقبول بطبعه، لأنه الحياة، ولكن الاعتراف به شاق، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة.

ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحا في تغيير الأسلوب الشعري، وتجديد اللفظ والمعنى، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعري ولا مجدد اللفظ والمعنى، وإنما كان الشعراء المعاصرون له – سواء منهم أنصاره وخصومه- يغيرون الأسلوب الشعري، ويجددون اللفظ والمعنى أيضا، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير، ويرى أنه مشروع، فيمضي به، ويحرص عليه،وكان منهم من ينكر هذا التغيير، ويتكلف الفرار منه.

وقع هذا أيام أبي نواس، ووقع هذا في القرن السابع عشر الفرنسي، ووقع هذا في كل عصر من العصور التي تطورت فيها الأمم، وتطورت فيها اللغات أيضًا.

كان أبو نواس إذن يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين، غير منافقين مع أنفسهم، وانظر إلى طريقته في الدفاع عن رأيه، وأخذ الناس بهذا الرأي:

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجبت أسأل عن خمارة البلد

يبكي على طلل الماضين من أسد ... لا در درك قل لي من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ولفهما ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

لا جف دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو على وتد

كم بين ناعت خمر في دساكرها ... وبين باك على نؤي ومنتضد

دع ذا عدمتك واشربها معتقة ... صفراء تفرق بين الروح والجسد

مـن كـف مضـطمر الزنـاد معتـدل كأنـــه غصـــن بـــان غيـــر ذي أود

أمـا رأت وجـوه الأرض عقـد نضـرت وألبســـتها الزرابـــي نثـــرة الأســـد

حـــاك الربيـــع بهـــا وشـــيا وجللهـــا بيـانع الزهـر مـن مثنـى ومـن وحـد

فانظر إليه، كيف آثر العنف في خطاب خصمه، فأسرف في دم القديم، والنعي على من يتكلفه، وأسرف في مدح الجديد، والحث عليه، وانظر إلى تبرمه بأسد، ومن يبكي على أسد،وإلى ذمة لتميم وقيس العرب كافة، ثم انظر إليه كيف يحقر هذا لقديم، ويرفع من شأن الجديد. ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حوله، من جمال الطبيعة، فيألفوا ويصفوه، ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته، بطلول الجزيرة العربية وصحاريها، ومثل هذا الشعر كثير في خمريات أبي نواس، كثير في غير الخمريات أيضا،يكفي أن ترجع إلى ديوانه، لتقنع منه بما تريد.

هذا أحد الشيئين اللذين كان يقصد إليهما أبو نواس، حين يفتن في وصف الخمر واللذة.

والشيء الآخر. مذهبه في الحياة لا في الأدب، وذكرناه كثيرًا، فسخط الناس وأشفقوا، وغلا بعضهم في السخط والإشفاق، حتى ظن بنا أن نأتمر بالدين والعادة والخلق، حين لم نكن نفكر إلا في شيء واحد، هو التاريخ، هذا الشيء الذي نريده اليوم أن نمر به مسرعين، هو المجون فقد كان أبو نواس مجددا في كل شيء، مجددًا في الشعر، ومجددا في الحياة، ويقيننا نحن أن أيا نواس لم كين مجددًا وحده، وإنما كان أهل عصره كلهم مجددين أيضًا.

والفرق بين أبي نواس وغيره من معاصريه، انه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بحياتهم، ولا يكذبوا على أنفسهم، فإذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه في واقع الأمر، فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه، فهو إذن في قضية المجون، يسلك نفس الطريق التي يسلكها في قضية الأسلوب الأدبي، يرى أن هناك تطورًا واقعًا، وأننا خاضعون لهذا لتطور، وأننا ننكر هذا التطور، ولا ننكر خضوعنا له،،إنما نؤمن به إيمانًا، ونعترف به اعترافا وحجته في ذلك أن هذا سبيل الصادقين، وأنك قد تستطيع أن تخفي ما تشاء على من تشاء، ولكنك لن تستطيع أن تخفي على الله شيئا والله وحده هو الذي يجب أن تصدقه في سرك وجهرك، فإذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده، فما يعنيك أن يقول الناس فيك! وانظر هذه الأبيات:

....

لا تسـقني إن كنـت بـي عالمـا إلا التـي أضـمرت فـي صـدري

هـات التـي تعـرف وجـدي بهـا وأكمـن بمـا شـيت عـن الخمـر

يـا حبـذا الجهـر بـأمر الصـبا مـا كنـت مـن ربـك فـي سـتر

هو إذن مقتنع بوجوب العدول عن القديم، والاعتراف بالجديد، وهو شديد الاقتناع، قد يتكلف في سبيله ما يتكلفه المقتنعون، من الإسراف والتعصب والخروج عن الطور، وانظر إلى هذه الأبيات، التي لم يحفل فيها أبو نواس بقاعدة دينية أو خلقية، وإنما اتخذا الإباحة والصراحة مذهبا وسبيلا:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر و لا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

فيعش الفتي في سكره عبد سركة فإن طال هذا عنده قصر الدهر

وما الغبن إلا أن تراني صاحبا ولا الغنم إلا أن يتعتعني السكر

فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

ولا خير في فتك بغير مجانة ولا مجون ليس يتبعه كثر

و لا تحسبن أبا نواس شاذا في هذا أو منتحلا إياه انتحالا، وإنما هو أثر البيئة فيه، وهو نفسه يحدثنا بهذا، فيقول:

وقائل هل تريد الحد قلت له نعم إذا فنيت لذات بغداد

أما وقطر بل بمها بحيث أرى فقنة الفرك من أكناف كلواذ

فالصالحية فالكرخ التي جمعت شذاذ بغداد ما هم لي بشذاذ

فكيف بالحج لي ما دمت منغمسا .....

وهبك من قصف بغداد تخلصني كيف التخلص لي من طير ناباذ

ويقول بعد أن حج:

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرى وأرجوا وأخشى طير ناباذا

أخشى قضيب كرم أن ينازعني رأس القطار وإن أسرعت إغذاذا

ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطر بل فقري بني فكلوذا

فإن سلمت، وما قلبي على ثقة من السلامة لم أسلم ببغداذا

ما شئت من بلد دان منازهة .....

وفحا تواصوا بترك البر بينهم تقول ذا شرهم بل ذاك بل هذا

ليسوا كقوم إذا حاذيت مجلسهم   أنفذت بالترك والأركان إنفاذا
هناك لا نتخطى الأذن لائمة   ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

فقد رأيت مما روينا، أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم، ولا في المجون ابتداعا، ولم يتكلفه تكلفا، وإما عاش في عصر وبيئة، كانا يضطرانه إلى أن يرى هذا الرأي، وينهج هذا المنهج،وكل افرق بينه وبين خصومه وأنصاره – كما قلنا – أنه كان صريحا يؤثر الاعتراف بحياته التي يحياها، على التستر والتكتم،ولسنا نقول إنه مصيب، ولسنا نقول إنه مخطئ، فقد يختف الناس في أن الصراحة خير أو شر، إذا كان موضوعها الإثم والمجون، وليس يعنينا شيء من هذا في نفسه، فنحن لا نتخذ أبا نواس قدوة ولا إماما، ولا نعتقد أن أبا نواس يصلح قدوة أو إماما في ضروب الحياة المختلفة، وإنما نحن نذهب مذهب المؤرخ، ويخيل إلينا أن هذا البحث على إيجازه، ينتج لنا أن شعر أبي نواس في الخمر على ما فيه من جمال فني يعجب الأدباء والنقاد، كان يرمي إلى غرضين اثنين: الاعتراف بالجديد في الأدب: والاعتراف بالجديد في الحياة بل، نستطيع أن نوجز فنقول، كان شعر أبي نواس كله، رفضا للقديم في كل شيء، وكلفا بالجديد في كل شيء.

والآن وقد عرفنا فلسفة أبي نواس في الخمر، لا ينبغي أن ننصرف عن هذا البيت من شعره، دون أن نشير إلى ما له من المقطوعات، والقصائد التي تنظر إليها في نفسها النظر الفني الخالص، فلا تستطيع إلا أن تعجب به وترضى عنها، فتقرأها، وتقرأها، وتميل إلى حفظها، وتميل على أن تسمعها في الغناء.

كثيرا جدا هذا النوع من شعر أبي نواس في الخمر، وكأنه كان يريد حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين، تمجيدًا للخمر، وتأييدا لمذهبيه في الأبد والمجون، فأنت تذكر همزيته المشهورة:

"دع عنك لومي فإن اللوم إغراء"

وتذكر أني قد حللتها في غير هذا المكان، وتذكر قصيدته الأخرى:

أعاذل أعتبت الإمام وأعتبا   وأعربت عما في الضمير وأعربا

وانظر إلى هذه القصيدة، وقد كان فيه جدال بينه وبين مسلم بن الوليد:

ذكـــر الصـــبوح بســـحرة فارتاحـــا ... وأملـــه ديـــك الصـــباح صـــياحا
أو فـي علـى شـرف الجـدار بسدفة ... غـــردا يصـــفق بالجنـــاح جناحـــا
بـادر صـباحك بالصـبوح ولا تكـن ... كمســـرفين غـــدوا عليـــك شـــحاحا
وخـــدين لـــذات معلـــل صـــاحب ... يقتـــات منـــه فكاهـــة ومزاحـــا
نبهتـــه والليـــل ملتـــبس بـــه ... وأزحـــت عنـــه نقابـــة فانزاحـــا
قـال ابغنـي بالمصباح قلت لـه اتئد ... حسـبي وحسـبك ضـوءها مصـباحا
فسـكبت منهـا فـي الزجاجـة شـربة ... كانـت لـه حتـى الصـباح صـباحا
مـــن قـــوة جاءتـــك قبـــل مزاجهـــا ... عطـــلا فألبســـها المـــزاج وشـــاحا
شـــك البـــزال فؤادهـــا فكأنمـــا ... أهـــدت إليـــك بريحهـــا تفاحـــا
صـهباء تفتـرس النفـوس فمـا تـرى ... منـا بهـن سـوى السـبات جراحـا
عمـرت يكاتمـك الزمـان حـديثها ... حتـــى إذا بلـــغ الســـامة باحـــا

وانظر إلى هذه المقطوعة، التي تتكلف أبو نواس فيها البديع، فأحسن التكلف:

عـاذلي فـي المـدام غيـر نصـيح ... لا تلمنـــي علـــى شـــقيقة روحـــي
لا تلمنـــي علـــى التـــي فتنتنـــي ... وأرتنـــي القبـــيح غيـــر قبـــيح
قهـــوة تتـــرك الصـــحيح ســـقيما ... وتعيـــر الســـقيم ثـــوب الصـــحيح
إن بـــذلي لـــه لبـــذل جـــواد ... واقتنـــائي لهـــا اقتنـــاء شـــحيح

وانظر إلى هذه الأبيات، التي لا يشك قارئها أنها قيلت أمس أو اليوم، لأنها تصف شيئا مما نحن فيه،وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر:

تفتيـــــر عينيـــــك دليـــــل علـــــى ... أنـــــك تشـــــكو ســـــهر البارحـــــة
عليـــــك وجـــــه ســـــيء حالـــــة ... مـــــن ليلـــــة بـــــت بهـــــا صـــــالحة
ونفحـــــة الخمـــــر وأنفاســـــها ... والخمـــــر لا تخفـــــي لهـــــا رائحـــــة
وغـــــادة هـــــاروت فـــــي طرفهـــــا ... والشـــــمس فـــــي مفرقهـــــا جانحـــــة
تســـــتقدح العـــــود بأطرافهـــــا ... ونعمـــــة فـــــي كبـــــدي قادحـــــة

obeikandi.com

وانظر إلى هذه الأبيات أيضا، وحدثني، الست وضعت لتغنيك

ألـــه بـــالبيض المـــلاح وبقينـــات وراح
لا يصـــدنك لاح هـــو عـــن ســـكرك صـــاح
لـــيس للهـــم دواء كاغتبـــاق واصـــطباح
فلعمـــري مـــا يـــداوي الـــ ســـهم بالمـــاء القـــراح

ولو أني أردت أن أروي لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت، ولكني أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جحد، وقد أعجب بها العلماء والنقاد في القرن الثالث، لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده، وأحسنه أحسانا عظيما، وأعجب بها أنا،أن أبا نواس أراد أن يبكي الأطلال والديار فبكاها، ولكنه لم يبك أطلال الشرب وأصحاب اللهو، بعد أن فرغوا من لهمزهم،وانصرفوا عن ملهاهم، فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار، فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النؤى ولا الوتد، وإنما يذكر ما ستسمع:

ودار نـــدامى عطلوهـــا وأدلجـــوا بهـــا أثـــر مـــنهم جديـــد ودارس
مساحب من جزر الزقاق على الثرى وأضـــغاث ريحـــان ويـــابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم وإنـــي علـــى أمثـــال تلـــك لحـــابس
ولـم أدر مهـم غيـر مـا شـهدت بـه بشـــرقي ســـاباط الـــدبار البســـابس
أقمنـــا بهـــا يومـــا ويـــومين بعـــده ويومـــا لـــه يـــوم الترحـــل خـــامس
تـدار علينـا الكـأس فـي عسـجدية حبتهـــا بـــأنواع التصـــاوير فـــارس
قرارتهـــا كســـرى وفـــي جنباتهـــا مهـــى تـــدريها بالقســـى الفـــوارس
فللخمـــر مـــا زرت عليـــه جيوبهـــا وللمـــاء مـــا دارت عليـــه الفلانـــس

أرأيت إلى هذه الآثار التي تركها جر الدنان؟ أرأيت إلى هذا الريحان جنيه ويابسه؟ هذه هي أطلال أبي نواس، ثم أتحس في هذه القصيدة شيئا من الميل إلى الفرس والإعجاب بهم،والحنين على عهدهم القديم! ثم أترى وصف الكأس وما فيها من صورة، وتقسيم هذه الصورة بين الخمر ومزاجها! إلى ما فيه من هذه السخرية العصرية بأصحاب الأطلال والباكين عليها، بامرئ القيس وأصحابه:

obeikandl.com

قــل لــم يبكــي علــى رســم درس   واقفــا مــا ضــر لــو كــان جلــس
تصـــف الربـــع ومـــن كـــان بـــه   مثـــل ســـلمى ولبينـــي وخـــنس
اتـــرك الربـــع وســـلمي جانبـــا   واصـــطبح كرخيـــة مثـــل القـــبس

هذه طائفة من شعر أبي نواس في الخمر،لم نتكلف اختيارها،. ولا نشك في أن لأبي نواس خيرًا منها، ولكننا أطلنا في هذا الباب، فلننتقل منه إلى الغزل في الأسبوع الآتي.

obeikandl.com

الغزل في شعر أبي نواس [1]

غزلـــــه بالنســـــاء- غزلـــــه بالغلمـــــان-
الإماء في بغداد - الحرائر في العصر العباسي -
حبة لجنان.

رأينا مذهب أبي نواس في وصف الخمر وتمجيدها، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثا، وإنما وصفها وسيلة، إلى إعلان رأيه في تجديد الأدب، وإعلان مذهبه في المجون، وإعلان ما يكن للخمر من حب، وما يختصها به من كلف.

ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل، ولكني أتعجل فألفتك إلى أن هذا غير ميسور، لأن أبا نواس لم يتغزل كغيره من الشعراء الذي سبقوه، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبلـه، وإنمـا سـلك سـبلا أخـرى لـيس يبـاح لنـا، فـي صـحيفة سـيارة، أن نسـلكها معـه، أو نتبعه فيها.

لأبـي نـواس غـزلان: عزلـه بالنسـاء، وغزلـه بالغلمـان، وهـو مجيـد فـي الثـاني، ومحسـن الإحسان الفني كله، صادق أيضا أشد الصدق، ولكنك تقرنا على أنا لا نستطع أن نطرق هذا الباب،إلا في كتاب مخصص لأبي نواس، يقرؤه الخاصة، ولا تصل إليه يد العامة، إلا مصادفة وبعد مشقة.

أما غزلـه بالنساء كثير، وفيه الجيد، وكلن فيه الرديء، ولعلك إذا أردت أن تميز هذا الغزل، أو تصفه بوصفه الصحيح، لم يستطع أن تعدل عن هذا الحكم، وهو أن أبا نواس لم يكن جادا ولا صادقا حين كان يتغزل بالنساء، وإنما كان مازحا، أو بعبارة أصح كان مخادعا، وكان كذابان كان مغرورا وكان فتونا، وكان مع هذا كله شاعرا، يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها، ومنها التغزل بالنساء، فتغزل بهن، حتى لا يفوته هذا الفن، وف الحق أنه لم يقصر في هذا الفن، فقد وصف لنساء فأحسن وصفهن، وقد وصف ما بين النساء والرجال من صلة، فأجاد الوصف، وأتقن التصوير.

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٨ من ذي الحجة سنة ١٣٤١- أول أغسطس سنة ١٩٢٣.

ولكنه لم يصف النساء جميعًا، وإنما وصف منهن طائفة خاصة،ولم تكن هذه الطائفة أقرب النساء إلى الطهر والعفاف، ولا إلى البر والصون، وإنما كانت طائفة مبتذلة ممتهنة، حظها من الظهر والعفاف قيلي. لم يعرض أبو نواس أو لم يكد يعرض للمحصنات من النساء، ولا للحرائر منهن،وإنما عرض للإماء، فأحسن وصفهن، وترك لن مهن صورة إن لم تكون صحيحة صادقة كل الصدق،فهي قريبة جدًا من الحقيقة الواقعة، عرض للإماء والطائفة بعينها من الإماء، لهذه الطائفة التي كانت تتألف من إماء مهذبات، قد أحسن تأديبهن، فروين الشعر وقرضنه، وأحسن الموسيقى، ونبغن فيه، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حينئذ بطرف لا بأس به، فكن يثبتن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة،وكن يمتزن بذلك، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات، لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهن وبين التحدث إلى الرجال، والتبذل في هذا الحديث.

كان الإماء إذن مظهر المرأة في بغداد، ولكنه كان مظهرا سيئا جدا من جهة، وحسنا جدا من جهة أخرى، كان مظهرا سيئا، لأنهن كن مبتذلات خليعات، يتهالكن على الخلاعة،ن ويسرفن في المجون، ويتخذن من تهالكن على الخلاعة، وإسرافهن في المجون سلاحا قويا، يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم، ويحاربن الحرائر المحصنات حربا غير متكافئة، وكن مظهرا حسنا لأنهن كن أديبات عالمات، يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها.

ومنها وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر، بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس، وبما نرى في الأغاني وغير الأغاني، مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة، وانحطاطهن الخلقي من جهة أخرى، يجب القصد والاحتياط؛ لأن الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة، بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة، وإنما تمثل هذا الرقيق الذي كان يجلب إلى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين، فيتخذ فيها تجارة ولهوًا، كما يتخذ تجارة ولهوًا فاخر الأثاث وحسن الرياش.

هؤلاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة، وإنما يمثلن الرجل الحر، فقد كن له لذة ولهوًا، وكن لأخلاقه وحياته خراج البيت مرآة مجلوة، تمثلها أحسن تمثيل، فلو أن هؤلاء الإماء اللاتي ذكرهن أبو نواس كن يحببن اللهو، ويتهالكن على المجون،ويمثلن فيه من ضروب الخلاعة والابتذال ما لا يقبله الحرائر، لما استطاع أبو نواس وغير ابي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا، أو أن يصفوهن بمثل ما وصفوهن به.

كان في جاهلية العرب وصدر الإسلام وأيام بني أمية شعراء يحبون الفتك، ويتحدثون به، فلامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة في ذلك شعر كثير، ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة حسن القول، حتى في الفتك والفحش، وكان شعرهم الفاحش قليلا جدا، بالقياس إلى شعرهم العفيف، وكان الشعراء الصادقون في الحب، المؤثرون للعفة والطهارة في كل ما يقولون، كثيرين جدا بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الفاتكين، ذلك لأن سلطان الإماء كان ضعيفا جدا، أو لم يكن موجودا في هذه العصور، ولأن الرجال الأحرار كانوا يؤثرون. كرامتهم على ذاتهم، فكانوا يؤثرون نساءهم على إمائهم. أما في أيام بني العباس فقد تغيرت الحال تغيرا شديدا، كثر الإماء كثرة فاحشة، وتفوقن تفوقا فاحشا، في الأدب والشعر والغناء، وفي ضروب الزينة واستهواء الرجال، وتغيرت أخلاق الرجال، فتهالكوا على اللذة، واستبقوا الشهوات، فاعتقلوا الحرائر المحصنات، وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة، من الإشراف على حياة الأسرة في عفة وكرامة، ولكن من وراء حجاب، ثم أسرفوا في اتخاذ الرقيق، وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضروب اللذات، ما تأبى الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات، فكان هذا الفساد العظيم، الذي يمثله غزل أبي نواس بالنساء والغلمان.. أتظن أن أبا نواس كان يستطيع أن يقول في حرة محصنة مثل هذه القصيدة:

ونابه في الهوى لنا ناسي ... قطع بالهجرة أنفاسي
لست لها واصفا مخافة أن ... يعرف ما بي جماعة الناس
أكثر وصفي لها شكاية ما ... فيها قضى الله لي على راسي
يطمعني لحظها ويؤنسني ... باللفظ، منها فؤادها القاسي
فصرت باللحظ من معذبتي ... واللفظ بين الرجاء واليأس
أسعد يوم لها حظيت به ... مقالها لي ولست بالناسي
لذلك اليوم ما حييت به ... ترجم قولي سواد أنفاسي
تقول لي والمدام مرسلة ... تفيض حولي نفوس حلاسي
هل لك أن تطرد النعاس فقد ... طاب انضواع المدام والآس
قلت لها فابتدي وهاتي فما ... حسوت منها فإنني حاسي
وغايتي أن أنال فضلتها ... في الكأس من شربها أو الطاس
ثم أظن الحذار نبهها ... وما بها قد أردت من باس
قالت فدع عنك الاحتيال لما ... أردت سكري به وإنعاسي
أعرضت عنها وقد فهمت لكي ... تحسب أني لقولها ناسي
ثم دعتها المدام من كثب ... والليل ذو سدفة وإدماس

فاحتلبت زقنا فمج بها في الكأس راحا كضوء مقياس

ثم تحست حتى إذا شربت نصفا كما قيس لي بمقياس

نازعتها الكأس فيه فضلتها ففزت بالكأس بعد إمراس

فكادت النفس للسرور بها تخرج بين المدام والكاس

أترى إلى امرأة حبة محصنة تستحث أي نواس على المنادمة ومنازعة الكأس؟ أترى إليها تذهب هذه المذاهب الملتوية في اجتذابه إليها، وترغيبه فيها، تطمعه حينا، وتؤيسه حينا آخر؟ بل أترى إلى امرأة حرة محصنة تبتذل نفسها، فتنزل إلى المنادمة والمداعبة؟ كلا! وإنما هي أمة من الإماء، وامرأة من هؤلاء النساء اللاتي بذلن أنفسهن، فابتذلهن الرجال، ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقا، ومتحدثا عن عاطفة قوية متقدة ف أكثر الأحيان، حينما كان يذكر هؤلاء النساء، أن يتغزل بهن، وإنما كان يترضاهن ترضيا، و يتملقهن تملقا، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجونه من جهة، وفنه من جهة أخرى.

أضف إلى هذا أن أبا نواس كان معتدلا جدا في الميل إلى النساء، وكان مسرفا جدا في ميل آخر.. فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبي نواس في هذا الفن من الغزل، إلا رأيت فيها التكلف ظاهرًا، والكذب واضحا،لا أريد التكلف اللفظي، وإنما أريد تكلف المعنى، وانتحال الحب.

وربما كان من الحق أن نستثنى من هذا الشعر شعره في "جنان"؛ فقد يظهر أنه كلف بها حقا، وهام بها بعض الهيام، وتجشم في سبيلها منالا يتجشمه الماجن المداعب، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصدًا ولا عفيفا في كل ما قال في "جنان"، وإنما أسرف وورط نفسه في شيء من الإثم، فانظر إلى هذه الأبيات:

وعاشقين التف خداهما عند التثام الحجر الأسود

فانفيا من غير أن يأثما كأنما كانا على موعد

لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند

قلنا كلانا سائر وجهه مما يلي جانبه باليد

نفعل في المسجد ما لم يكن يفعله الأبرار في المسجد

obeikandi.com

وليس من شك في إنهما كانا على موعد، فانظر إلى هذه الأبيات:

لم تر أنني أفنيت عمري	بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا إليها	يقربني وأعيتني الأمور
حججت وقلت قد حجت جنان	فيجمعني وإياها المسير

وأنا أحسب أبي نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف، وإنما كان نوعا من الأمل، يتحرق الرجل لتحقيقه، ويعسر عليه هذا التحقيق، فأما إيثارها بالخير، وتقديم لذتها على لذته، وأمنها على أمنه، فعاطفة أحسب أنها لم تجد إلى نفسه سبيلا، وهذه الأبيات أصدق دليل على ذلك:

يا قمرًا أبصرت في مأتم	يندب شجوا بين أتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس	ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لي كارها	برغم بواب وحجاب
لا زال موتا دأب أحبابه	وكان أن أبصره دابي

أتظن أنه يجبها حقا حين يتمنى أن يموت أحبابها في كل يوم، لتظهر معولة، نادية، وليستطيع هو أن يراها؟ ألست ترى في هذا أن الرجل كان أثرا مسرفا في حب نفسه ولذته، يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة، مهما تكلف فهذه المرأة في هذا من شر، واحتملت من خطوب! لم يكن أبو نواس إذن صادقا في حب النساء، وليس شعره صادقا في تمثيل النساء كما هو صادق في تمثيل الرجال، ولكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الأدبية والعادية في بغداد أيام بني العباس.

ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه، فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر، وإذن فمن الحق أن نتناول هذه الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق، وأن نعرض في شيء من التفصيل لمن عرف من هؤلاء الإماء اللاتي تعشقهن أبو نواس. ونرجو أن نفي بذلك في مقال آخر.

obeikandi.com

الغزل عند أبي نواس [1]

صدق الغزل الأمور – تكلف الغزل

العباسي– الغزل بالغلمان.

بعيدًا جدًا ما بين هذا الغزل النواسي العباسي، الذي أشرت في الفصل الماضي إلى أنه ضعيف متكلف، وذلك الغزل الأموي العربي، الذي أشرت في فصل مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته.

نعم! إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النواسي، وبين ذلك الغزل الذي كان ينشره جميل أو كثير أو عمر بن أبي ربيعة. الفرق عظيم جدًا، وليس عظم هذا الفرق شيئا غريبا في نفسه، فيكفي أن تنظر إلى العصر الأموي والعصر العباسي من جهة، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين، ونفسية أبي نواس من جهة أخرى، لتقتنع بأن هذا الفرق لا ينبغي أن يكون غريبًا، بل ينبغي أن يكون واجبا محتوما. يجب أن تنظر إلى العصرين، لترى في أولهما، على رقية وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة، سذاجة ظاهرة، مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد، ولم ينته إلى نتائجه المعقولة. ولترى في ثانيهما أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلا من عربيتها، وتتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس، التي كانت تفد على العراق، وعلى بغداد بنوع خاص، فتحمل أمزجتها وأهواءه ولذاتها، وكل ما فيها من خير وشر بعيد ما بينه وبين ما في نفس الأجناس العربية من صلة.

يكفي أن تنظر إلى هذا كله. لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسي عامة، وبين الغزل الأموي عامة، فإذا فهمت هذا، وعرفت له أثره في نفس أبي نواس، وجب عليك أن تنظر إلى أبي نواس نفسه، وإلى ما قدمت من حياته وميوله وأهوائه، وأن تنظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر الأموي، وإلى نفسياتهم المختلفة، فتزداد بهذا الفرق إيمانًا، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحًا.

---

(١) نشرت بالسياسة في ٨ صفر سنة ١٣٤٢– ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣.

كـان "جميـل" وأمثـال "جميـل" قومًـا غـزلين بطبيعـتهم، غـزلين لأنهـم يحبـون النســاء، أو يحبـون امـرأة بعينهـا بـين النسـاء، يحبونهـا ويكلفونـه بهـا، فيملـك علـيهم هـذا الحـب نفوسـهم وحيـاتهم، حتـى لا يعيشـون إلا بـه ولـه،وحتـى لا يصـدون إلا عنـه، ولا يـردون إلا عليـه، وكانـت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة، سهلة لم تعقدها حاجات المدينة، فكانوا إذا ذكروا النساء، أو تغنوا بحبهن، وصفوا عواطف قوية صادقة، فصدقوا في الوصف، وكانوا فيه أقوياء.

ثـم كـان "كثـير" وأمثـال " كثيـر" يحبـون النسـاء، ويحبـون ذكـر النسـاء يتخذونـه فنـا، ويحـاولون الإجـادة فيـه، فلـم يكونـوا مـن صـدق العاطفـة وقوتهـا بمكـان جميـل وأصـحاب جميـل، ولكنهم كانوا قريبين منهم، لأنهم كانوا يتأثرونهم، ويسلكون سبيلهم، ويريـدون أن يخدعوا النـاس عـن أنفسـهم، وأن يمثلـوا أنفسـهم فـي صـورة العاشـقين حقا،كـان الأولـون صـادقين، وكـان الآخـرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين، وربما لم يحرموا الصدق حرمانا تامًا.

أما عمر بن أبي ربيعة، ومن سار سيرته من شعراء بني أمية، فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العذرين لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هي المثل ا لأعلى للجمال والحب، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة، وافرق بين هاتين الوجهتين عظيم. كان ابن أبـي ربيعة رجلا يحب الحياة، ويحب المرأة، لأنها زينـة الحيـاة، أو لأنهـا اللـذة فـي الحيـاة، وكـان صـادقا فـي حـب المـرأة، كمـن حيـث هـي لـذة الحيـاة، فكـان غزلـه علـى بعـده مـن العذريـة أو مـن الأفلاطونيـة، كمـا يقـول المحـدثون، مـؤثرًا، لأنـه كـان صادقًـا، ولأنـه كـان يتـرجم عـن عواطـف صـحيحة، تـؤثر فـي نفـس الشـاعر، وتـؤثر فـي حياتـه العملية أيضا.. كذلك كان شعراء بني أمية، سواء منهم العذريون حقا، ومن تكلفوا العذرية، ومن أعرضوا عنها، ولم يلتفتوا إلى إلا اللذات، وضروب اللهو بالنساء.

أمـا أبـو نـواس فـأمره غيـر هـذا كلـه، لـم يكـن عـذريا، ومـا كـان يسـتطيع أن يكـون عـذريا، وهـو الجـدل الـذي شـك فـي كـل شـيء أو قـل أنكـر كـل شـيء، ولـم يـؤمن إلا بـالمجون واللـذة، يلتمسهما حيث يجدها، ولا يتقيد في ذلك بحرج أو جناح، لم يكن عذريا ولم يكن يتكلف أن يكون عذريا، وإنما كان يسخر من العرب، ومما كان العرب يتكلفون، لم يكن يتكلف العذرية، وا،كما كـان يهيم باللذة، وبلذة غيـر التـي كـان يهيم بهـا عمـر بـن أبـي ربيعـة، لـم يكـن أبـو نـواس يحـب النسـاء، وكـان ينفـر مـنهن نفـورا شـديدا، حتـى لـم يفلـح الـذي أرادوه علـى أن يتـزوج، علـى رغـم إلحـاحهم عليـه، وتوسـلهم إليـه. لـم يفلحـوا، لأن أبـا نـواس لـم يكـن يتصـور حيـاة الزوجيـة، ولـم يكـن يستطيع أن يعيش عيشه متصلة مع امرأة.

لـم يكن إذن يحب النساء، فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن، أو يحسن الغزل فيهن، ومع ذلك فقد تغزل، تغزل لأنه شاعر، ولأنه من الحق على كل شاعر أن يتغزل؛ فالغزل فن من

فنون الشعر. يجب على الشعراء المجيدين أن يطرقوه، ويأخذوا منه بنصيب، وقد طرقه أبو نواس، وأخذ منه بنصيب ولكنا نظلم أبا نواس إن قلنا: إنه لم كين قط صادقًا في غزله، نظلمه لأنه كان صادقا في عزله، بل كان شديد الصدق فيه، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبي ربيعة في صدق العاطفة، وإجادة الوصف، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين: أحدهم الفرق بن العصر العباسي والعصر الأموي، والآخر أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء، وإنما كان يجدي الغزل بالغلمان..... فلأبي نواس في هذا الباب أشعر من أبي ربيعة في الغزل بالنساء، ولست أستدل على هذا إلا بشيء واحد، وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على أن تعجب بهذا الغزل، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين، أما أبن أبي ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله، بل كل شيء يحملك على أن تعجب بغزله، فطبيعتك تحبب إليك ذكر النساء والتغزل بهن، وإذا أسرف ابن أبي ربيعة فتجاوز الخلف والدين، فليس في هذا الإسراف خروج عن الطبيعة، أو تجاوز لها، وإنما هو جزء من الطبيعة، أو قل إنه الطبيعة بنفسها، جاء الدين والأخلاق لتقييدها وإصلاحها.

أبو نواس إذن مجيد؛ين يتغزل بالغلمان، ولكنه فاتر أو كاذب أو مكلف حين يتغزل بالنساء، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوة في نفسه، أو حبا صحيحا، وإنما يصف ضروبا من اللهو، وفنونا من المجون، وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف، لا لأنه يشعر به، بل لأنه شاعر مجيد، يتكلف الشيء فيحسنه أحيانا.

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيء فسرته في الفصل الماضي، وهو أنه لم يتغزل بحرة، وإنما وقف غزله كله على الإماء،وذلك واضح؛ فقد عرفنا أنه يكره الزواج، وعرفنا أنه كان ماجنا مسرفا في المجون؛ فلم يكن من السهل عليه، ولا من الميسور له، أن يخالط الحرائر، أو يتحدث إليهن، حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإماء، ويسرف في مداعبتهن، ولاسيما بعد ما قدمت لك في الفصل الماضي من رقي الأمة في هذا العصر، وتفوقها على الحرة، وتهالكها على اللهو والمجون. فإذا عرفنا هذا كله، وأنزلنا غزل أبي نواس منزلته الصحيحة، كان من اليسير أن نتبين شيئا مما في هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياسًا لنبوغ أبي نواس في الشعر، أو لصدقه في الحب، فإذا أردنا أن بحث عن مقياس لنبوغ أبي نواس في الشعر، أو لصدقه في الحب، فليس أمامنا إلا وصفه للخمر، وغزله بالغلمان، وإنما نبحث عن غزله بالنساء، لنعرف شيئا من أخلاق العصر، ومن أخلاق الإماء فيه، ولنعرف أيضا شيئا من ظرف النساء في بغداد، وإن شئت فقل: من ظرف الغزل بالنساء في بغداد، ولهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ.

وانظر إلى هذا العبث الذي يمثل الحياة البغدادية، حياة المجون والدعاية تمثيلا صحيحًا:

أرسل من أهوى رسولا له ... إلى والمنسوب محبوب
فقلت أهلا بك من مرسل ... ومن حبيب زانه طيب
جمشته في كلمة فانثنى ... وقال هذا منك تجريب
مثلك لا يعشق مثلي وقد ... هام به بيضاء رعبوب
وجاءت الرسل بأن آتينا ... فجئتها والقلب مرعوب
قالت: تعشقت رسولي لقد ... بدت لنا منك الأعاجيب
ذاك وهذا لك يا غادرا ... في دفتر الحاصل مكتوب
من يأمن الذئب على معزة ... أهل لأن يخفزه الذيب
فقلت في رفق وفي تؤدة ... مقالة قد قال يعقوب
الذئب لا يؤمن لكنه ... عليه في يوسف مكذوب
هم طرحوا يوسف في جبه ... عمدا وقالوا خانه الذيب

أترى إليه كيف كان يحب صاحبته حبا قويا صادقًا، حتى خانها في رسولها، فداعب هذا الرسول، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك، الذئب في قصة يوسف، ولكن أعجب من هذا لأن تكتفي صاحبته منه بهذا الدفاع، بل أن تلومه في هذا الرفق واللين، ولكننا في بغداد، وبين قوم يلهون لا أكثر ولا أقل.

وأنظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي يسخر فيه من نفسه، فيسحن السخرية:

وقصريه أبصرتها فهويتها ... هوى عروة العذري والعاشق النهدي
فلما تمادى هجرها قلت واصلي ... فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي
فقلت لها لو كان في السوق أوجه ... تباع بنقد حاضر وسوى نقد
لغيرت وجهي واشتريت مكانه ... لعلك أن تهوى وصالي من بعد
وإن كنت ذا قبح فإني شاعر ... فقالت ولو أصبحت نابغة الجعدي

ثم انظر إلى هذا الظرف:

سألتها قبله ففزت بها ... بعد امتناع وشدة التعب
فقلت بالله يا معذبتي ... جودي بأخرى أقضي به أربي
فابتسمت ثم أرسلت مثلا ... يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبى واحدة ... يطلب أخرى بأعنف الطلب

وانظر إلى هذه القصيدة، التي لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية، لأنها تمثل رقة بغداد، وتمثل هذه النزعة الدينية التي تجدها في العامة، والتي تحملهم على أن يقسموا بالقرآن، وبالحج، ومناسك الحج، حين ينبغي أن يقسموا بشيء آخر:

مالي وللعاذلات ... زوقن لي ترهات
سعين من كل فج ... يلمن في مولاتي
يأمرنني أن أخلي ... من راحتي حياتي
وذاك مالا ولا لا ... يكون حتى الممات
و "الله" منزل "طه" ... و "الطور" و "الذاريات"
و"الر" و "صاد" و "قاف" ... و "الحشر" و "المرسلات" (١)
ورب "هود" و "نون" ... و "النور" و "النازعات"
لا رمت هجرك حبي ... حتى وإن لم تواتي
تجمعوا علموني ... يا إخوتي كيف آني
يا ولنا أي شيء ... بين الحشي واللهاة
من لوعة ليس تطفي ... تطير في جانحاتي
أنا المعنى ومن لي ... يرثي لطول شكاتي
الظاهر العبرات ... الباطن الزفرات
منيت المتحري ... في كل أمر مساتي (٢)
يا سائلي عن بلائي ... انظر إلى لحظاتي
يخفي الهوى في سكون المحـ ... ـب والحركات

---

(١) يريد ألف لام راء، وهو مفتتح سور من القرآن.

(٢) يريد: مساعتي.

والله لـــو كنـــت أعمـــى عرفـــت فـــي ســـحناتي
خلفـــــت بالراقصـــــات فـــي لجـــة الفلـــوات
ومـــــثن بالهـــــدايا يطعـــن فـــي اللبـــات
ومـــا تـــوافي بجمـــع و "الشـــعب" فـــي "عرفـــات"
لـــو جـــاء منـــك رســـول يقـــول نفســـك هـــات
لفـــت هـــاك خـــذنها مســـــلما لوفـــــاتي
ويـــلاه نـــار التصـــابي رقـــت إلـــى اللهـــوات
فأبكـــت العـــين منـــى بمثـــل مـــاء الفـــرات
وصـــاحب كـــل لـــي فـــي هـــــواي ذا تهمـــــات
لـــم يطلـــع طلـــع شـــأني إلا اتهـــــام هنـــــاتي
فبينمـــا نحـــن نمســـي نســـيح فـــي الطرقـــات
إذ قيـــل شـــمس ضـــحاها فـــي أربـــع عطـــرات
فقلـــت شـــمس وربـــي قـــد جلـــت الظلمـــات
وقـــد نســـبت الـــذي بـــي منهـــا مـــن الكربـــات
لـــريح حـــب جـــرت لـــي فأنشـــأت عبراتـــي
وأنزفـــت مـــاء عينـــي وأصـــعدت زفراتـــي
وقـــد تغيـــر لـــوني كمثـــل نفـــس الـــدواة
فالحـــب فيـــه هنـــاة موصـــولة بهنـــاة
يعقـــبن طـــورا ســـرورا وتـــارة حســـرات

ألست ترى أنه قد أحسن إلى النساء، بلغة النساء، ولهجة النساء"! يقصان من زيارتهما لعشيقاتهما، فقال في ذلك شعرًا لا بأس به، ولكن لا أروي لك منه إلا هذين البيتين، لأن في أولهما إيجازًا ظريفًا، وفي الآخر تمثيلا لأمر بغداد:

فكـدنا ولـم غيـر أن شـفاهنا تعاطـت خليطـي سـكر وعقـار
وودعتها صبحا ولم أنس صدها وقـد بـادلتني خاتمـا بسـوار

وانظر إليه كيف يمازح صاحبته، ويتمنى عليها الوصل، وينكر عليها الهجر، ويعدها بأن لا يكون ثقيلا، ولا مطيلا إن وصلته. كل ذلك في بيت واحد ظريف، وهو:

فراجعـي الوصـل فـإن زرتكـم قـدر فـواق فـاحلقي راسـي

وانظر إلى هذا الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت منها بيتا واحد، لأن لفظ "الأنقاس" فيه غربي قد نستثقله:

إني عشقت وما بالعشق من باس ... ما مر مثل الهوى شيء على راسي
مالي وللناس كمن يلحونني سفها ... ديني لنفسي، ودين الناس للناس
ما للعداة إذا مازرت مالكتي ... كأن أوجههم تطلي بأنفاس!
اله يعلم ما تركي زيارتكم ... إلا مخافة أعدائي وحراسي
ولو قدرنا على الإثيان جئتكم ... سعيا على الوجه أو مشيا على الرأس
وقد قرات كتابا في صحائفكم ... " لا يرحم الله إلا راحم الناس"

ولأبي نواس من هذا شيء كثير، لا أستطيع أن أرويه، وتستطيع أنت أن تقرأه في ديوانه، فتجحد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب، والغرور، والدعابة، والمجون، والعبث بكل شي، وتجد فيه من القصص ما يلذ وما يضحك، ولكني قلت لك إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب. وأريد أن أختم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله، وبأنه إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضى حاجته الفنية، أو ليخدع النساء عن أنفسهن، على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة، يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس:

يا من يوجه ألفاظي لأقبحها ... لأنه ساحر العينين معشوق
لو كان من قال نار أحرقت فمه ... لما تفوه باسم النار مخلوق

سأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرد.

جد أبي نواس [1]

المدح

وما رأيك في أن نترك القديم والجديد، وكلاما لن يفيد، ونعود إلى أبي نواس، فنستأنف البحث عن شعره، بعد ن انصرفنا عنه حينا طويلا على أنا حين نستأنف البحث عن شعر أبي نواس، لن نترك القديم والجديد، وإنما نوغل فيهما إيغالا؛ فلقد كتبنا عن أبي نواس في السنة الماضية فصولا طوالا، أثبتت – فيما نعتقد– أنه صاحب الجديد وحامل لوائه،وأنه خصم القديم وأشد أعدائه، حتى خيل إلى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل، وبين الأدب العربي القديم، وأنه كان يريد أن يهدم كل شيء ويبني على أنقاضه شيئا آخر، فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة، لأنها صادفت في نفسه هوى، وفي قلبه ميلا، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة، لأنه من أنصار القديم المشغوفين به، الملحين في البكاء عليه.

ولكن أبا نواس خليق بأن يحبه أولئك وهؤلاء معا، لأنه على حبه للجديد، وإلحاحه في الدعوة إليه، كان محبا للقديم، ملحا في الحرص عليهن كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون إلى فريقين مختلفين، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب، ومالنا نتحدث بشيء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ومرة: إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم، فطرة في الناس، تلزمهم في كل زمان ومكان، إن كان لهم حظ من حياة!

وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس، فكان منهم محب الجديد، وكان منهم محب القديم، وكانوا جميعا أقوياء في حبهم،ن وكان من المعقول أن يتحدث إليهم جميعا شاعر كأبي نواس بما يحبون وما يفهمون. بل ما لنا نذكر شيئا كهذا،ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع، مهما يسرفا في حب الجديد والتهالك عليه، فهما لم ينشأ من لا شي، وهما لن يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم، الذي غذاهما وأنشأهما، فهما بطبيعة الحال يمثلان الجديد الذي يصبوان إليه، ويمثلان القديم الذي نشآ منه.

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٣ رجب سنة ١٣٤٢– ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣.

ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظا له، قالوا إنه تحدث عن نفسه أنه روي لستين امرأة، فكيف بالرجال! ولسنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم، وليس من اليسير ولا من الممكن، أن يخلص أبو نواس من هذه كله، فيكون جديدا صرفا في كل ما يقول.

فإذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والجديد، ولن نستطيع أن نتحدث عن شاعر مجيد حقًا، أو عن كاتب بارع حقًا، إلا إذا تحدثنا عن القديم والجديد، لأن إجادة الشعر ،والبراعة في الكتاب، تستلزمان شيئين لا بد منهما: الأول: الاحتفاظ بالخير من القديم، والثاني: استغلال الجديد واجتناء ثمراته الطيبة. ففي الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان: أحدهما قديم، والآخر جديد، أو فيهما شخصية واحدة، هي المزاج المعتدل لاتصال القديم بالجديد، ونشوء أحدهما عن الآخر.

على أن الحياة ف عصر أبي نواس، كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه إلى أن يظهروا مظهرين، يكادان مختلفان اختلافا تماما، أحدهما مظهر المجدد المسرف في التجديد، والآخر مظهر الحريص على القديم، المسرف في الاستمساك به. ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين: إحداهما عيشتهم الخاصة، يعكفون فيها بعامة الناس وأوساطهم، وأصحاب الحرف والصناعات منهم، ويتصلون فيها أيضًا بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبحونها للناس، ويمهدون لها أسبابًا ووسائلها، من الخمارين والمغنين، والحسان من الذكور والإناث، فيتحدثون إلى هؤلاء الناس جميعًا بلغة يفهمونها ويذقونها، وتعبر حقًا عما يجدون ويشعرون. وأما عيشتهم الأخرى، فهي تلك العيشة المتصلة بالأمراء وأشراف الناس في حياتهم الظاهرة الرسمية، إن صح هذا التعبير، وهم في هذه العيشة مضطرون إلى أن يتحدثوا إلى أمراء الناس وأشرافهم لغة شريفة مختارة، ترتفع عن الابتذال، وتبرأ من تافه القول، وربما اشتد فيها التكلف، وعظم حظها من التصنع.

كانوا مضطرين إذن إلى أن يصدقوا في حياتهم الأولى، ويتكلفوا الكذب والنفاق في حياتهم الثانية، وهذا دأب الأجيال المختلفة؛ فلك في بيتك وبين أصدقائك وخلانك عيشة ولغة، تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء خاصة، فليس عجيبا إذن أن تقرأ لأبي نواس في الخمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك الشعر الرقيق العذب، الذي هو مرآة النفس حقا، والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور، هذا الشعر الذي رق لفظه، ودق معناه، وبرئ من التكلف، وانحط في بعض الأحيان، حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة، وليس عجيبا أن تقرأ لأبي نواس

شعرا آخر فقد قوى متنه، واشتد أسره، وتخيرت فيه الألفاظ تخيرًا دقيقًا، وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية، ما كان ليتقيد بها في شعره الآخر.

وفي الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الخمر والغزل والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر، لا يكتفي بإطلاق العنان لشعوره وعاطفته، وإيثار اللفظ السهل العذب، للمعنى الرقيق الحلو، وإنما يضيف إلى ذلك شيئا آخر؛ فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها، وأيسرها على ا لأذن، وأقربها من النثر، وألينها قيادا للمعنى. فإذا تحدث إلى الأمراء والأشراف عمد إلى اللفظ الفخم، وإلى الأسلوب المتين الرصين. وإلى الأوزان الطوال، التي لا تخلو من فخامة وجلال، فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث به إلى هؤلاء الناس، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم إلى ضربين مختلفين: أحدهما هذا النحو الذي يقصد به إلى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها؛ وفي هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حرًا، ويرسل نفسه على سجيتها فلا يكاد يتقيد بشيء من ذلك الغزل، والمجون، ووصف الخمر، والهجاء، والآخر هذا النحو الذي يقصد به إلى الجد وفنونه، من مدح ورثاء، ووصف،وفخر؛ وفي هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ، ويتقيد في الوزن والقافية والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة، وتكسبه شيئا من الارستقراطية، ويلائم الموضوع الذي يقوله فيه. وقد تحاول أن تقارن بين أبي نواس حيث يمجن، ويتغزل، ويصف الخمر، ويهجو، وحين يمدح، أو يرثي، أو يفخر، وفلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة، وإنما يظهر الفرق عظيما بين الرجلين. وأنت مضطر إلى أن تكن ناقدا بصيرا، لتتميز شخصية الشاعر في هذين الفنين المختلفين من الكلام، بل أنا أذهب إلى أكثر من هذا، فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحي أو تكاد تنمحي في هذا الشعر الجدي، بحيث تلبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جلية كل الجلاء في فنون الهزل واللعب، بحيث يشعر بها ويمسها النقاد وغير الناقد، بل أزعم أن من اليسير أن تضيق إلى أبي نواس أو فخره إلى غير أبي نواس من الشعراء المجيدين، وأن تضيف إلى أبي نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره، دون أن يكنن خطؤك عظيما من الوجهة الفنية، لأن هنالك مثلا أعلى من الإجادة والإتقان قد وضعه الشعراء أمامهم، فهم يحتذونه ويتأثرونه، وهذا المثل الأعلى إنما هو أسلوب القدماء من الجاهلين والإسلاميين، فإذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده، فهم راضون.

ومالي لا أقيم الدليل على ما أقول! فانظر إلى هذه الأبيات من شعر أي نواس الجدي، وحدثني أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة؟ ثم حدثني أتكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذي رويت لك عنه في ألسنة الماضية ما رويت من العبث والمجون:

لما مزعت عن الغواية والصبا وخدت بي الشدنية المذعان
سبط مشافرها دقيق خطمها وكأن سابر خلقها بنيان
واحتازها لون جري في جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

هو يصف ناقته التي حملته إلى ممدوحة الرشيد، فيحب أن يسلك في وصف الناقة التي تحمله إلى ممدوحة طريق غيره من الشعراء، الذي حملتهم النوق إلى الملوك والأمراء، وليس يعينه، يفهمه عامة الناس، وإنما يعينه أن يتحدث إلى أشراف الناس أشرف اللغة، بل ليس يعينه أن يكذب، فلعله لم يكرب إلى الرشيد ناقة، ولم تحمله إلى الرشيد إلا قدماه، ولكنه مضطر أن يسلك مسلك جرير والفرزدق والأخطل والمشاخ وغيرهم من الشعراء، الذين كانوا يتكلفون الأسفار الطوال، ليبلغوا من يمدحون. ثم وازن بين الشعر الذي لا تكاد تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله:

دمعة كاللؤلؤ الرطب من الطرف الكحيل
ذرفت في ساعة البين على الخد الأسيل
إما يفتضح العشاق في وقت الرحيل

أتجد في هذا الشعر لفظا عربيا، أو معنى عويصا؟ أتشعر بأن بينك وبين قائل هذا العشر من بعد الأمد، ما بينك وبين قائل تلك الأبيات الثلاثة في وصف الناقة؟

ثم أريد أن أروي لك من جد أبي نواس هذه القصيدة التي سيعسر عللك فهمها عسرا، شديدا، كما عسر على غير واحد من علماء اللغة وأصحاب النحو،وقد قالها يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين:

أيها المنتاب عن عفرة لست من ليلى ولا سمرة
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمرة
فاتصل إن كنت متصلا بقوي من أنت من وطره
خفت مأثورا لحديث غدا وغد أدني لمنتظره
خاب من أسرى إلى بلد غير معلوم مدى سفرة
وسدته ثني ساعده سنة حلت إلى شفرة
فامض لا تمنن على يدا منك المعروف من كدرة
رب فتيان ربأتهم مسقط العيوق من سحره

فـــاتوا بـــي مـــا يـــريبهم ... إن تقـــوى الشـــر مـــن حـــذره
وابـــن عـــم لا يكاشـــفنا ... قـــد لبســـنا علـــى غمـــره
كمـــن الشـــنآن فيـــه لنـــا ... ككمـــون النـــار فـــي حجـــرة
ورضـــاب بـــت أرشـــفه ... ينقـــع الظمـــآن مـــن خصـــره
علنيـــة خـــوط إســـحلة ... لان متنـــاه لمهتصـــرة
ذا ومغبـــر مخارمـــه ... تحســـر الأبصـــار عـــن قطـــرة
لا تـــرى عـــين البصـــير بـــه ... مـــا خـــلا الآجـــال مـــن بقـــرة

ثم لا يقول في وصف الفرس:

يكتســـي عثنونـــه زبـــدا ... فنصـــيلاه إلـــى نخـــره
ثـــم يعـــتم الحجـــاج بـــه ... كاعتمـــام الفـــوف فـــي عشـــرة
ثـــم تـــذروه الريـــاح كمـــا ... طـــار فطـــن النـــدف عـــن وتـــرة
كـــل حاجـــاتي تناولهـــا ... وهـــو لـــم تـــنقض قـــوى أشـــرة

ثم يتلخص إلى صاحبه فيقول:

ثـــم أدنـــاني إلـــى ملـــك ... يـــأمن الجـــاني إلـــى حجـــرة
تأخـــذ الأيـــدي مظالهمـــا ... ثـــم تســـتذري إلـــى عصـــره
كيـــف لا يـــدينك مـــن أمـــل ... مـــن رســـول الله مـــن نفـــرة!
فاســـل عـــن نـــوء توملـــه ... حســـبك العبـــاس مـــن مطـــره

ثم يقول:

وإذا مـــج القنـــا علقـــا ... وتـــراءى المـــوت فـــي صـــورة
راح فـــي ثنـــي مفاضـــته ... أســـد يـــدمي شـــبا ظفـــره
تتأيـــا الطيـــر غدوتـــه ... ثقـــة بالشـــبع مـــن جـــزره

أفهمت من هذه الأبيات شيئا كثيرًا؟ لا يكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف في إيثار الغريب، حتى كأنه أراد أن يبهر أبا عبيدة والأصمعي وأمثالها، وأن يحير أصحاب النحو والعروض، بما تكلف من غموض، وبما ركب من ضرورة شعرية؟ وفي الحق أن اللغويين تعبوا في تأويل بعض هذه الأبيات، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله:

كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار في حجرة

فإن مرجع هذا الضمير المذكر ليس بالواضح ولا الجلي، وإن كان المعنى في نفسه واضحا جليًا:

أليس هذا معقولا، أن يقول بعض أئمة اللغة في أبي نواس: لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره! ففي هذا الشعر وأمثاله ما يرضي أنصار الغريب والمشغوفين به، وم ذلك فهذه القصيدة على غرابيتها وخشونة مركب الشاعر فيه، من خير ما قال أبو نواس، إذ في لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به، وتميل إليه، دون أن تستطيع تفسيره في سهولة ويسر.

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد في إيثار الغريب أحيانًا، حتى تكاد لا تفرق بينه وبين رؤبة والعجاج، إلى شيء من هذه الأرجوزة، التي مدح فيها الفضل بين الربيع:

ولدى فيها زور صعراء تخطي في صعر
مرت إذا الذئب اقتفر بها من القوم الأثر
كان له من الجزر كل جنين ما اشتكر
ولا تعلاه شعر ميت النسا، حي الشفر
عسفتها على خطر وغرز من الغرر
ببارك حين فطر بهزه حن الأشر
لا متسك من سدر ولا قريب من خور
كأنه بعد الضمر وبعد ما جال الضفر
وانمج في فحسر جأب رباعي المثغر
يحدو بحقب كالأكر ترى بأثباج القصر
منهن توشيم الجدر رعين أبكار الخضر

ثم يصل إلى المدح فيقول:

.....	إليـــــــك كلفنـــــــا الســـــــفر
خوصـــــا يجـــــاذبن النحـــــر	قـــــد انطـــــوت منهـــــا الســـــرر
طـــــي القـــــراري الحبـــــر	لـــــم تتقعـــــدها الطيـــــر
ولا الســـــــنيح المزدجـــــــر	يـــــا فضـــــل للقـــــوم البطـــــر
إذا لـــيس فـــي النـــاس عصـــر	ولا مـــــــــن الخـــــــــوف وزر

ثم يمضي في ذلك حتى كياد يبلغ الإسراف، شأن الذين ينحدرون من الرجز على سفح لا قرار له.

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئا من هذه الطلمسات، ولكني أرى أن الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب، الذي إنما تتسع له المدارس والجامعات. على أني لا أريد أن تيأس من أبي نواس، فتعتقد أنه لا يؤثر إلا الغريب، فالحق أنه قد آثر الغريب أحيانا،ن وآثر اللين أحيانًا أخرى. ولقد نجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة ولا حيطة فيهما، ولقد نجد من مدحه ما فيه مجون مع احتياط، وأحسب أن أفهم ذلك وتعليله ميسوران إذا عرفنا الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس، فقد مدح أشخاصا لم يكن من السهل أن يبتدئ مدحهم بالمجون، أو أن ينزل في مدحهم عما ألف الشعراء من فخم اللفظ ورصينه، ومدح أشخاصا آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم، ويتجاوز الفكاهة إلى الدعابة، فهو جاد حريص إذا مدح الرشيد، وهو يتردد بين الجد والهزل إذا مدح الأمين. ولعله اجترأ على الهزل والجد حين يمدح هذا الأمين السمح، الذي كان يطمع فيه الشعراء، ويدلون عليه، وهو العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر، وكثيرا ما داعب هذا الوزير الخطير، الذي كان يهابه أيام الرشيد، ثم طمع فيه أيام الأمين، حين لان الخليفة له، ويسر عليه أمور كان يعسر فيها الرشيد، وهو الفضل بن الربيع.

ولم يكن أبو نواس يشفق من التصريح بالمجون والفسوق، حين كان يعرض لمدح شابين عظيمين، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا، لم يكن يرى مكانا للكفلة بينه وبين ابني صديقه ونديمه، الذي كثيرا ما خلصه من غضب الأمين، وشفع له في مواقف حرجة، اضطر إليها المجون.

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعا،لأنه كان يحبهم، ويدل عليهم، ويطمع في الخير منهم؛ ولكنه متكلف مصنع حين يمدح البرامكة؛ لأن ميله إليهم لكم يكن إلا بمقدار طمعه فيهم، وكأن البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك، فيحتملونه احتمالا، ولا يضمرون له حبا صحيحا. أما الصلة بينه وبين الخصيب فسنعرض لها بشيء من التفصيل. في غير هذا الفصل.

ولكنا لا نريد أن نتركك على ما روينا لك من هذا الشعر الغريب، فنتم مقال اليوم بهذه الأبيات التي مدح بها لاوب واس العباس بن عبيد الله ابن أبي جعفر.

غـــدر الــــديك الصــــدوح   فاســــــقني طـــــاب الصـــــبوح
واســـــقني حتــــى ترانـــــي   حســـــــنا عنــــــدي القبــــــيح
فهـــــوة تـــــذكر نوحـــــا   حـــــين شـــــاد الفلـــــك نـــــوح
نحــــن نخفيهــــا ويــــأبى   طيـــــب ريـــــح فتفـــــوح
فكـــــأن القـــــوم نهبـــــي   بيـــــنهم مســـــك ذبـــــيح
أنـــا فـــي دنيـــا مـــن العــ   ـــباس أغـــــدوا وأروح
هاشـــــــمي عبـــــــدلي   عنـــــده يغلـــــو المـــــديح
علـــم الجـــود كتـــاب   بـــين عينيـــــه يلـــــوح
كـــل جـــود يـــا أميـــري   مـــا خـــلا جـــودك ريـــح
إنمـــــا أنـــــت عطايـــــا   أبـــــــدا لا تســـــــتريح
بـــح صـــوت المـــال ممـــا   منـــــك يشـــــكو ويصـــــيح
مـــا لهـــذا آخـــذ فـــو   ق يديـــــه أو نصـــــيح
جـــدت بـــالأموال حتـــى   قيـــل مـــا هـــذا صـــحيح
صـــور الجـــود مثـــالا   ولـــــه العبـــــاس روح
فهـــو بالمـــال جـــواد   وهـــو بـــالعرض شـــحيح

obeikandl.com

خاتمة القول في أبي نواس [1]

المدح – الرثاء – الهجاء – الزهد

فصلنا القول في هزل أبي نواس ومجونه تفصيلا، ونحن مضطرون إلى أن نجمل القول في جده إجمالا، لا أنا نؤثر هزل أبي نواس على جده، ولا لأنا نريد أن نتملق هذا الميل العام، الذي يحمل جمهور القراء أن يؤثر الهزل على الجد، ويفضل ما يسر ويلهي، على ما ليس له حظ من السرور واللهو، بل لأنا نعتقد أن شخصية أبا نواس، في حقيقة الأمر، إنما هي شخصية شاعر هازل ماجن، تظهر الظهور كله، إذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع باللذات، والتغني بآثار هذه اللذات، فترى فيها خفة ونشاطا، وشيئا يشبه النزق، أو هو النزق، وترى فيها جرأة غريبة، وحرصا قليلا جدا على الاحتياط، وصراحة لا تعدلها صراحة. فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره في الخمر والمجون والنساء، ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والأدب الموروث عظيم، ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذي رويناه لك تخيرا دقيقا، وراعينا فيه أخلاق الناس في هذا العصر وميولهم، وحاجة الشباب إلى القول الطاهر البري، وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددين في الدين، والمستمسكين بالأدب القديم، أولئك الذي يسميهم ابن قتيبة المتزمتين، راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبي نواس في اللهو والمجون، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدين، وإنكار المنكرين، وغلو قوم اتهمونا بألوان من التهم، وأضافوا إلينا ضروبا من الخروج على الدين والأخلاق، والكيد لتاريخ الأمة العربية المجيد.

ولو أننا روينا لك من شعر أبي نواس في العبث والدعابة، وفي اللهو والمجون، دون تحفظ ولا احتياط، لمثلنا لك شخصية على وجهها، ولكنا مؤرخين حقا، ولكنا كنا نتعرض لما لا نحب، من إفساد الذوق، والإساءة إلى الأخلاق، فأبو نواس شاعر خطر، لا ننصح بقراءته إلا لطائفة خاصة من الناس، يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا، دون أن يتأثروا أو يقلدوا.

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ – ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤.

شخصيته شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء وبعد كل شي، ونحسب أن هذا الرجل لو خلى وطبعه، ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية – إن صح هذا التعبير – إلى أن يصطنع الجد من حين إلى حين، لكان شعره كله هزلا ومجونا. وما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث هي سبيل من سبل اللذة، ووسيلة من وسائل اللهو، ولم يجد إلا ليستعين بجده على الهزل! أفتظنه مدح، لأنه كان يحب ممدوحيه أو يكبرهم؟ أو لأنه كان يحب المدح ويميل إليه! كلا! إنما مدح الخلفاء والوزراء وأمراء ليتخذ مدحهم وسيلة إلى مدح الخمر، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة إلى شرب الخمر، والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات، مدحهم لأنه كان في حاجة إلى ما يرزقونه من المال، ومدحهم لأنه كان في حاجة إلى أن يتملقهم، ويتقي شرهم، مدهم مستجديا، ومدهم متقيا. ولعله لم يخلص في مدح واحد من هؤلاء، إلا نفرا نستطيع أن تعرفهم، إذا نظرنا في تاريخهم من جهة، وفي سيرة أبي نواس معهم من جهة أخرى. لم يخلص أبو نواس في مدح الرشيد،وإنما مدحه مستجديا ا، متقيا. ولم يخلص أبو نواس في مدح البرامكة، وأخلص أبو نواس في مدح الأمين؛ لأنه كان يكبر الأمين ويجله، بل لأنه كان ينادم الأمين، ويرى فيه خليلا على الشراب، وصديقا على اللذة. وكثيرا ما كان يسخر من الأمين إذا سنحت له الفرصة، وقد هجا الأمين غير مرة. وقل مثل ذلك في مدحه للفضل بن الربيع؛ فقد كان هؤلاء جميعا أصدقاءه وندماءه، كما أنهم كانوا حماته ورازقيه. وقل مثل ذلك في مدحه للخطيب؛ فقد بلغ الخطيب من الإنعام على أبي نواس والانبساط له حدا عظيما. ويروون أن أبا نواس كان يشرب مع الخصيب حتى يمعن في السكر، ويفقد الرشد، ويأتي من المنكرات ما يأتيه السكارى إذا انتهوا من سكرهم إلى الحد الأقصى، ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة في الخمر التي مطلعها:

يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم

وهو في شر حال.

ومن هنا لا تكاد تحس الإخلاص في مدح أبي نواس، وإنما هو شيء متكلف، تظهر فيه الصنعة، ويستخفي فيه الطبع. وقد تحسن هذه الصنعة حينا، وقد تسوء حينا آخر، وهي على كل حال ميالة إلى الإسراف والمبالغة، وقليل فيها التجديد، وكثير فيه الاعتماد على القدماء، ومشاركة الشعراء في هذه الصفات الشائعة، التي كانوا يقدمونها إلى الخلفاء والوزراء، يستجدون بها المال. فانظر إلى هذه الأبيات التي يقولها أبو نواس في مدح الرشيد:

وإلى أبن الأمناء هارون الذي ... يحيا بصوب سمائه الحيوان
ملك تصور في القلوب مثاله ... فكأنما لم يخل منه مكان

فأما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعنى، ولكن جماله لفظي. وأما الثاني فلا يخلوا من دقة ولا من جمال، ولكن انظر إلى ما يقول بعد ذلك.

هارون ألفنا ائتلاف مودة ... ماتت لها الأحقاد والأضغان
في كل عام غزوة ووفادة ... تنبت بين نواهما الأقران
حج وغزو مات بينهما الكرى ... باليعملات شعارها الوخدان
يرمي بهن نياط كل تنوقة ... في الله رحال به اطعان
حتى إذا واجهن أقبال الصفا ... حسن الحطيم وأطت الأركان
لأغر ينفرج الدجى عن وجهه ... عدل السياسة حبه إيمان
يصلي الهجير بغرة مهدية ... لو شاء صان أديمها الأكنان
لكنه في الله مبتذل لها ... إن التقي مسدد ومعان

أفترى في هذا الكلام كله شيئا قيما، أو معنى طريفا؟ أفتؤمن له بأكثر من الجمال اللفظي، يلقاك من حين إلى حين؟ ثم ألست تضع يدك على الصنعة؟ ألست تتبين اتكلف واضحا جليا؟ثم انظر هذين البيتين فهما لا يخلوان من جمال، ولكن التكلف فيهما ملموس:

ألفت منادمة الدماء سيوفه ... فلقما تحتازها الأجفان
حتى الذي في الرحم لم يكن صورة ... لفؤاده من خوفه حفقان

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى، وأعجب به، فأعداه في قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد، ولكنه كان فيها أقرب إلى الإجادة، وأبعد عن التكلف، وذلك حيث يقول:

ملك تطيب طباعه ومزاجه ... عذب المذاق على قم المتذوق
يلقي جميع الأمر وهو مقسم ... بين المناسك والعدو الموثوق
يحميك ما تستضر بفعله ... ضحكات وجه لا يريبك مشرق
حتى إذا أمضى عزيمة رأيه ... أخذت بسمع عدوه والمنطق

فهذا كله كلام عذب سهل، ولكنه عادي مألوف. أما المعنى الذي أشرنا إليه في القصيدة الماضية، فانظر إليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة:

إنــي حلفـت عليـك جهـد إليـه — قســـما بكـــل مقصـــر ومحلـــق
لقـد اتقيـت ا لله حـق تقاتـه — وجهـدت نفسـك فـوق جهـد المتقـي
وأخفـت أهـل الشـرك حتـى إنـه — لتخافـك النطـف التـي لـم تخلـق

فانظر إلى هذا البيت، وقارن بينه وبين قوله:

حتى الذي في الرحم لم يكن صورة — لفـــؤاده مـــن خوفـــه خفقـــان

ألست ترى أنه أقل تكلفا في اللفظ، وأكثر صفاء في الأسلوب، ومع ذلك فالمعنى في نفسه سخيف، لأنه محال.وقد لا حظ القدماء ذلك، واختلفوا فيه، فمنهم من أنكر على أبي نواس هذه الإحالة، ومنهم من أعجب بها. وأنا أشارك المنكرين في إنكارهم، وأوثر على هذا المعنى عند أبي نواس قول أشجع السُّلَمي في مدح الرشيد:

وعلـى عـدوك يـا بـن عـم محمـد — رصـــدان ضـــوء الصـــبح والإظـــلام
فـــإذا تنهـــب رعتـــه وإذا غفـــا — ســـلت عليـــه ســـيوفك الأحـــلام

فهذا الشعر متين رصين، وهو في الوقت نفسه صحيح مستقيم، لا ينكره العقل، ولا يذهب فيه الخيال إلى غير حد، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته أحسن تمثيل. ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب، فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمل وإنما هو مغمور بنعمة الخصيب، راض عن حياته في مصر، سعد بهذه الحياة، فشعره يصف هذا كله، ويمثله تمثيلا صادقًا؛ ولست أروي لك القصيدة المشهورة:

أجـــارة بيتينـــا أبـــوك غيـــور — وميســـور مـــا يرجـــي لـــديك عســـير

ولكن اقرأ شيئا من قصيدة أخرى، لم يكثر الناس تناقلها، وانظر ألا ترى الشاعر فيها سعيدًا مغتبطا بحاضره، عظيم الأمل في مستقبله:

ذكر الكرخ نازح الأوطان — فصبا صبوة ولات أوان
ليس لي مسعد بمصر على الشو — ق إلى أوجه هناك حسان
إذ لباب الأمير صدر نهاري — ورواحي إلى بيوت القيان
واغتافي المولي لأختلس الغمـ — ـة ممن أحبه بالبنان
واعتمالي الكؤوس في الشرب تسعى — ن مترعات كخالص الزعفران
يا بنتي أبشري بميرة مصر — وتمني وأسرفي في الأماني
أنا في ذمة الخصيب مقيم — حيث لا تعتدي صرووف الزمان
كيف أخشى على غول الليالي — ومكاني من الخصيب مكاني

ثم يقول:

قادني نحوك الرجاء فصدقـ — ـت رجائي واخترت حمد لساني
إنما يشتري المحامد حر — طاب نفسا لهن بالإثمان

ولم لا يكون سعيدًا! ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق، وهو يقضي نهاره وليله بين الأمير ودور اللهو!

وكما أن مدح أبي نواس في أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز، فرثاؤه قليل الخطر، وربما كان أقل خطرا من مدحه، وربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس. وهذا واضح؛ فلم يكن أبو نواس رجلا محزونًا، ولا ميالا إلى الحزن، وإنما كان رجلا مبتهجًا بطبعه، أو كان هو الابتهاج. فليس غريبا أن لا يجدي الرثاء، وليس غريبا أ، يتكلفه إذا اضطر إليه، ثم لا تنس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن إلى حياة الزوجية، وعجز الذي أرادوا أن يحملوه على الزواج،فلم تكن له أسرة، ولم يعش بين أبنائه وبناته، فلم تنشأ في نفسه هذه العواطف الرقيقة، التي تنشها الحياة المنزلية الصالحة. وإنما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاج.

أما صلات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس، فلم يكن أكثرها يقوم على الجد، وإنما كان يقوم على اللذات، فكان أبو نواس مدينًا لأصدقائه بالابتسام لا بالعبوس، ومن هنا لا تكاد تشعر بشيء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة، وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه إلا مرة واحدة، وذلك حين رثى الأمين في هذه الأبيات:

obeikandl.com

طوى الموت ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديمها ... أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أدوه ... لقد عمرت ممن أحب المقابر

فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف. ولست أشك في أن أبا نواس كان يشعر بضعفه في هذا الفن، وكان مع ذلك يحاول أن يخفي هذا الضعف، فكان يسلك إلى إخفائه سبلا مختلف، أظهرها الإكثار من الوصف، على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما إلى ذلك.

ليس لرثاء أبي نواس قيمة، فخير ألا نطيل فيه، وأن ننتقل إلى فن آخر، أجاد فيه أبا نواس إجادة مطلقة، لست أقل من إجادته في الخمر، ولا في المجون، لأنه باب من المجون، وهو الهجاء. على أننا نسرف إذا قلنا إن هجاء أبي نواس مجون كله؛ في هجاء أبي نواس جد كثير، وفيه هزل كثير. ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبي نواس فصلا مطولا، ولكنا مضطرون إلى أن نعدل عن ذلك، لأن أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش القول ومقذعة، فليس إلى روايته من سبيل. فلنكتف بأن نعطيك منه صورة موجزة جدا، ولنلاحظ قبل كل شيء أن هجاء أبي نواس ينقسم أقساما،فهناك الهجاء السياسي، وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين: أحدهما هجاء أبي نواس للعرب عامة، وللنزاريين خاصة، فقد كان أبو نواس شديد الميل إلى الفرس، وكان لا يحب من العرب إلا اليمانية، فأما النزارية فقد كان يزدريهم، ويمقتهم كل المقت، وكان ينالهم بأشد الشعر إقذاعا حتى يروي أن الرشيد حبسه في ذلك الوقت،وكان لا يكاد يستثني قريشا فإذا فعل فمخافة السيف، لأن النبوة والخلافة كانتا في قريش. القسم الآخر من هجائه السياسي هجاؤة للذين عاشروه من الأمراء والوزراء؛ فقد كان أبو نواس بكره البرامكة، وكان يكره الأمويين، وكان ينال أولئك وهؤلاء بفاحش القول. ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولاسيما إذا هجا أعداءه السياسيين، وإنما يظهر أنه كان شديد الضغن، منكر الحقد. فانظر إلى هذه الأبيات التي هجا بها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين، وكاتب الأمين:

ألا قل لإسماعيل إنك شارب ... بكأس بني ما هان ضربه لازم
أتسمن أولاد الطريد ورهطة ... بإهزال آل الله من نسل هاشم
وإن ذكر الجعدي أذريت عبرة ... وقلت أدال الله من كل ظالم
وتخبر من لاقيت أنك صائم ... وتغدوا بحجر مفطرا غير صائم
فإن يسر إسماعيل في فجراته ... فليس أمير المؤمنين بنائم

فانظر إلى هذه الوقيعة المنكرة، ثم أقرأ هذه الأبيات الأخرى، فليس أقل نكرا مما روينا لك:

ألسـت أمـين الله سـيفك نقمـة ... إذا مـاق بنمـا فـي خلافـك مـائق
فكيـف بإسـما عإيـل يسـلم مثلـه ... عليـك ولـم يسـلم عليـك منـافق
أعيـذك بـالرحمن مـن شـر كاتـب ... لـه قلـم زان وآخـر سـارق
أحيمـر عـاد إن للسـيف وقعـة ... برأسـك فـانظر بعـدها مـا توافـق
تجهـز جهـاز البـرمكيين وانتظـر ... بقيـة ليـل صـبحة بـك لاحـق

وقسم آخر من هجاء أبي نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب النحو والكلام؛ فقد هجا الهيثم بن عدي، وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين المنكرين، ويروي أنه كتبهما على الحائط، وحيث كان يدرس أبو عبيدة:

صلي الإلـه علـى لـوط وشيعته ... أبـا عبيـدة قـل بـالله آمينـا
فأنـت عنـدي بـلا شـك بقيتـه ... منـذ احتلمـت وقـد جـاوزت سـبعينا

وهجا النظام من المتكلمين بهذه الأبيات:

قـولا لإبـراهيم قـولا هتـرا ... غلبتنـي زندقـة وكفـرا
إن قلـت مـا تشـرب قـال خمـرا ... .
إن قلـت مـا نتـرك قـال بـرا ... أو قلـت مـا ترهـب قـال بحـرا
أو قلـت مـا تقـول قـال شـرا ... أصـلاة ربـي لهبـا وجمـرا

ولعلك تذكر أنه كان يقصد إلى النظام بقصيدته التي أولها:

* دع عنك لومي فإن اللوم إغراء *

والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه، ويعجبون بشعره، ولعل شيئا من هذا الإعجاب بمصدره الخوف؛ فقد كان أبو نواس ينذر العلماء إذا احتاج إلى ذلك، ولما لم يجد له الكلبي نسبًا في أنساب العرب قال فيه:

أبـا منـذر مـا بـال أبـواب مـذحج ... مغلقـة دونـي وأنـت صـديقي
فـإن تعزنـي يأتـك ثنـائي ومـدحتي ... وإن تـأب لا يسـدد عليـك طريقـي

obeikandi.com

وقسم ثالث من هجاء أبي نواس، هو هجاؤه لأصحاب من الشعراء وا لندامي، فله في الرقاشي وفي بني نوبخت كلام كثير مقذع. وظاهر أن رجلا كأبي نواس حياته بين الكأس والطاس، في لعب ومزاح، كان من خفه الروح، وتوقد الذكاء، دقة الفطنة، بحيث كان يبلغ ما أراد إذا هجا، فهو من أشد الشعراء في عصره إقذاعا، ومن أكثرهم نكاية بالخصم، وفي هجائه ازدراء لا يعدله ازدراء، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئا قليلا، فانظر إلى قوله:

أمات الله من جوع رقاشا   فلولا الجوع ما ماتت رقاش
ولو أشممت موتاهم رغيفا   وقد سكنوا لقبور إذن لعاشوا

وانظر إلى قوله في هجاء داود بن زرين رواية بشار:

إذا أنشد داود   فقل أحسن بشار
له من شعره الغث   إذا ما شاء أشعار
وما منها له شيء   ألا هذا هو العار

وانظر إلى هذين البيتين:

بما أهجوك لا أدري   لساني فيك لا يجري
إذا فكرت في عرضك أشفقت على شعري

وانظر إلى قوله:

سيروا إلى أبعد منتاب   قد ظهر الدجال بالزاب
هذا ابن نوبخت له إمرة   صاحب كتاب وحجاب

وانظر إلى قوله في البرامكة:

إني لولا شقاء جدي   ما مات موسى كذا سريعا
و طوته المنون حتى   أرى بني برمك جميعا
هذا زمان القرود فاخضع   وكن لهم سامعا مطيعا

وهذا أخف ما مقال أبو نواس في الهجاء، ونحن مضطرون أن نطوى عنك أجود هجائه، لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حدًا يحول بيننا وبين روايته.

obeikandi.com

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة، ولعله أول من أتخذه فنا مستقلا من فنون الشعر، فنظم فيه القصائد طوالها وقصارها، وهو فن الصيد، ولكني لا أحدثك عنه في هذا الفصل، لأن أبا نواس قد آثار فيه إيثارًا شديدًا، حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة، لشدة احتياجه إلى الشرح والتفسير. ولعلي أوفق إلى جمع هذه الفصول كلها فيكتبا، فأضيف إليها فصلا عن الصيد في شعر أبي نواس.

أما الفن الذي أريد أن أختم به القول في أبي نواس، فهو فن الزهد، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها، وذلك مفهوم أيضا: فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبي نواس لما استطعت إلا أن تقول: إن أبا نواس كان يزدري الحياة، ويسخر منها، ولعلك تدهش إذا قلت لك إني أشبه أبا نواس بأبي العلاء، تدهش لأن أبا نواس مشرق مبتسم، في حين كان أبو العلاء عابسا مكتئبا، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وفخور، في حين كان أبو العلاء رجل زهد وحرمان. ومع ذلك فأبو نواس شبيه بأبي العلاء: كلاهما كان يزدري الحياة، وكلاهما كان يمقتها مقتا شديدًا. وكل منا بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدرها، ويستعين عليها باللذة واللهو، وأن أبا العلاء كان يكره الحياة، فيستعين عليها بالزهد والحرمان. وفي الحق أن المتشائمين ينقسمون إلى هذين القسمين: فمنهم متشائم يضحك ويلهو، ومنهم متشائم يعبس ويبكي وهم جميعا متشائمون، تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة، وهي أن الحياة شيء ليس بذي حظر، لم ينشأ من خير، ولن ينتهي إلى خير، فلتقض في لعب ولهو، أو فلتقض في حكمة وزهد، هذا شيء يختلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل. فليس غريبا إذا أن يجيد أبو نواس في المجون وفي الزهد معا، على أني لا أستطيع أن أحكم على أبي نوتاس أكان هو مسلمًا حقًا أم لم يكن، ولعل أصدق حكم ممكن في أبي نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام، وازدري أصوله وقواعده غير مرة في حياته الطويلة، ولنقل إن شعره في الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضًا، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة، التي قالها في الزهد:

أيـــة نـــار قـــدح القـــادح ... وأي جـــــد بلـــــغ المـــــازح
لله در الشـــيب مـــن واعـــظ ... وناصـــح لـــو حظـــى الناصـــح
يـــأبي الفتـــي إلا اتبـــا ع الهـــوى ... ومـــنهج الحـــق لـــه واضـــح
فاســـم بعينيـــك إلـــى نســـوة ... مهـــورهن العمـــل الصـــالح
لا يجتلـــي الحـــوراء مـــن خـــدرها ... إلا امـــرؤ ميزانـــه راجـــح
مـــن اتقـــى الله فـــذاك ا لـــذي ... ســـيق إليـــه المتجـــر الـــرابح
شـــمر فمـــا فـــي الـــدين أغلوطـــة ... ورح لمـــا أنـــت لـــه رائـــح

الوليد بن يزيد [1]

كان خليعا ماجنًا، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة والمجون. تبعه أبو نواس في خلاعته ومجونه، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر، فسطوا على شعره، وسرقوا معانيه وألفاظه، أو قل إنهم استباحوها واغتصبوها اغتصابا، لم يروا في ذلك حرجا، ولم يخشوا في ذلك دفاعًا. كان الوليد أمويا، فكان بغيضا إلى لناس أيان بني العباس، ثم كان الوليد بغيضا إلى بني أمية أنفسهم، قبل أن يمكن الله لبني العباس في الأرض، فكان بغض الناس له مضاعفا، كرهوه حين كان الأمر لبني أمية؛ لأنه كان بغيضا إلى قومه، ولأن التوفيق السياسي أخطأه، ولأنه كان على شيء غير قلل من سوء السيرة، ولأن قومه الذي ثاروا به وقتلوه بالغوا في تسوئ سيرته، وأضافوا إليه من القول ما لم يقل، وحملوا من الآثام ما لم يحمل، وأ،ت تعلم آثار البغض السياسي، وما تحدثه الفتن لمن لم يوفق فيها إلى النصر، ثم كانت ثورة العباسيين، واستقرار الأمر لهم، فشمل البغض بني أمية وكان حظ الوليد منه مضاعفا، وتقرب الناس إلى بني العباس بلغن بني أمية جميعًا، خيرهم وشريرهم، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح في بني هاشم جميعًا، وبلعن على رضي الله عنه. ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد، والنعي عليه، ورميه بالفكر حينًا، وبالزندقة حينا آخر، وإضافة الشعر المملوء كفرا وفجورًا إليه، يجب أن تحتاج في هذا كله، فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول، لسنا نحن الذين يقولون ذلك، بل قاله الأولون؛ فقد اختلفوا فيه اختلافا عظيما، فأما أكثرهم فكانوا يتقربون إلى بني العباس، وإلى عامة الناس، بالطعن فيه والنعي عليه، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامة، على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة، ينالونها بضروب الغضب، وينزلون بها ألوان السخط. وأما القليل من هؤلاء الأولين، فكانوا يقصدون في ذلك. فيسكتون، وربما اصطنع بعضهم الشجاعة، فدافع عنه في رفق وحذر. قالوا: دخل مروان بن أبي حفصة على الرشيد فسأله عن الوليد، فتردد، فأعفاه الرشيد من آثار قوله؛ فقال: "كان من أصبح الناس، وأظرف الناس، وأشعر الناس" فاستنشده الرشيد من شعره، فأنشده هذه الأبيات:

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢- ٢ أبريل سنة ١٩٢٤.

ليت هشامًا عاش حتى يرى مكياله الأوفر قد أترعا
كلنا له الصاع التي كالها فما ظلمناه بها أصوعا
لم نأت ما نأتيه عن بدعة أحلها القرآن لي أجمعا

قالوا: فأمر الرشيد بهذه الأبيات فكتبت له. وتحدثوا أن رجل من ولد الغمر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد، فسأله عن نسبه، فانتسب إلى قريش، فسأله أن يخصص، وأمَّنه على نفسه إن ظهر أنه مرواني، فلما ذكر الرجل نسبه، بش له الرشيد، وقال لعن الله قاتلي أبيك، فقد قتلوا خليفة مجمعا عليه، وقضى حوائجه. وعلى نحو من ذلك كان رأي المهدي، قال الرواة إن فقيها من الذين كانوا يختلفون إلى مجلس المهدي استطاع أن يدفع عن الوليد حين أتهم بالزندقة، فذكر صلاته وطهارته وخشوعه، ولكنه ذكر شربه وحبه للهو، وعكوفة عليه. ويقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفا في اللهو والفجور إلى غير حد، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقيا صالحا، وإنما كان رجلا من الناس، أحب اللذة وكلف بها، وأعانته عليها ظروف نريد أن نجملها، فأخذ منها بحظ موفور دون، أن يخرجه ذلك عن دينه، أو يتجاوز به حدود ما ينبغي للخلفاء في عصره، ولكنه كان شقيًا سيء الحظ، جنت عليه الظروف السياسية التي عاش فيها أكثر مما جني عليه لهون ومجونه.

أول هذه الظروف السياسية التي جنت على الوليد أنه كان وليا لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك، ولكنه كان غلاما، فتوسط بينه وبين أبيه في الخلافة عمه هشام بن عبد الملك، ولم يكد يتم الأمر لهشام، حتى طمع في الخلافة لأبنه، وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد، وكان قد أعطى العهد على نفسه ليفين للوليد، ولكن الأثرة وحب الأبناء كانا أقوى وأشد تأثيرا في نفس هشام من العهد والوفاء به، أزمع هشام خلع الوليد، وأخذ يختال في ذلك،ويعد له، وأحسن الوليد ذلك، فكانت بنيه وبين عمه ضغائن وأحقاد، واشتدت شيئًا فشيئًا، حتى أصحبت عداء صريحًا، وحتى اضطرت الوليد إلى أن يترك العاصمة،ويرتحل إلى البادية،مغاضبا لعمه، مجتنبًا شره، فلم يزيد ذلك هشامًا إلا بغضًا لأبن أخيه، وحقدا عليه، وإلا اضطهادً له ولأوليائه وأخبار ذلك كثيرة منتثرة في الكتب، وبأي شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه، ويصرفهم عن بيعته، إلا بالدين وذكر الفجور والفسوق"! وقد انتفع هشام بهذا، وأسرف في الانتفاع به، فأذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والمجون والإدمان والكفر والزندقة، وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور، ومكذب، ولكنه يتملق فيظهر التصديق، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع، فالأمر ما كان مغنوه يغنونه هذين البيتين.

يـــا أيهـــا الســـائل عـــن ديننـــا نحـــن علـــى ديـــن أبـــي شـــاكر
نشـــربها صـــرفا وممزوجـــة بالســـخن أحيانـــا وبالفـــاتر

وأبو شاكر هذا هو مسلمة بن هشام، الذي كان يرشح للخلافة مكان الوليد، وتحدثوا أن هشاما سأل الوليد ذات يوم أسئلة تنم عن رأيه فيه، فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنه من أسئلة هشام، سأله ما شرابك؟ فأجاب: شرابك يا أمير المؤمنين: ولسنا نزعم أن الوليد لم يكن يشرب، إنما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء، ومن الخلفاء أنفسهم، كان يشرب كهشام وبني هشام، ولكن الغرض السياسي أباح لهشام أن يذمه، ويشنع عليه بما كان يأتي هو، وبما كان يأتي أبناؤه.

كان الوليد مضطهدًا أيام هشام، فكان هذا الاضطهاد يضطره إلى اللهو واللعب لأمرين، ليسلي عن نفسه ما يناله به السلطان من المحن من جهة، وليظهر نفسه مظهر الرجل الذي لا يريد أن يضعف، ولا أن يستكين من جهة، كان يشرب عنادًا، وكان يشرب طالبا للعزاء، ومضى في الشرب عنادًا وتعزيًا، حتى شغف به شغفًا غير مألوف، فأمكن من نفسه، وصدق بعد آراء الناس فيه، مات هشام دون أن يستطيع خلعه، ولكنه كان قد استطاع إيذاءه وإيذاء أصحابه، ونالهم بمحن كثيرة شديدة، فلما تم له الأمر، وتبوأ دار الخلافة، جرى مع طبيعته، فانتقم وأسرف في الانتقام، كما أسرف هشام في الإساءة إليه، ولكنه انتقم من الأبرياء،أو انتقم من قوم لم يكونا أساءوا إليه إلا تأثرا لهشام، وكذلك شأن الانتقام السياسي، يصيب البريء قبل أن يصيب المسيء. ثم لم يكتف الوليد بالإسراف في الانتقام، بل أسرف في شيء آخر. كان محروما أيام عمه، فجري مع طبيعته، وأراد أن يستوفي حقه بعد الحرمان، فتجاوز الحق. كان مقترًا عليه، فقد قطع عنه هشام عطاءه وأرزاق أصحابه ومواليه، وقد انفتحت له الآن خزائن الدولة، فأسرف فيها، كان مضيقا عليه، يختلس اللهو اختلاسا، ويفر باللذة فرارًا، وقد أصبح الآن صاحب السلطان، فأطلق لنفسه عنانها، وأخذ من اللذة ما استطاع،وفوق ما استطاع.

ثم لم يكد يصل إلى الخلافة وينتقم لنفسه، حتى كان هذا لانتقام نفسه مصدر شر له؛ فقد كوّن حزبا قويا يكره الوليد، ويأتمر به، ويرثي لأبناء هشام، ويبث الدعوة للتشنيع على الوليد، وإساءة رأي الناس فيه، فلم يكن بد للوليد من أن يدفع عن نفسه، ويحارب هؤلاء الخصوم، ولم يكن الوليد ملكا ولا قديسا، وإنما كان رجلا من الناس، وكان أمويا من بني أمية، فيه أخلاقهم وخصالهم، وفيه عنفهم وعنادهم، وفيه غرورهم وطغيانهم، فلقي الشر بالشر، وتحدَّى خصومه، فأمكنهم من نفسه، وصدق رأيهم فيه، ثم انتصر على خصومه، فخلعوه وقتلوه، وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمد الناس ما فعلوا، فأضافوا إلى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا،ثم كانت الفتنة

العباسية، فأصبح بنوا أمية جميعا في رأي الخلفاء العباسيين، وعامة الناس، ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء،كفرة فجار، وأصبح الوليد مثالا لكفرهم وفجورهم، وكذلك يكتب التاريخ فيظلم فيه ناس من الحق ألا يظلموا.

لا نريد أن ندافع عن الوليد، فليس يعني الدفاع عن الوليد شيئا، ليس يعنينا في حقيقة الأمر أن يكون الوليد خيرًا أو شريرًا، ولكن أمامنا حقيقة تاريخية نريد، نتصورها تصورًا صحيحًا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فإذا أردنا أن نحكم على الوليد حكمًا قريبًا من الصدق، كان من الحق أن نقول: إنه كان رجلا مستمتعًا بذاته، مسرفا في هذا الاستمتاع، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه، ولعله لم يصل إلى هذا الإسراف في الإثم، إلا لأن خصومه اضطروه إلى ذلك اضطرارًا، إما باضطهادهم إياه، وإما بتشنيعهم عليه وتحدِّيهم له.

ولقد نريد أن نظر على الوليد نظرة غير النظرة التاريخية. نريد أننظر إليه من الوجهة الأدبية؛ فقد كان الوليد أديبًا، وكان شاعرًا، وهذا لوحده هو الذي يعنينا الآن من هذا الرجل. نريد أن ننظر إليه من هذه الوجهة، ونريد أن نتبين شخصيته الأدبية والشعرية بنوع خاص، ولكن ذلك ليس ميسورًا، فقد ذهبت أشعار الوليد كلها أو أكثرها ولم يبق منها إلى الشيء القليل، ذهبت لتعصب الناس عليه، وتحرجهم من رواية شعره، وما نحسب أن هذا التحرج كان دينيًا فقد روي الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون، وإنما كان هذا التحرج سياسيًا. ومن يدري! لعل هذا التخرج السياسي قد أضاع علينا من آثار بني أمية شيئًا كثيرًا، ومع ذلك فيظهر أن كثيرًا من شعر الوليد كان محفوظًا يتناقله الناس في القرن الرابع، فإنا نجد في الأغاني أن قصائد الوليد (تدل على نفسها)؛ ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها وإثباتها، وليته فعل، فإن هذه القصائد التي كانت تدل على نفسها في القرن الرابع، لم يبق منها الآن شيء إلا هذه المقطوعات التي أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج، فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد. ليس من اليسير إذن أن نعطي من الوليد صورة صادقة، وإنما نحن مضطرون ومع ذلك فهي خير من لا شيء.

أخص ما يمتاز به الوليد أنه كان شاعرًا صادقًا لا يكذب، ولا يميل إلى الكذب في شعره، ولم يكذب، وهو من فتيان بني أمية، عزيز النفس، رفيع المنزلة، ليس في حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة، وليس في حاجة إلى أن يهجو، ليدفع عن نفسه خصما يكافئه. وأي الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولي عهد المسلمين؟ ولو فعل فما كان ولي عهد المسلمين ليهجوه، وإنما كانت السبيل في ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب. ثم لم يكن الوليد متكلفًا

في حياته. وكأنه كان يزدري الناس، ولا يحفل بهم، ولِمَ لا يزدريهم وقد رآهم يتملقون عمه، ويعينونه على الظلم، ونقض العهد، ولا لشيء إلا لأنه صاحب السلطان! أو ينتحل من الخصال خصلة لا تعجبه.

قالوا: كان الوليد متزوجا من إحدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان، فعرف أن لزوجته أختا تفوقها جمالا وحسنًا، فطلق زوجته، وأراد أن يقترن بأختها، فخطبها إلى أبيها، وعرف ذلك هشام، فأرسل إلى سعيد: أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك، يطلق هذه، ويتزوج تلك؟ فرد سعيد خِطْبة الوليد: فقال الوليد: هذا سعيد يرد خطبتي، ولو كنت خليفة لزوجتي بناته جميعا... وفي الحق أن سعيدًا لم يرد هذه الخطبة إلا مجاراة لهشام، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين، فلك يكن من المعقول، ورأي الوليد في الناس رأيه، أن يحفل بهم، أو يعني بترضيهم. كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد، فلم يكن يحاول إرضاءهم، وكان سيدهم وهو خليفة، فلم يكن يحاول إرضاءهم أيضًا. ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حبًا في الشعر؛ لم يكن يحرص على أن يكون شاعرًا مجيدًا، وإنما كان يلهو، أو كان يجد، وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجد في لهوه وجده، وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب، وإنما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه، وترجم عن عواطفه، ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقًا، يمثل نفسه تمثيلا صحيحا. وسنرى أن هذه النفس لم تكن بغيضة ولا ثقيلة الظل. ومن هنا أيضا كان شعر الوليد أقرب إلى الرداءة اللفظية، منه إلى الجودة، فقد قلت لك إن لم يكن يتكلف يقول الشعر إلا وهو متأثر بما يسر أو يحزن، وإذن فقد كان مشغولا بسروره وحزنه عن الألفاظ، كان يقول الشعر وهو سكران، يشرب ويطرب بما حوله، وكان همه أن يكون قد نال شعرًا وهو سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه، أو خاطرًا خطر له، وكان يحب شعره، لأنه كمان معجبا بنفسه، وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس، وكان يحب أن ينظر كثيرا في هذه المرآة، ولذلك كان لا يكاد يقول شعرًا إلا طلب إلى أحد المغنين أن يغني له فيه صوتًا، وربما قال الأبيات، فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها، فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليله.

وهذا النحو من الشعر الذي لا يتكلف صاحبه فيه لفظًا ولا معنى، وإنما يغترفه اغترافًا سهلا لا مشقة فيه، يكفي أن يخطر الخاطر، أو تعرض الحادثة، فإذا الشاعر ينظم فيها أبياتًا، أي يقول فيها كلاما كان يستطيع أن يقوله نثرًا، ولكنه تعود النظم، فهو ينظم في غير عسر، ولهذا كان الشعر أيسر شيء على الوليد، كان يتكلم شعرًا حين ينثر الناس، كان إا أعجبه شيء عادي وصفه شعرًا، وكان إذا اشتهى شيئا اشتهاه شعرًا، وكان إذا عمه شيء مهما يكن جليلا أو ضئيلا عبر عن ذلك بالشعر، كان الشعر كالنثر عند غيره؛ ولهذا اصطنع من بحور الشعور

أخفها وألطفها، وأقربها إلى النثر، وأشدها ملائمة لحياة اللهو والدعة التي كان يحياها، فقليلا ما تجد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة، وإنما شعره كله هزج ورمل،وهو إذا عمل إلى البحور الطوال اجتزأها اجتزاء، وخففها تخفيفا، فاختار أيسرها وأقصرها. قلت لك: إنه لم يكن ينظم الشعر، وإنما كان يتكلمه، وهو في هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين؛ فقد حدثتك عن أبي نواس أنه كان إذا لها أو تغزل آثر الشعر أيسرها وأقصرها، وأخفها موقعًا، وأدناها من النثر مكانًا، وكذلك كان غير أبي نواس من شعراء العباسيين، إمامهم في هذا كله الوليد.

ولو أن الوليد أكثر من تعاطي الجد في شعره، لاختار في هذا الحد من الأوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة، ولكنه لم يكن يجد في شعره كثيرًا، فقد قلت لك إنه لم يكد يهجو، وإنما تعاطى من فنون الشعر ضروبًا خاصة، وصف الخمر لأنه كان يشربها، ووصف اللذة لأنه كان يستمتع بها ووصف الصيد لأنه كان يصيد، ولكل هذه الفنون تحتاج إلى الشعر السهل، وإلى الوزن القصير .وتغزل الوليد كثيرًا، فقد ذكرت لك أنه أحب أخت زوجته، وكانت هذا المرأة التي فتن بها تسمى سلمى بنت سعيد، فلا تكاد تجد شعرا للوليد يخلو من سلمى، وهو يفتن في ذكر سلمى افتتانا عظيما، فيذكر اسمها مكبرا ومصغرا، ويذكره كاملا ومرخما، ويتخذ مرة كنية لها، كأنه يداعبها، ومن الغريب أنه كان في هذا الحب سيء الحظ، كما كان في حياته كلها، فقد طلق امرأته ليتزوج أختها، فحال هشام بينه وبين ذلك، فندم على تطليق امرأته، وكأنه أحبها، فأراد أن يراجعها، ولكنها كانت قد تزوجت رجلا آخر، فقال في ذلك شعرًا لذيذًا، ولكنه يئس من امرأته، فانصرف إلى عشيقته سلمى، وكأنها كانت تحبه، بل كانت تحبه، ولكنها كانت تطيع أباها وتكبره، فكان الوليد يَنسبُ بها حياته، وكان شعره يصل إليها؛ وكان يحب أن يسمع رأيها في هذا الشعر، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تذمه، بل لأنه يريد أن يجد في كلامها صدى لعواطفه، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم أن خاصم سعيدًا وهجاه، فبلغ ذلك سلمى، فغضبت لهجاء أبيها، وبلغ الوليد أ،ها مغضبة، فترضها بشعر كثير، وترضّى أباها، واعتذر إليه. وظل هشام في وجد وحزن، يحب و لا يصل إلى من يحب، وله في ذلك فنون، فقد احتال ذات يوم في أن يدخل قصر سعيد، فيقال إنه لقي زياتًا يسوق حمارًا، فأخذ من الزيات ثيابه وحماره وزيته، ورأته سلمى ورآها، ثم نهره الخدام، فانصرف وقال في ذلك شعرًا. فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة، خطب سلمى إلي أبيها، فقبل خطيبته هذه المرة، وزوجه ابنته، وللوليد في ذلك شعر عذب لذيذ، من أخف الشعر ظلا، وأحسنه في النفوس وقعا، ولكني قلت لك إن الوليد كان سيء الحظ في حبه، كما كان شيء الحظ في حياته كلها، فلم تلبث سلمى عنده إلا أربعين يوما، ثم ماتت فجزع الوليد لموتها جزعا شديدًا، ورثاها رثاء لا نقول إنه يفطر القلوب حزناً وأسى، ولكننا نقول إنه يمثل نفس الوليد، التي كانت تعرف كيف تحزن، كما كانت تعرف كيف تبتهج. ويكفي أن تقرأ

شعر الوليد في سلمى هذه حية وميتة، لتعرف أن الوليد لم يكن يتكلف الشعر، ولا يحرص على الإجادة فيه؛ وإنما كان يرسله كما يرسل أنفاسه، في سهولة ويسر، فإذا هو حار حينا، وفاتر حينا، وقد يصل إلى البر حينا آخر.

ثم للوليد جد، ولكنا لم نحفظ منه إلا قليلا، فقد خاصم هشاما، فاضطره هذه الخصام إلى شيء من الفخر والعتب، ونالته محن اضطرته إلى أن يقول فيها شعرًا؛ وفقد ابنا له فرثاه؛ وهو في هذا الجد كله قوي متين، لا يخلو من جلال ورصانة.

ولم يكن الوليد شاعرًا فحسب، وكأنه كان يتصرف في النثر تصرفا حسنًا، فقد روي لن أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها، ولكني أتردد (وأظن أني محق) في نسبة هذه الرسائل إلى الوليد وإلى هشام، وأحسب أن مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما، ولست أشك في ذلك بالقياس إلى هشام، وأن أرجحه بالقياس إلى الوليد، ومهما يكن من شيء فإن معاني هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلا لا بأس به. ثم كان الوليد مع هذا عالمًا بأيام العرب وأحداثها، وبأشياء أخرى كثيرة، وأحسب أن اتصاله بالموالي من الفرس قد علمه شيئًا كثيرًا، والرواة يروون أنه أخذ عنهم الزندقة، ومال معهم إلى مذهب "ماني"، وليس من شك في أنه كان يلم باصطلاحات حديثة: علمية أو فلسفية، ظهرت في شعره عندما وصف الخمر، كما ظهرت في شعر أبي نواس، ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبي نواس ليس بالقليل، كان الوليد أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة، وذلك ظاهر جلي في شعره، فعلي هذا اشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك، بينما أبو نواس في لهوه ومجونه حضريا، قدرق حتى كاد رقة وخفة.

ولنختصر، فللوليد شخصيتان: شخصيته السياسية التاريخية، التي حدثتك عنها في أول هذا الفصل، وهذه الشخصية إن لم تكن جذابة خلابة، فليست منفرة ولا بغيضة، وهي لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره من الخلفاء ا لأمويين والعباسيين، الذين يذكرون بالخير، ولعلهم ليسوا أقل إثما من الوليد. وشخصيته الأدبية: شخصيته من حيث هو شاعر. وأحسب أني قد رسمتها لك رسما إلا يكن صادقا كل الصدق، فليس بعيدا عن الحق، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعرًا ظريفًا، جذابًا خفيف الروح. ولكني أريد أن أثبت كل هذه الصفات التي قدمتها، ولا بد لذلك من أن ننتقل إلى طائفة من شعره؛ فليكن ذلك في الفصل الآتي.

مطيع بن إياس [1]

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد، لأني وعدتك في الأسبوع الماضي أن أستأنف الحديث فيه، ولكن بدا لي، فسأحدثك عن شاعر آخر، ولست أكره إخلاف هذا الوعد؛ فمن اليسير عليك، ومن الخير لك ولي، وإذا أردت أن تتعرف شعر الوليد، وتثبت صحة تلك الصورة التي رسمتها لك من شخصيته، أن ترجع إلى كتاب الأغاني، وما روي فيه أبو الفرج من شعر الوليد، ففي ذلك مقنع لك، وفي ذلك فائدة أعظم وأجدي من الفائدة التي تجنيها لو أني رويت لك طرفًا من شعر الوليد في هذا الحديث، ومن يدري! لعلك إن رجعت إلى أخبار الوليد وأشعاره في الأغاني صححت بعض ما قد أكون تورطت فيه من خطأ، ومهما يكن من شيء، فإن رجوعك إلى الأغاني بعد أن قرأت حديثي عن الوليد، أنفع لك، وأجدى عليك من قراءة حديث آخر، ليس لي فيه إلا رواية وتحليل. وذلك في الوقت نفسه ينفعني، فأنا أريد أن أتحدث إليك مسرعًا عن طائفة من الشعراء، تصل بينهم وبين الوليد وأبو نواس صلة متينة قوية، هي صلة الخلاعة والمجون والشك، والإعراض عما ألف الناس، أريد أن أتحدث إليك في هؤلاء الشعراء، لا لأني أوثر هزلهم وخلاعتهم على جدد غيرهم، ولا لأني أشر بأنك تؤثر، الخلاعة والهزل على الجد، فأحاول أن أرضيك وأسليك، بل لأني أرى في الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون في ذلك العصر، نوعًا من الجد عظيم الخطر، يمكننا من أن نفهم عصرًا من العصور الإسلامية كما ينبغي أن نفهمه، ويمكننا من أن نحكم على هذا العصر حكما ملائما للحق، مقاربا للصواب، وليس هذا بالشيء اليسير، وليس هذا بالشيء الذي يزدريه الباحثون. ولعلك لم تنس بعد أني لم أكد أعرض لأبي نواس في السنة الماضية، حتى سخط ناس كثيرون في مصر، وفي غير مصر؛ سخط قوم، لأن في شعر أبي نواس وأمثاله مخالفة للأخلاق، ونبواً عن الدين، وسخط قوم آخرون، لأنهم زعموا أني أسيء إلى العرب، وأتهمهم بما ليس فيهم، واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياسًا لحياة العصري الذي عاش فيه، فأعمم حين يجب التخصيص، وأسرف في التعميم حين يجب الاحتياط والدقة، لعلك لم تنس هذا بعد، ولعلك تعلم أن الذين يُعْنَوْنَ بالبحث الأدبي والتاريخي عناية صادقة، إذا خطر لهم رأي، وظهر لهم أنه الحق، فآمنوا به، واطمأنوا إليه، لم يسهل عليهم أن يتركوه أو ينصرفوا عنه، حتى

---

(١) نشرت بالسياسة في ٥ رمضان سنة ١٣٤٢- ٩ أبريل سنة ١٩٢٤.

يثبتوا لأنفسهم وللناس أنه الحق، وهم يشتدون في ذلك، ويحرصون عليه حرصًا ليس فوقه حرص، وأنا من هؤلاء الناس، حاولت أن أبحث عن أبي نواس، فخطر في أنه كان شاعرًا شاكًا ماجنًا، وأن هذا الشك والمجون لم يكونا مقصورين عليه، بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر، فتتبعت هذا الرأي،وجعلت ادرسه وأمتحنه، وجعلت كلما أمعنت في هذا الدرس والامتحان، ازددت إيمانًا بهذا الرأي، واطمئنانًا إليه. ثم انتقلت منه إلى رأي آخر أوسع منه وأشمل، فاعتقدت وما زلت أعتقد أن القرن الثاني للهجرة، على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك، والمشغوفين بالجد، إنما كان عصر شك ومجون، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة، والعادات الموروثة، والدين أيضًا.

رأيت هذا الرأي، وذهبت أثبته بالأدلة المختلفة، والحجج المتباينة، في أثناء بحثي عن أبي نواس، ولكني لا أكتفي الآن بإثبات هذا الرأي، ولا بأن أقيم عليه الأدلة النظرية استمدها مرة من انتقال العرب من حال إلى حال، ومرة من اختلاطهم بالأمة الفارسية، ومرة من طبيعة الحضارة والترف، ومرة من ظهور العلم، ونقل الفلسفة، لا أكتفي بهذا كله، وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المجون، تشخيصًا لا يجعل إلى الشك فيها سبيلا، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء المسرفين في المجون، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد، فقد كان الناس جميعًا على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعتهم يحبونهم، ويميلون إليهم، ويتفكهون بما يوصفون به من ظرف، وما يروي عنهم من هز ومجون، وإذا كان هؤلاء الشعراء وأصحابهم من حرية الرأي، ومن الإسراف في حب اللذة، والتهالك عليها، سرا وجهرًا، بهذا الحد الذي بينته وسأبينه في هذه الفصول، وإذا كان الناس بهم معجبين، وعنهم راضين، أقول إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندي شك في أن هذا العصر الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء، وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم، لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته، إنما كان عصر شك واستخفاف، وعصر مجون واستهتار باللذات، ولم لا يكون كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيئان، كلاهما خطر على حياة السذاجة والقناعة: أحدهما العقل، أريد العقل الفلسفي، الذي يتدخل في كل شيء بالنقد والتحليل. وبالنفي والإثبات، ولا يريد أن يقف من ذلك عند حدث، وإما يريد إذا بدأ البحث أن يستقصيه، وهو في أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء يهدم ما يعرض في طريقه من آثار الوارثة، والثاني الحضارة وما تستتبعه من نَعْمه ولذة وترف، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم؛ فأما الفلسفي فَمِعْوَلٌ يهدم القديم في الحياة المادية على اختلاف فروعها. ومن زعم أن العرب لم يتأثروا في القرن الثاني للهجرة بهذين الخطرين. فهو مسرف كل الإسراف بعيد عن الحق كل البعد.

ليس غريبا إذن إن يظهر في هذا العصر الوليد بن يزيد، ومطيع بن إياس، ويحي بن زياد،وحماد عجرد، وابن المقفع، ووالبة بن الحباب، وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم في شكهم ومجونهم، وفي لهوهم وعبثهم، ليس غريبا أن يظهر الناس في ذلك العصر، وإنما الغريب أن نخلو منهم ذلك العصر، ولا يظهر فيه إلا الفقهاء، والنساك وأصحاب والزهد والتقى.

نحن إذًا مضطرون إلى أن نأخذ هذا العصر كما هو، وإلى أن نصطنع من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر إليه في جملته وفي تفصيله، لا مشفقين ولا مترددين، ولا كالنعامة التي يأتيها الخطر، فتخفي رأسها كي لا تراه، ويخيل إليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر... فمهما ننكر ظهور الشك والمجون وأصحابهما في هذا العصر، وتغلب هذا الشك والمجون على نفوس المستنيرين من أهله، فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عصرًا ظهر فيه الشك والمجون، واستأثرا بعقول الكثرة المستنيرة من أهله، حتى بعض الفقهاء. وأصحاب الكلام. سيقولون: وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان عصر شك أو عصر يقين؟ وما يضرنا أن نجهل ذلك؟ ولست أرى على ذلك جوابا معقولا، وأي جواب معقول تستطيع أ، توجهه إلى من يسألك ما نفع العلم؟ وما ضرر الجهل؟ وما فائدة الصواب؟ وما مضره الخطأ سيقولون: ولكنك سيء الاختيار، رديء الذوق؛ فما أنت وأصحاب الشك والمجون تحدثنا عنهم في شهر الصوم، تروي لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم في ألوان الهزل؟ وهلا أجلت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم! ولاه اكتفيت في هذه ا لأيام التي ينصرف فيها الناس إلى الطاعة والتقوى بالتحدث إليهم في أخبار الزهاد والناسكين، وفي مناقب الوعاظ والصالحين! نعم! سيقولون هذا. ومن يدري! لعلي إنما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم لأرفه على هؤلاء الصائمين، وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلا، وأي إثم في ذلك! وأي جناح فيه!

زعموا أن ناسًا سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر، أينقض الوضوء؟ فأنشد ابن عباس شعرًا لا أستطيع أن أرويه، ثم نهض فصلى. وزعموا أن ناسًا سألوا عن شيء كهذا أحد الفقهاء المحدِّثين، وأحسبه سعيد بن المسيب، فأنشد:

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

لم يتحرج ابن عباس، ولم يتحرج ابن المسيب، ولم يتحرج غيرهما من الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة، جدها وهزلها. فما لنا نتحرج الآن! أليس هذا التحرج نفسه مظهرا من مظاهر الضعف،ولين العقيدة، واضطراب اليقين! إن المؤمن حقًا ألمتدين حقا، المخلف في نسكه وعبادته، لا يخشى على إيمانه، ولا على دينه، ولا على زهده وعبادته شعر مطيع وأصحاب مطيع، وإنما يخشى هذا الشعر من يحس من نفسه الضعف، ويريد أن يتقيه،

ويتجنب أسبابه والمغريات به. وإذا أحس الرجل من نفسه ضعفا في مثل هذه الأشياء، فاروا له ما شيت من شعر، أو أكفف عن رواية هذا الشعر له، فما أنت بنافعه ولا ضاره.

على أني قلت إنا نبحث بحثا علميا، لا نريد به أن نرضي الناس، ولا أن نسلي عنهم، وإنما نريد أن نفيد، وأن نستفيد. وأرى أني قد أسرفت في هذه المقدمة إن كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة، ولم أتحدث إليك بعد في مطيع، ومع ذلك فهو خليق بأن أتحدث إليك فيه، وأن أطيل الحديث.

كنت أذكر لك في الحديث الماضي صدق الوليد بن يزيد، وخفة روحه في الشعر، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع بن إياس،إذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة، وخفة الروح، وحلاوة الدعابة، وجمال اللفظ! الفرق بين الشاعرين عظيم. وربما كان من العسير جدًا أن تجد شاعرا مجيدًا أو غير مجيد يبلغ ما بلغه مطيع من صدق اللهجة، وخفة الروح، حتى أبو نواس وأنت تعلم رأيي في أبي نواس. نعم! مطيع أبن إياس أصدق لهجة من أبي نواس ومن الوليد، وأخف روحًا منهما، وتفسير ذلك يسير، فقد كان الوليد كما عرفت مضطهدًا أيام ولايته للعهد، وكثير الخصوم أيام خلافته، فكان في لهوه ومجونه في هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة، ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم، فكان ذلك ربما دفعه إلى شيء من الإسراف في القول،والإمعان في التحدي، وتجاوز طبيعته أحيانًا، ليغيظ خصومه ومضطهديه وكان أبو نواس شاعرا مجيدا، ومستأثرا في عصره بالإجادة المطردة، وكان قد اتخذ المجون مذهبا، وكان قد أعلن ذلك،وأسرف فيه، وكان له حساد وخصوم ومضطهدون، فكان كالوليد، يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم، ويسرف في القول إسرافًا متعمدًا، يريد أ، يغيظ الفقهاء والمتكلمين، ويهزل ويسف في اللفظ، يريد أن يغيظ النحاة واللغويين، لم يكن يخشى إلا الخلفاء، أو أقل لم يكن يخشى من الخلفاء إلا الرشيد، فكان يحتاط أمام الرشيد.

بينما الوليد يسرف في القول، ليتحدى خصومه السياسيين، وبينما كان أبو نواس يسرف في القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء، كان مطيع لا يسرف في القول، وأنه لم يكن مضطهدًا ولا معرضا لخطر.

ستقول: وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد؟ وكيف برئ من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفا ماجنا، ملحا في الفسق، متهما في دينه، يوصف بالزندقة؟

فأقول: بل كان مطيع شرا من هذا أيضا في النصف الثاني من حياته؛ فقد كان بينه وبين الأمويين صلة: مدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك، ونادم الوليد بن يزيد، ومدح أبوه واليًا من ولاة بني أمية، ومدح هو رجلا من ولد خالد القسري، وكثيرا ما كان يذكر بالخيرا أيام بني أمية، ويكره أيام بني العباس،فكان من المعقول جدا أن يراع من الوجهة الدينية، وكلنه مع ذلك لم يرع إلا مرة أو مرتين، خرج منهما آمنا مسرورا، موفور الحظ من العطاء أيضا. تريد أن تفهم هذا، وأنا أيضا أريد أن أفهمه، وأعتقد أن تعليمك هذا سيصور لك مطيعا وشخصيته ورأيه في الحياة والناس وأحسن تصوير وأصدقه، كان مطيع يزدري الناس، وكان يزدري الحياة. ويسخر من هذه،كما كان يسخر من هؤلاء، وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة إلى اللذة، وإلى اللذة التي لا حد لها؛ فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم، وكان يتقلب مع الحياة في صورها المختلفة، كان أمويا أيام بني أمية، لم يكره حين مثل بن يدي الوليد، فسأله عن شعر أعجب به لمن هو؟ لم يكره أن يجيب: "عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين". قالوا" فاستدناه الوليد وقبل فاه وبين عينيه، وهَوَى هو، فقبل الأرض بين يديه، وكان عباسا حين ثبت الله الملك لبني العباس، ولم يكن عباسيا معتدلا ولا هادئا، بل قل لم يكن عباسيا متطرفا، لأنه لم يكن مقتنعا بشيء، وإنما كان يريد أن يعيش ويلذ، وكان يجد الحياة واللذة عند بني العباس، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئًا إلا هذه الحياة وهذه اللذة! فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس! وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الذليل فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس! وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الذليل الخانع، وإنما كان يتملقهم، ساخرا منهم، مزدريا لهم، بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطرا. قالوا:أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لأبنه المهدي، وكان ابنه جعفر يعترض عليه في ذلك؛ فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا، وتكلم الخطباء والشعراء، كلهم يمدح المهدي، ويبين فضله، حتى إذا غرفوا أقبل مطيع على لمنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثني فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: المهدي منا محمد بن عبد الله، وأمه من حمير، يملؤها عدلا كما ملئت جورًا: وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك، ثم أقبل على العباس، فقال له: أُنشدُك الله! هل سمعت هذا؟ فقال: نعم، مخافة من المنصور، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدي. أفترى إليه أحسن شهوة المنصور في أن يبايع لابنه المهدي، وعزمه على ذلك، فأراد أن يرضي المنصور ووالي عهد، فوضع هذا الحديث وضعا، ولم يتكلف بالكذب على النبي، حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق، فشهد خوفا من أخيه. ولا تقل إنه فعل هذا ذلة أو إسرافا في التملق، ولكن قل إنه فعل هذا ترضيا للخليفة وولي العهد، وازدراء لهما، وسخرية من الدين، وقد عرف المهدي له هذه الصنيعة؛ فأنت تعلم أن المهدي كان شديدا على الزنادقة، أسرف في قتلهم والفتك بهم، وتجاوز في ذلك حدود العدل والرحمة، وهو مع ذلك لم يرع مطيعا. بلى! راعه مرة،ولكنه أخرجه من عنده موفورًا له الحظ من العطاء،. قالوا: كان مطيع ينادم جعفر بن

المنصور، واشتهر ذلك، واشتهر مجون جعفر وتهتكه، ورفع أصحاب الخير ذلك إلى المنصور، وكان المهدي عنده، فقال لأبيه: أنا به عارف، ليس زنديقا، ولكنه خبيث الدين فاسق، فقال له المنصور: أحضره فانهه، فأحضره المهدي، ولمه وعنفه، وأمر أن يضربه مائتي سوط، قال مطيع: إن أذنت لي احتججت، فإذن له، فقال أنا شاعر، وإنما ينفق شعري عند الملوك، وقد كسدة عندكم؛ واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك، وأصفيته على ذلك شعري وشكي، فإن رأيت أن في ذلك سواء تبت عنه، ومضى الحديث على نحو ذلك، حتى رق المهدي، فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يحبس. قال: فانصرف بغير جائزة؟ قال المهدي: لا يجوز هذا، وأمر له بمئتي دينار، خفية عن أمير المؤمنين. قال الرواة وكان المهدي يحفظ له أنه وضع الحديث يوم أراد المنصور البيعة له.

أعتقد أنا أن هاتين القصيدتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويرا صحيحا. فيخيل إلى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء. وانتهى إلى السخرية والازدراء للناس وللحياة، واتخاذ الناس والحياة وسيلة إلى الشيء الوحيد، الذي يستحق أن يعيش الناس من أجله، وهو اللذة، ومن هنا تملق المنصور، في سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضا، ومن هنا تلطف للمهدي، حتى ابتز منه جائزة. وخرج من عند موفورًا. أضف إلى هذا أن مطيعا اتصل أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه، وكان محتميًا به، فلم يمسه أذى.

كل هذا يبن لك ما زعمته آنفًا من أن مطيعا لم ين مضطهدًا، لا من الوجهة السياسية، ولا من الوجهة الدينية، وإنما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه في ذلك احتياطا يسيرًا، فيأمن كل شر. ولقد كثير تحدث الناس في عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه، وعن إفسادهم أخلاق الناس وأديانهم،ولست أنكر على هذا نحو ما أنكرت ما كان ينسب إلى الوليد بن يزيد، فقد بينت أن حياة الوليد كلها كانت تدعو إلى الاحتياط، في تصديق ما كان ينسب إليه، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء، ولم يكونوا ولاة عهد، ولم يكونوا محسودين إلى حد عظيم، وإذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم، أو لم يسرفوا في هذا التكلف، وما أشك في أن حياة هؤلاء النفر، الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال، ما أشك في أن حياتهم كانت تدعو إلى الريب والاتهام، فكثيرا ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه، وكثيرا ما كانت تجري على ألسنتهم لألفاظ ينكرها الدين، وينكرها الخلق، ولكني مع ذلك أعتقد أن شيئا من الاحتياط واجب في تصديق كل ما ينسب إلى مطيع وأصحابه، فالناس مشغوفون بالإسراف أبدًا، لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الإلحاد، حتى يتطوعوا هم بإثبات زندقته وإلحاده، يخترعون على ذلك الأدلة، وينتحلون الحجج، ويروون الوقائع، يزعمون أنهم رأوها وما رأوها، وإنما يخدعون الناس، أو يخدعون

أنفسهم. وهذا الإسراف كثير في شأن مطيع وأصحابه، ولكني لا أنكر المثل القائل: "لا دخان بلا نار" فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو إلى القال والقيل، لما قال فيهم الناس شيئا.

قلت: كان مطيع صادق اللهجة في شعره، لا يكذب ولا يتكلف، وعللت صدق لهجته بأنه كان حر الرأي، وأنه كان حر الرأي، لأنه كان يزدري الناس والحياة، ولست أريد أن أغفل شيئا رواه أبو الفرج وهو يمثل رأي مطيع في الناس، وهو يبين لنا مقدار ازدرائه للناس، وسوء ظنه بهم. زعموا أنه مر بصديقيه يحيى بن زياد، وحماد عجرد وهما يتحدثان، فقال: فيما أنت؟ قالا: في قذف المحصنات. قال: وهل في الأرض محصنة تقذفانها؟! فانظر إليه كيف فاق صاحبيه بغيا وسوء ظن بالناس! كان صاحباه يقذفان المحصنات ويعترفان بأنهما يقذفان المحصنات، أما هو فلا يرى أن في الأرض محصنة، وإذن فليس هناك قذف، وإنما كل قذف هو الحق،أو دون الحق. وإذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم إلى حد، فما الذي يمنعه أن يكون حرا فيما يعمل وما يقول، لا يتقي إلا شيئا واحدا، هو ما يعرضه للموت، أو للحرمان! وإذا كان قد احتاط فأرضي السلطان، وأمن شره فليس عليه بأس في شيء آخر. على أن ازدراء مطيع للناس لم يكن شاملا؛ فقد كان يستثني من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه وأخدانه، ومن أشد الأشياء تأثيرًا في النفس هذه الصلة المتينة، التي كانت بينه وبين صديقه يحي بن زياد، والتي حرصت عليها حرصا شديدا، يستثير في النفس عاطفة مؤثرة حقا. قالوا: شرب مطيع مع صديقة يحيى، فعربد عليه، وكانت بينهما ملاحاة، فآذى مطيع صاحبه؛ فخلف لا يكلمه أبدًا، ولم يستطع مطيع أن يصبر على هذا الهجر، فكتب إلى صديقة هذه الأبيات العذبة التي تفيض حنانا ورقة، والتي لا تخلو من شرف اللفظ، وجمال الأسلوب:

إن تضلني فمثلك اليوم يرجي ... عفوه الذنب عن أخيه ووصله
ولئن كمنت قد هممت بهجري ... للذي قد فعلت إني لأهله
وأحق الرجال أن يغفر الذنـ ... ـب لإخوانه الموفر عقله
الكريم الذي له الحسب الثا ... بت في قومه ومن طاب أصله
ولئن كنت لا تصاحب إلا ... صاحبا لا تزل ما عاش نعله
لم تجده وإن جهدت وإني ... للذي لا يكاد يوجد مثله
إنما صاحبي الذي يغفر الذنـ ... ـب ويكفيه من أخيه أقله
الذي يحفظ القديم من العهـ ... ـد وإن زل صاحب قل عذله
ورعي ما مضي من العهد منه ... حين يؤذي من الجهالة جهلة
ليس من يظهر المودة إفكا ... وإذا قال خالف القول فعله
وصلة للصديق يوم فإن طا ... ل فيومان ثم ينبت حبله

وكتب إليه:

كنت ويحيي كيدي واحد ... جرمي جميعا وترينا معا
إن عضني الدهر فقد عضه ... يوجعنا ما بعضنا أوجعا
أو نام نامت أعين أربع ... منا وإن أسهر فلن يهجعا
يسرني الدهر إذا سره ... وإن رماه فلنا فجعا
حتى إذا ما الشيب في مفرقي ... لاح وفي عارضه أسرعا
سعى وشاة فمشوا بيننا ... وكاد حبل الود أن يقطعا
فلم ألم يحيي على فعله ... ولم أقل مل ولا ضيعا
لكن أعداء لنا لم يكن ... شيطانهم يروي بنا مطمعا
بينا كذا عاث على غرة ... فأوقد النيران مستجمعا
فلم يزل يوقدها دائبا ... حتى إذا ما اضطرمت أقلعا

وانظر إلى هذا الشعر يرثي به يحيى هذا:

قد مضى يحيى وغودرت فردا ... نصب ما سر عيون الأعادي
وأرى عيني مذ غاب يحيي ... بدلت من نومها بالسهاد
وسدته الكف مني ترابا ... ولقد أرثى له من أوساد
بين جيران أقاموا صموتا ... لا يحيرون جواب المنادي
أيها المزن الذي جاد حتى ... أعشبت منه متون البوادي
أسق قبرا فيه يحيي فإني ... لك بالشكر مواف مغادي

كان يحيى صديقا لمطيع في الخير والشر صديقا حقا، وكان لمطيع صديق آخر، ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو، كانت صداقة ضاحكة، صداقة مزاح ولهو وسخرية، ذلك هو حماد عجرد، فسنرى يوم نعرض لهذا الشاعر أنه كان غضوبا ضيق الذرع، وكان أصحابه يعرفون منه ذلك، فلا يرقون له، ولا يرفقون به، وكان حماد أصلع، وكانت صلعته شديدة الحمرة، فانتهز ذلك صديقة مطيع، وأفسد بينه وبين صاحبه له تسمى خشة، وتُعرف بظبية الوادي، فساءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه، واتصل بينهما هجاء لذاع، ولكنه لذيذ، لم يمنع اتصال المودة بينهما، ولست أروي لك منه شيئا، وقد تستطيع أن تجده في الأغاني.

وأنا مضطر إلى أن أعدل عن شعر مطيع كله، لضيق المكان، وطول هذا الفصل، ولكني لا أستطيع أن أغفل هذه الأبيات المشهورة، التي تمثل شعر مطيع ونفسه وعواطفه تمثيلا صادقا، أحسه القدماء، فرقوا له، وكلفوا به، وقد قال هذه الأبيات في جارة به أحبها بالري، ثم اضطر ففارقها، فلما كان في طريقة مر بعقبة حلوان، فجلس يستريح إلى نخلتين هناك، وذلك صاحبته، فقال:

أسعداني يا نخلتي حلوان ... وابكيالي من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبة لم يزل يفـ ... ـرق بين الأُلاف والجيران
ولعمري لو ذقتما ألم الفر ... قة أبكاكما الذي أبكاني
أسعداني وأيقنا أن نحسا ... سوف يلقاكما فتفترقان
كم رمتني صروف هذي الليالي ... بفراق الأحباب والخلان
غير أني لم تلق نفسي كما لا ... قيت من فرقة ابنه الدهقان
جارة لي بالري تذهب همي ... وتسلي ذنوبها أحزاني
فجعتني الأيام أغبط ما كنـ ... ـت بصدع للبين غير مداني
وبرغمي أن أصبحت لا تراها الـ ... ـعين مني وأصبحت لا تراني
إن تكن ودعت فقد تركت بي ... لهبا في الضمير ليس بواني
كحريق الضرام في قصب الغا ... ب رمته ريحان تختلفان

وقد جعلت هذه الأبيات لنخلتي حلوان تاريخا وذكرى بين الأدباء والشعراء. قالوا: أراد المنصور أن يقطعها، فلما انشد هذا الشعر كره أن يكون النحس الذي يفرق بينهما. وأراد المهدي أن يقطعهما، فنهاه المنصور عن ذلك. قالوا: ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب إلى طوس، فهاج به الدم، ووصف له الطبيب جمارا، فلما سئل الدهقان أشار إلى النخلتين، ولم يكن في حلوان غيرهما، فقطعت إحداهما، ثم مر الرشيد بالأخرى، فرأى عليها هذه الأبيات، فندم وقال: لو علمت أن هذه الأبيات قيلت في هاتين النخلتين ما عرضت لهما، ولو قتلني الدم.

وإذا صح ما تحدث به الرواة، فقد كان موت مطيع شعرا لا يعدله شعر. قالوا: سأله الطبيب في علته التي مات فيها: ماذا تشتهي اليوم؟ فأجاب أشتهي ألا أموت؛ أترى جوابا أكثر شعرا، وأغزر معنى، وأشد تمثيلا لضعف الإنسان، وقوة رغبته في الحياة، من هذا الجواب؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكما جامعا مختصرا بعد هذا التفصيل، لما تجاوزنا حكم أبي الفرج عليه حيث يقول:

"هو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وليس من فحول الشعراء، ولكنه كان ظريفا، خليعا، حلو العشرة، مليح النادرة، ماجنا، متهما في دينه بالزندقة". ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئا، لقلنا إنه كان صادقا في شعره، آخذا بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها.

obeikandl.com

حماد عجرد [1]

"كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون: حماد عجرد، وحماد الرواية، وحماد بن الزبرقان، يتنادمون على الشرابت، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون معاشرة جميلة، وكانوا كأنهم نفس واحدة، يرمون بالزندقة جميعا، وأشهرهم بها حماد عجرد. "الأغاني جزء ٥ صفحة ١٦٦ طبع بلاق".

وتجد مثل هذا الكلام كثيرا في كتاب الأغاني، تجده إذا عرض أبو الفرج لمطيع بن إياس، وتجده إذا عرض لغير مطيع بن إياس، وتجد مثل هذا الكلام كثيرا في كتب أخرى غير الأغاني، لكتاب ورواة آخرين غير أبي فراج، إذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين، الذين عاشوا في النصل الأول للقرن الثاني من الهجرة، وتجد في الأغاني وغير الأغاني كلاما كثيرا عن شعراء عابثين في المدن الثلاث، التي كانت أمصارا متقدمة للعالم الإسلامي أيام بني العباس، وهي الكوفة والبصرة، وبغداد، ولا تكاد تجد شيئا من ذلك عن دمشق، ولا عن مصر، فإن وجدة ذكرا للزندقة والزنادقة، وللعبث والعابثين آخر أيام بني أمية، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العبث والمجون، إنما حملت كلها من العراق إلى الشام، بأمر إذن عراقية لأنها فارسية، نعم! إنك تجد في الأغاني وغير الأغاني أن الوليد بن يزيد عبث ومجن،وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية وندامي من العابثين وأهل المجون، فالتمسهم في الشام، فلم يجدهم، وسأل عنهم، فدله ا لناس على قوم في العراق، دلوه على هذين "الحمادين" حماد عجرد، وحماد الرواية، دلوه على مطيع بن إياس، وكانوا في الكوفة، فأرسل يطلب إشخاصهم إليه، فأشخصوا، فاتخذهم ندامى له، حتى قتل فعادوا إلى أوطانهم. وتجد في كتب الأدب كلها أو أكثرها ذكرا لطائفة من العابثين، وأهل المجون المسرفين فيه، ظهروا أيام بني أمية، وأيام كان بنوا أمية حازمين منصرفين إلى الجد، ظهروا في الحجاز، في مكة وفي المدينة بنوع خاص، ولكنك إذا بحثت عن مجون هؤلاء، وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث، ويتهمون به في دينهم وسيرتهم، انتهيت إلى نتيجتين: نجملهما الآن، ونفصلهما يوم نعرض للعابثين من أهل الحجاز. الأولى: أن مصدر هذا العبث صبغة عربية، تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد، لأن زعماء العابثين في المدينتين المقدستين كانوا من أشراف العرب، الذي اضطرتهم الحياة السياسية أيام بني أمية إلى

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣- ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤.

أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة، ففرغوا لأنفسهم، وكان الله قد أفاء على آبائهم كثيرا من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح، وكان الخلفاء من بني أمية يعرفون لهم أقدارهم، ويمسكونهم في هاتين المدينتين، بعيدين عن السياسة، لا يقطعون عنهم الأرزاق والجوائز، وإنما يدرونها عليهم إدرارا، فكانوا يلهون يعبثون، ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة، مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالي، من الفرس وأهل العراق.

مهما تبحث إذن عن أصل العبث والمجون والزندقة في الإسلام، فلن تستطيع أن تعدو الفرس، وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس، وكانوا بهم أشد اتصالا، وقد تجد شيئا غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة، وإباحة هؤلاء الشعراء، ولكن هذا التأثير عرضي لا جوهري، إن صح هذا التعبير؛ فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية، يزينون بها شعرهم وزندقتهم، ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية، ولم تتأثر بها حياتهم وعواطفهم تأثرا قويا. على أن زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذي ازدهرت فيه الفلسفة اليونانية في بغداد وغيرهما من أمصار المسلمين؛ فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحي بن زيد، فإن أيام هؤلاء قبل عصر المأمون، وقبل أن يصبح البدع في بغداد ترجمة الكتب اليونانية، دروس الفلسفة اليونانية. ولو أني أردت أن أشخص زندقة القرن الثاني الهجري تشخيصا، إن لم يكن علميا دقيقا فهو يقربها من الأذهان تقريبا لا بأس به – أقول: لو أني أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصا أدبيا، لقلت: إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم وبدينهم بنوع خاص، هي ضرب من هذا السخط، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم، وما ذاع فيهم من عقيدة دينية، وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا يكرهون الإسلام ليستبدلوا منه دينا آخر يؤمنون به، ويطمئنون إليه حقا، وإنما كانوا يكرهون الإسلام، وكان كرههم للإسلام يضطرهم إلى أن يحبوا غيره من العقائد الدينية. فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة إلى النعي على الإسلام، والتخلص من قيوده، وما أخذ الناس به من واجبات، لم يكونوا يؤثرون على الإسلام النصرانية، ولا اليهودية؛ لأن الفرس لم يكونوا نصارى، ولم يكونوا من اليهود، ثم لم يكونوا يؤثرون على الإسلام الديانة الفارسية القديمة، الخالصة من بدع المبتدعين، وإنما كانوا يؤثرون من هذه العقائد الفارسية ضروبا من البدع، تدعو إلى إباحة واللذة، ونرغب فيهما، وتعين عليهما، كانوا إذن يطمحون قبل كل شيء إلى أن يستمتعوا باللذات في غير حسان ولا تقتير. ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم الحياة، لما أنكروا من الإسلام شيئا، ولاسيما هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية، ولا يريدون أن يثأروا للفرس من العرب، ولكن الإسلام كغيرة من الديانات السماوية شديد في باب اللذة، حريص على تطهير الأخلاق، وأخذ الناس بالطهر

والنقاء- في سيرتهم الخاصة والعامة، وهذا يناقض الإباحة والإسلام في اللذة، ويأخذ عليهما الطريق. فإذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول الإسلام، فيستمتع بلذته في غير حرج ولا جناح، فهو مضطر بحكم الطبيعة الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه، ويلتمس الحجج والأدلة، أو التعلات والمعاذير، يحسن بها سيرته، وقد فعل ذلك هؤلاء العابثون، فوجدوا ما كانوا يحتاجون إليه في حياة الفرس، وما شاع فيهم من البدع، واستحالوا إلى شيء آخر أكثر من نصر اللذة، هو التعصب على الإسلام، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط في الاستمتاع باللذات، ومن هنا هاجموا أصول الديانات، وسخروا مها، ومن هنا آثروا النار التي يعبدها الفرس، ويردون إليها كل شيء، على الطين، الذي ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان، ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامي، وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث، وإنما يحفلون باللذات، فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضا. ولهم من الحياة السياسية في ذلك العصر معين على الإسراف في الإلحاد والعبث؛ فهو عصر انتصار الفرس على العرب، وهو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين، يتعززون بالفرس، ويتملقونهم، ويؤثرونهم بالحُظوة، ويكلون إليهم أمور الدولة كلها، فم الذي يمنع الفارسية وأنصارها، الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والإسراف في المجون، أن تنتصر وتسود، وتظهر جهرة غير مستخفية ولا محتاطة! من هذا كله نفهم مميزات هذه الزندقة الأدبية، التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة، واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعا. كانت عصر بني أمية ضعيفة مترددة متسترة، لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمي على أن يجهر بالفجور، قويت واستطاعت أن تظهر، ثم انتصر الفرس، فانتصرت معهم، وظهرت واضحة قوية، حتى عرضت الحياة الدينية والسياسية للخطر؛ فاضطر الخلفاء من بني العباس إلى أن يقاومها مقاومة عنيفة، لم تخل في بعض الأحيان من ظلم وإسراف.

كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة، أو هؤلاء الذين كانوا يتهمون في دينهم، وكانت لهؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم، في الكوفة والبصرة، ثم في بغداد، ولم تكن هذه الأندية مستقرة ولا معروفة، وإنما كانت متنقلة مع الزعماء. فهم كانوا يجتمعون في دورهم، وهم كانوا يجتمعون في الأديار، وهم كانوا يجتمعون في البساتين وا لحانات، وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشراب والغناء، والعبث بالنساء والغلمان، يسرفون في ذلك إسرافا لا يعدله إسراف، ويسخرون في أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية التي تحظر عليهم ذلك، وتعرضهم من أجله لألوان العذاب، هل كانوا يجتمعون على ضرب من ضروب العبادة المنكرة، أو فن من فنون الديانات الغريبة، أو لون من ألوان الدرس الفلسفي غير المألوف؟ ذلك شيء أشك فيه بالقياس إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والأدباء، بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة لم تكن تحفل بشيء من هذا؛ لأني قد قلت لك إنها لم تكن

مخلصة في الإيمان بمذهب من المذاهب، ولا في إيثار دين على دين، وإنما كانت تتخذا المانَوِية شعارًا. ولو أنها أنصفت نفسها، وآثرت الصدق، لاتخذت شعارها الشك والسخرية، وليس من شك في أنهم كانوا يذكرون المانوية، ويؤثرونها على الإسلام، ولكن تَفِكهة وانتقاما من هذا الدين، الذي يسلط عليهم الشُّرك وغضب الأمراء.

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم، وإن كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة، وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضا، فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالا قويا، إذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم. وليس أدل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين في زندقتهم؛ فلو أن هناك صلة دينية متينة، تجمع بينهم حقًا، وتكوِّن منهم أقلية ممتازة متضامنة، لما أساء بعضهم على بعض السلطان، ولكنهم كانوا يسرفون في الإساءة إلى أنفسهم، وإلى أصحابهم، ويكفي أن تقرأ ما بين بشار وحماد من ا لخصومة، واتصال بالهجاء، لتعلم مقدار هذا الاستعداء، ومقدار ما كان يضمر الزندقة بعضهم لبعض من المجودة والحفيظ، ومن الحقد والضغينة، التي كانت تحمل أحدهم على أن يغري بصاحبه إغراء منكرًا. وانظر إلى قول حماد يغري الأمير بخصمه بشار، فهو يمثل في وقت واحد إجادة حماد في الشعر،وميله إلى الشر، وإيثار الانتقام على كل شي:

قـــل لعيســـى بـــن عمـــر ... ذي المســـاعي العظـــام فـــي قحطـــان
والبنـــاء العـــالي الـــذي طـــال حتـــى ... قصـــرت دونـــه يـــدا كـــل بـــاني
يـــا بـــن عمـــر عمـــر المكـــارم والتقـــ ... ـــوى وعمـــر النـــدى وعمـــر ا لطعـــان
لـــك جـــار بالمصـــر لـــم يجعـــل اللـــ ... ـــه لـــه منـــك حرمـــة الجيـــران
لا يصـــلي ولا يصـــوم ولا يقـــ ... ـــرأ حرفـــا مـــن محكـــم القـــرآن
إنمـــا معـــدن الزنـــاة مـــن السفـــ ... ـــلة فـــي بتـــه ومـــأوى الزوانـــي
وهـــو خـــدن الصـــبيان وهـــو ابـــن سبعـــ ... ـــين فمـــاذا يهـــوي مـــن الصـــبيان؟
طهـــر المصـــر منـــه يأيهـــا المـــو ... لـــى المســـمى بالعـــدل والإحســـان
وتقـــرب بـــذاك فيـــه إلـــى اللـــ ... ـــه تفـــز منـــه فـــوز أهـــل الجنـــان
يـــا بـــن بـــرد اخســـأ إليـــك، فمثـــل الـــ ... ـــكلب فـــي النـــاس أنـــت لا الإنســـان
ولعمـــري لأنـــت شـــر مـــن الكلـــ ... ـــب وأولـــى منـــه بكـــل هـــوان

ولم يكن بشار أقل منه ميلا إلى الشر، ولا رغبة في الإساءة إلى خصمه، وفي اتخاذ الزندقة وسيلة إلى هذه الإساءة، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه طريقة الاستعداد هذه، ولعلهما لم يسرقاها، وإنما وجداها طريقة مألوفة بين الناس في ذلك العصر؛ فقد أشاع بشار عن

خصمه حماد هذه الشائعة المنكرة، التي أساءت إليه غير قليل،وهي أنه كان ذات يوم ينشد شعرًا، وإلى جانبه قارئ يتلو القرآن، والناس مجتمعون من حوله، فلما رأى حماد اجتماع الناس حول القارئ قال: علام يجتمعون؟ إن الذي أنشده لخير مما يتلو! وهجا بشار حمادً بأبيات فيها عليه الزندقة، فقال:

ابـــن نهبـــي رأس علـــى ثقيـــل واحتمـــال الـــرءوس خطـــب جليـــل
ادع غيـــري إلـــى عبـــادة الاثنيـــ ـــــن فـــــإني بواحـــــد مشـــــغول
يـا بـن نهبـي برئـت منـك إلـى اللـ ـــــه جهـــــارا وذاك منـــــي قليـــل

قال أبو الفرج: فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان (فإني بواحد مشغول): (فإني عن واحد مشغول) ليصحح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى، فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس، حتى انتهيت إلى بشار، فاضطرت منها وجزع، وهذا الخبر يمثل مكر حماد، واحتراس بشار، فقدن كان جماد ماكرًا شديد المكر، ماهرًا في الخصومة، يعرف كيف ينال من خصمه، وكيف يتنصر عليه،ن وكان بشار محترسًا شديد الاحتراس، يكره أن يوصف بالزندقة،ويشفق من ذلك إشفاقا شديدًا، وكان يرسل فضل زندقته إلى غيره، فيتهم الناس بما فه، ولهذا أكثر الإكثار كله حين هجا حمادًا بوصفه بالزندقة والكفر، وما كان حماد أكثر منه زندقة ولا كفرًا، وإنما كان الفرق بين الرجلين أن حمادًا كان مستهترًا، يجهر بمجونه، ولا يخفي عبثه وأن بشارًا كان محتاطًا متحفظًا، يتكلف الدين والورع، كلما احتاج إلى ذلك، ولم يخف أمر بشار على أحد، بل لقي من احتياطه وتحفظه ما لم يلق حماد من جهره واستهتاره؛ فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدي، والرواة يختلفون كما سترى في موت حماد، ولكنهم متفقون على أنه قضى حياته موقرًا، لم يجر عليه عبثه ومجونه أذى ولا شرًا. وفي كتاب الأغاني خبر يثبت ذلك إثباتًا لا شك فيه، وهو أن العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس في هجاء جماد عجرد لبشر شيء جيد إلا أربعين بيتًا معدودة، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد. وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة، وأظهرها عليه، وكانا يجتمعان عليها، فسقط حماد وتهتك، بفضل بلاغة بشار، وجودة معانية،وبقي بشار على حاله لم يسقط، وعرف مذهبه في الزندقة، فقتل فيه. ولعل في هذا الخبر شيئا من المبالغة؛ فهناك خبر آخر يدل على أن بشارًا لم ينتصر على حماد في الهجاء، وإنما الذي انتصر هو حماد، وإن لم يكن له من جيد الهجاء في بشار إلا أربعون بيتًا. فلسنا نرى في سيرة حماد أنه قد سقط، أو ازدراه الناس، وإنما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات. ونحن نذكر السلطان عمدًا، فقد كان لحماد شيء من السلطان الأدنى غير قليل، كان يخيف الشعراء، وكان يخيف الأمراء وكان يخيف كبار الناس. وكان يخيفهم؛ لأنه كان ماهرًا

في الهجاء، سريعا إليه، حديد اللسان فيه. وكان كما قلت لك في حديث الأربعاء الماضي شيء الخلق، سريع الغضب، مندفعا إلى الانتقال، وكان مع ذلك ماكرًا لطيف المكر؛ فكان الأمراء ووجوه الناس يحتاطون في معاملته،ن ويتلطفون له، ويبتغون ما يرضيه، ويتجنبون ما يسوءه، وربما اضطر أحدهم إلى شيء فأشفق أن يكره حماد، فاعتذر إليه، وبالغ في ا لاعتذار، وكان حماد يقبل العذر حينًا، ويرده حينًا آخر، وكان هو الفائز في كلتا الحالتين، فإن قبل العذر كوفئ لقبوله، وإن يولغ في ترضيه، ولقد خاف بعض الناس حمادًا، حتى اضطره ذلك إلى أن يقطع الصلاة، ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من أشراف البصرة، في نفر من وجوه الناس، وجاء الغداء، فقيل إن سهم بن عبد الحميد (أحد الحاضرين) يصلي الضحى، فانتظروا، وأطال صاحبنا الصلاة، فقال حماد:

ألا أيهـذا القانـت المتهجـد ... صلاتك للرحمن أم لي تسجد

أمـا والذي نـادى مـن الطـور عبده ... لمن غير مـا بـر تقـوم وتقعـد

فهـلا اتقيـت الله إذ كنـت وليـا ... بصـنعاء تبـرى مـن وليـت وتجـرد|

ويشهد لـي أنـي بـذلك صـادق ... حريث ويحيي لـي بـذلك يشـهد

وعنـد أبـي صـفوان فيـك شـهادة ... وبكـر وبكـر مسـلم متهجـد

فـإن قلـت زدنـي فـي الشـهود فإنـه ... سيشـهد لـي أيضًـا بـذاك محمـد

فلما سمعها سهم قطع الصلاة، وجاء مبادرًا، فقال له: قبحك الله يا زنديق! فعلت بي هذا كله، لشرهك في تقديم أكل وتأخيره الله! هاتوا طعامكم فأطعموه، لا أطعمه. قالوا: ونزل حماد على محمد بن طلحة، فأبطأ عليه بالطعام، فاشتد جوعه، فقال فيه حماد:

زرت امـرأ فـي بيتـه مـرة ... لـه حبـاء ولـه خيـر

يكـره أن يـتخم أضـيافه ... إن أذى التخمـة محـذور

ويشـتهي أن يـؤجروا عنـده ... بالصـوم، والصـالح مـأجور

فلما سمعها محمد قال له: عليك لعنة الله؛ أي شيء حملك على هجائي، وإنما انتظرت أن يفرغ لك من الطعام؟ قال: الجوع وحياتك حملني عليه، وإن زدت في الإبطاء زدت في القول، فمضى مبادرًا حتى جاء بالمائدة.

كان حماد إذن مخوفًا حياته كلها، لم يسقطه هجاء بشار، ولا تشهيره به، بل انتصر على باشر كما قدمنا، فإذا أردنا أن نعلل هذا الانتصار الذي ظفر به حماد، مع أن خصمه أجود منه شعرًا، وأنفذ منه لسانا، فعله ذلك شيئان، أحداهما: إن حمادًا كان صادقا، يلائم بين قوله

obeikandl.com

وعمله، فلام يكن يتكلف دينًا ولا ورعًا، ولم يكن يتستر من عبث أو مجون، فكان بشار إذا هجاء وصفه بما لا ينكر، أما بشار فقد كان متكلفًا محتاطًا، فكان حماد إذا هجاه أحيا في الناس حب الاستطلاع، ولهم من أمره على ما يجهلون. والآخر: أن حمادً لم يكن يعني في هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيرًا، وإنما كان يسلك في هجاءه طريق الشعراء الأولين، فيهجوا أمه وأباه وامرأته، ويصف شخص بشار بما لم يكن بشار يستطيع أن يصف به شخص حماد، قال الرواة إن بشارًا بكى حين سمع قول حماد فيه:

وأعمـــــى يشـــــبه القـــــرد إذا مـــــا عمـــــي القـــــرد

فلما سئل عن بكائه قال: يراني فيصفني، ولا أراه فأصفه؛ وكان هذان الشاعران لما عظمت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما، ويروي لكل منهما ما قال صاحبه فيه، ويحمل إليه الجواب، ولم تكن الصحف يومئذ معروفة؛ فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر، لا بأس بها. وإذا سألت عن أصل هذا الهجاء، الذي اتصل بين الرجلين أعوامًا طوالا، فمصدره يسير، وهو أن بشارًا كانت له حاجة عند حماد، فأبطأ فيها، فغضب بشار، وعاتب صاحبه عتابًا لاذعًا، فغضب حماد، وهجا بشارًا، واتصل الشر بين الرجلين؛ فكان حديث أهل البصرة، بل كان حديث أهل العراق أيام حياتهما،وبعد أن ماتا،وذلك يدلك على ما قلته من أن حمادًا كان سريع الغضب، مندفعًا إلى حب الانتقام. على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه أحيانا عن الاندفاع في الشر؛ فقد داعب مطيعًا ذات يوم، فرد عليه مطيع بشعر منكر، كان من شأنه أن يغري حمادًا، ولكن حمادًا ملك نفسه، وغفرها لمطيع، ولم يرد عليه هجاءه،وإنما مدحه بشعر لا بأس به،على أن حلم حماد كان محدودًا؛ فهو كان يحلم إذا لم ينله أذى في الحب والهوى، فإذا ناله هذا الأذى، فلم يكن للحلم إليه سبيل، وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع، كما اتصل بينه وبين بشار، لأمرين، كلاهما حب، أحدهما: أن مطيعًا زار معه صاحبته خشة، فازدراه عندها، وعيره صَلْعته، وكانت شديدة الحمرة، فساءت الصلة بينه وبين صاحبته، فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة، فأذكوا النار، ليضحكوا من حماد. والآخر: أن حمادًا كان يهوي غلامًا، فهويه مطيع، وتقرب إليه، فغتاظ لذلك حماد، وتهاجيا، ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلما اقتضت الأحوال، وإنما تجاوز هؤلاء جميعا إلى رجل من أهل الكرخ يعرف بأبي عون، كان صديقا لحماد والمطيع، وكانت به جارية تسمى جوهر، كان حماد يحبها،ويجن بها، وكان يلقاها من حين إلى حين، فتسامع الناس بذلك، وتحدثوا فيه، وكره سيدها لهذا الحديث، فحجبها عن حماد، فأنكر حماد ذلك، وهجا الرجل، فأسرف في هجائه وأقذع.

وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه وداعبيه وحدهم، بل بالنساك وأهل الزهد، إذا عرضوا له وانتقصوه. ويختلف الرواة في قصة له: وقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيي بن زياد؟ ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقًا لحماد،ثم نسك وأخذ ينتقص حمادًا، وأخذ حماد كذلك يلاطفه ويرفق به، لعله يقلع عن انتقاصه؛ فلم يقبل، فكتب إليه:

هل تذكرن دلجي إليـ ـك على المضمرة القلاص
أيام تعطيني وتأ خذ من أباريق الرصاص
إن كان نسكك لا يتـ ـم بغير شتمى وانتقاصي
أو كنت لست بغير ذا ك تنال منزلة الخلاص
فعليك فاشتم آمنا كل الأمان من القصاص
واقعد وقم بي ما بدا لك في الأداني والأقاصي
فلطالما زكيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام أنت إذا ذكر ت مناضل عني مناص
وأنا وأنت على ارتكـ ـاب الموبقات من الحراص

ويقول الذين يضيفون هذه القصة إلى يحيي بن زياد: إن هذا الشعر انصل به، فلم يزده إلا طعنًا في حماد، ونعيا عليه، فقال حماد فيه:

لا مؤمن يعرف إيمانه وليس يحيي بالفتى الكافر
منافق ظاهر ناسك مخالف الباطن للظاهر

أما الذين يضيفون القصة إلى أبي حنيفة، فيقولون إنه لما قرأ تلك الأبيات خاف من حماد، فأقلع عن شتمه.

ولو أني أحببت أن أشخص حمادًا كما شخصت مطيعا والوليد بن يزيد، لوصفته قبل كل شيء بحدة الطبع، وسوء الخلق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملائمة بينه وبين العمل، وبركه النفاق، والانصراف عنه، لا يعنيه أرَضىَ الناس عنه، أم سخطوا عليه، ثم بحدة اللسان ومضيه وإقذاعه، وكلفَه بفاحش القول، وبحثه عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسخرية من الناس وازدرائهم، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة، كالوليد ومطيع وأبي نواس، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء، يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب، وأخذت عليه الطرق، أو دعته إلى ذلك حاجة، لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء والانصراف عن التناقض، وإنما كان صديقا مخلصا حتى تبدو له حاجة، أو تسنح له فرصة، أو

تضطره ضرورة، فإذا صدقاته قد استحالت إلى عداء، وإذا هو ليس أقل صدقا وإخلاصا في العداء منه في المودة والحب، فقد مدح يحيي بن زياد، واتخذه صديقا، ونال جوائزه، ثم كان الخلاف فهجاه، وصادق بشارًا وصافاه، ثم اختصما، فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رفقًا، وصافي مطيعًا وأحبه ومدحه، وأكثر في الثناء عليه، ثم اختصما في امرأة مرة، وفي غلام مرة أخرى، فهجاه وأقذع في هجائه، وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس، والعدل في معاملتهم، هجا ذات يوم رجل يقال له: حشيش، وجعل اسمه قافيه هذا الشعر، وأراد أن يبالغ في ذمه فشبه ببحيش، وكان بحيش هذا الرجل من أهل البصرة، وادعًا لا يعرف حمادًا، ولا يعرفه حماد، فما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له، وسافر من البصرة حتى بلغ الكفة، فعاتب حمادًا، فقال له ضاحكًا معتذرًا: لا بأس عليك، فإن هذا من آثام القافية، ولن أعود إليه.

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد، على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة، ونليه من أعراض الناس، ووجوه الأمصار، أن يأمن على حياته غائله الخلفاء والحكام، والجواب عن ذلك يسير، وهو أن حمادًا كان متصلا أيام العباسيين بأمير من أمرائهم، هو محمد بن أبي العباس السفاح، قالوا إنه أدبه ونادمه، فأمن لاتصاله به كل غائله، على أن اتصاله بمحمد هذا جر عليه خطوبًا جسامًا،فقد كان محمد هذا خليعًا، كما كان جعفر بن المنصور حامي مطيه خليعًا أيضا، وكان المنصور يكره محمدًا، ويريد إقصاءه عن الخلافة، وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن علي، من أشراف العلويين، فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه، فلم تقبل خطبته، فزاده الرفض حبا لها، وهياما بها، ولم يكن شاعرًا، أو لم يكن يجيد الشعر، فلجأ إلى مؤدبهن ونديمه حماد، وجعل حماد يتغزل له في صاحبته، وجعل يحكم الوادي يغنيه بغزل حماد، وانتشر هذا الشعر، ونسبه الناس إلى محمد حينًا، وإلى حماد حينا آخر، ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جلية الأمر، فغضب على حماد وتوعده،وحلف لقتلنه، وظل حماد آمنا ما عاش محمد ابن أبي العباس، ولكن محمدًا مات، فاضطرب حماد، أشفق من وعيده خصمه، ويقولون إنه لجأ إلى قبر سليمان أبي خصمه هذا، واستجار به، وقال شعرًا كثيرًا جيدًا يستعطف به محمد بن سليمان، فلم يعطف عليه، ولم يرث له، وإنما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه، قال الرواة: فهرب حماد، حتى وصل بغداد، فاستجار بجعفر بن المنصور، فأجاره على أن يهجوه محمد ابن سليمان، فهجاه وبالغ في هجائه وأجاد، فلم يزدد محمد إلا سخطا عليه، قالوا: وكان حماد في الأهواز، فأرسل إليه محمد أحد مواليه،ن فقتله غليه، ويقال: لم يقتل، وإنما أصابته علة طالت عليه، ووصل نعيهن إلى بشار، ولم يكن حماد قد مات، فقال بشار:

لـــوم عـــاش حمـــاد لهونـــا بـــه لكنـــــه صـــــار إلـــــي النـــــار

قالوا: فبلغ هذا البيت حمادًا وهو عليل، فقال:

نبئـــت بشـــارا نعـــاني وللشـــ ـــــر براني الخـــالق البـــاري
يـــا ليتنـــي مـــت ولـــم أهجـــه نعـــم ولـــو صـــرت إلـــى النـــار
وأي خظـــي هـــو أخـــزى مـــن أن يقـــال لـــي: يـــا ســـاب بشـــار

ثم مات حماد، وكان من أمر بشار ما كان، حتى قتله المهدي، فدفن بشار مع حماد في مكان واحد. قالوا: فم رهما شاعر من شعراء البصرة، كان يهاجي بشارًا، يقال له أبو هشام الباهلي، فوقف على قبريهما، وقال هذه الأبيات، التي تختصر فيهما رأي طائفة من المعاصرين:

قـــد تبـــع الأعمـــى قـــف عجـــرد فأصـــــبحا جـــــارين فـــــي دار
قالـــت بقـــاع الأرض لا مرحبـــا بقـــــرب حمـــــاد وبشـــــار
تجـــــاورا بعـــــد تجافيهمـــــا مـــا أبغـــض الجـــار إلـــى الجـــار!
صـــار جميعـــا فـــي يـــدي مالـــك فـــي النـــار، والكـــافر فـــي النـــار

obeikandl.com

حسين بن الضحاك الخليع [1]

أريد اليوم إن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الظرف،ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون، قليل الفحش في اللفظ، غير متهالك على القول ا لآثم والألفاظ المنكرة، لا يتخيرها ولا يقصد إليها، وإنما يعرض إليها إذا اضطر إليها اضطرارًا، وهو على ظرفه ورقة حاشيته، وحرصه على نقاء اللفظ وطهره، شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجود إذا فكر، مظفر إذا بحث، موفق إلى اللفظ المتين، والأسلوب الرصين، في غير جفوة ولا غلظة، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته، وسجيته سهلة مرسلة، غنية غزيرة المادة، لا تكاد تنضب، ولا ينالها إعياء أو كلال. وحياته كلها عبر وعظات، ولكنها عبر وعظات مبتسمة، ليست بالمظلمة ولا العابسة، ولا بالتي تردك وتنفرك، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلا. ولعلك لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله، تقرأ أخبار فتظل مبتسما منذ تبتدئ إلى أن تنتهي، دون أن تعبس أو تقطب، وربما تجاوزت الابتسام إلى الحزن الشديد، وربما اعترضتك في طريقك سحابة محزنة، ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك. وكان الشاعر من المعمِّرين، بلغ المئة أو كاد، وعاصر طبقات من الشعراء، وألونا من حاشية الخلفاء، ولكنه ظل محتفظا بشخصيته الوادعة المبتسمة، تغير الناس، واختلفت الظروف، وظل هو واحدا لم يتغير. كان خليعا، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المجون، مسرفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة، أو تفوق عليه في مأثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون،وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق، وطهارة العنصر، وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تتزلق على نفسه وأخلاقه تزلقًا، دون أن تترك فيها أثرا باقيًا، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه الأشعار الجملية الحلوة، التي سأظهرك على طرف منها.

قلت: إن حياته كانت عبرة كلها، فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء، الذي إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد، وبعد التلطف وحسن الحلية، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم، ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل إلى أكثر ما ينبغي،

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢- ٢٣ أبريل ١٩٢٤.

وكان الخلفاء يبحثون عنه، ويحرصون على عشرته، ويبذلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء.

نشأ مع أبي نواس في البصرة، واختلفا معاً إلى مجالسها وملاهيها، ثم افترقا، فذهب أبو نواس إلى بغداد،وأقام هو في البصرة، ولم تكد تمضي مدة قصيرة على أبي نواس في بغداد، حتى بعد صوته، وتسامع به أهل العراق، لأنه اتصل بالأمراء وأشراف الناس، فارتفع قدره، وعَلِيت مكانته، وحمل الهواء ذلك إلى الحسين في البصرة، فغبط صاحبه، وقفا أثره، و انتقل إلى بغداد، فمدح الناس وتقرَّب من أشرافهم، واختلف إلى مجالس بغداد وملاهيها، وقال الشعر في الخمر، وفي ضروب اللذات، وما هي إلا أن عظم أمره، وتسامع به أهل بغداد وزعماؤها، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى الرشيد، وإنما اتصل بأبناء الرشيد، و هل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا قليلا؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا كما كان يتصل به الشعراء، الذين كانوا يقصدون إلى ذلك، ويحتالون فيه، حتى إذا نالتهم هذه الحظوة أنشدوا الخليفة شعرهم، وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيح لهم! ذلك أن أبا نواس والحسين ابن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصلحون لمصاحبة الرشيد، فقد كان في الرشيد شيء من العبث وحب اللهو، ولكن عبث الرشيد ولهوه لم يكونا قوام حياته، وإنما كانا ضرباً من الترفيه على النفس، ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصلحون لغير اللهو؛ فلم تنفق بضاعتهما عند الرشيد، وإنما نفقت عند الأمراء من أبنائه، وعند الوزراء وأشباه الوزراء، من ؤؤساء الدولة وأشرافها. فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه، واتصل شيئاً بالأمين، حين كان وليا للعهد، واتصل بطائفة من أمراء البيت المالك. وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد، لم يكن لهما حظ من الملك،ولا طمع فيه، وإنما كانت حياتتهما ضرباً من البطالة الاضطرارية، وكان الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ماجعل حياتهما عيداً متصلا، وهما صالح بن الرشيد، وأبو عيسى بن الرشيد. وكان الحسين متصلا اتصالا خاصا بصالح، ينادمه ويساقيه، ويكاد يمضي معه الليل والنهار، ثم اتصل الحسين بالأمين واشتدت صلته به، حتى تجاوزت علاقته ما بين الشعراء والخلفاء،إلى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية، ولسنا ندري إلى أي حد بلغ إخلاص الأمين لنديمة،ولكنا نعلم أن إخلاص الحسين للأمين لم يكن له حد، ونعلم أن أيام الأمين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المتهالك على اللذة رجلا وفيا، متين الخلق صريحا، يعرف كيف يكون من الأنصار السياسيين، وكيف يتعصب لحزبه، ويؤيد أصحابه، ويتعرض في سبيل ذلك للخطر؛ كان الحسين من أشد انس تعصبا للأمين، وزرايه على المأمون، حين ظهر الخلاف بين الأخوين، واندفع في ذلك إلى غير حد، ثم اشتدت المحنة، ووصلت جيوش المأمون إلى بغداد، وأخذت الحرب أشنع أشكالها، فلم يخف الحسين ولم يفزع، ولم يكن أقل انتصار لصاحبه منه في أيام اللين والنعمة. ولقد كان

يتلقط أخبار هذه الحرب، حتى إذا وصل إليه من أخبارها خبر ابتهج به، وأسرع فحمله إلي الأمين مهنئًا مشجعًا. روي لنا أبو الفرج من شعره في ذلك هذه الأبيات:

أمـــين الله ثـــق باللــــ ـــه تعـــط العـــز والنصـــرة
كـــل الأمــــر إلـــى الله كــــلاك الله ذو القـــــدرة
لنـــا النصـــر بـــإذن اللـــ ـــه والكـــرة لا الفـــرة
وللمـــــارق أعدائـــــ ـــك يـــوم الســوء والـــدبرة
وكـــأس تـــورد المـــوت كريـــه كعمهـــا مـــره
ســــقونا وســــقيناهم فكانـــت بهـــم الحـــرة
كـــذاك الحـــرب أحيانـــا علينـــا ولنـــا مـــرة

ثم قتل الأمين، وكانت الكارثة فلم يهن الحسين ولم يضعف، ولم ينقلب على عقبيه، ولم يتملق المنتصر، وإنما ملكه حزن ليس بعده حزن، وانطلق لسانه من الرثاء بالجيد المؤلم، الذي تتقطع له القلوب، وتتفطر له الأكباد، وانطلق لسانه أيضًا بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه، واستعداء الله عليهم، بعد أن عجز عن استعداء الناس، ولج في ذلك، وألح فيه، حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق، لم يزدد الحسين إلا هجاء للمأمون، ورثاء للأمين، حتى رق له أصحابه، وأشفقوا عليه، وألحوا في نصحه. روي أبو الفرج أن الحسين تحدث عن نفسه بهذا القول "كنت عازما على أن أرثي الأمين بلساني كليه، وأشفي لوعتي، فقيني أبو العتاهية، فقال لي: يا حسين، أنا إليك مائل، ولك محب، وقد علمت مكانك من الأمين، وإنه لحقيق بأن ترثيه، إلا أ،ك قد أطلقت لسانك من التلهف عليه، والوجع له، بما صار هجاء لغيره، وثلبا بله، وتحريضا عليه، وهذا المأمون منصب إلى العراق قد أقبل عليك، فأبق على نفسك، يا ويحك أتجسر على أن تقول:

تركـــوا حـــريم أبـــيهم نفـــلا والمحصـــنات صـــوارخ هتـــف
هيهـــات بعـــدك أن يـــدوم لهـــم عـــز وأن يبقـــي لهـــم شـــرف

أكفف غرب لسانك، واطو ما انتشر عنك، وتلاف ما فرط منك، فعلمت أنه قد نصحني، فجزيته الخير، وقطعت القول، فنجوت برأيه وما كدت أنجو"

وما أشك في أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من المأمون شر كثير، فلم يكن أبو نواس أقل حبا للأمين من الحسين، ولم يكن أبو نواس أشد بغضا للمأمون من الحسين،

obeikandi.com

وأنت تذكر هذه الأبيات القليلة التي قالها أبو نواس يرثي بها الأمين، فمثلت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة، وبغضه لهذه الدولة القائمة:

طوى الموت ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر
فلا وصل إلى عبرة تستديمها ... أحاديث نفس ما لها الدهر آخر
لئن عمرت دور بمن لا أحبهم ... لقد عمرت ممن أحب المقابر

فانظر إلى بعد هذا إلى رثاء الحسين للأمين، ورأيه في الدولتين؟ وحدثني: أتجد أبلغ من هذا الشعر في وصف الهزيمة السياسية، وحدثني: أيستطيع منهزم في السياسة، معترف بهزيمته أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام:

سألونا أن كيف نحن؟ فقلنا: ... من هوى نجمه فيكف يكون
نحن قوم أصابنا حدث الدهـ ... ـر فظلنا لريبه نستكين
نتمنى من الأمين أيابا ... لهف نفسي وأين منا الأمين

وانظر إلى هذه الأبيات التي تذكر بما رويت لك من شعر أبي نواس، ولم لا يقصد الشاعران إلى معنى واحد، وكلاهما كان محبا للأمين، مؤثرا له، وكلاهما كان عدوا للمأمون، مسرفا في بغضه:

أعزي يا محمد عنك نفسي ... معاذ الله والأيدي الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا ... ودافع عنك لي يوم الحِمامِ
كأن الموت صادف منك غنما ... أو استشفي بقربك من سقام

وأقرأ هذين البيتين:

هلا بقيت ليسد فاقتنا ... أبدا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا ... ولسوف يعوز بعدك الخلف

ويظهر أن هذين البيتين تركا في نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر فقد تحدث ثُمامه بن الأشرس أن المأمون لما وصل على بغداد طلب أن يسمي له نفر من أهل الشعر

والأدب، يتخذهم له جلساء. فسمى له قوم، منهم الحسين، فذكر هذين البيتين، وأقسم لا يراه إلى في الطريق. قال ثُمامه وانحدر الحسين إلى البصرة، فأقام فيها طوال أيام المأمون.

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه، وأشفق من ذلك، فتوسل إلى المأمون بوسائل مختلفة، ووسط إليه نفرا من أشراف القوم منهم عمرو بن مسعدة، ومدحه، أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين فلم يبلغ من المأمون إلا أن وصل له أرزاقه، ولكنه أبي الإباء كله أن يأذن له في الاختلاف إلى القصر. وسواء أصحت هذه الأخبار كلها أم لم تصح، فإن في حياة الحسين أيام المأمون، ومع ما قال فيه وفي أخيه، آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والإغضاء عن خصومه السياسيين. ولكن حياة الحسن أيا المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعود أيا كان ينادم الأمين، ويصاحب صالح بن الرشيد، فقد ضاقت به بغداد، وأغلقت دونه أبواب الأمراء وزعماء الناس، واضطر إلى أن يعيش ي البصرة من صلب ماله، وأشفق عليه بعض أصحابه، وحدثوه في ذلك، وسألوه كيف (تمشي حاله) مع انقطاع الأرزاق، كثرة النفقة، فقص عليهم قصصا لذيذا، يظهرنا على لنون من ألوان الحياة الخاصة للأمين. زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة في الحياة، ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج إلى المسألة، وهو إنما ينفق ويعيش من صلات الأمين وجارية له لم يسمها، ذلك أن الأمين دعاه ذات يوم، فزعم له أنه صديقه وعشيره، وأن عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه،ن وأنه محدثه بشيء يجب أن يخفيه، وكانت للأمين جاريه فتنته لجمالها وحسن غنائها،ولكنها كانت متجنية، كثيرة الدل، مسرفه فيه، فكانت تنغص على الأمين صفوه، فضاق الأمين بذلك مها، وأراد أن يلقي عليها درسًا،ن وكلف الحسين أن يلقي هذا الدرس. زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجاريه أخرى، لا تبلغها جمالا ولا إجادة في الغناء، وسيأمرها أن تغنيا، وطلب إلى الحسين أن يفتر ويتثاقل إذ غنت الجملية المحسنة، وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه، إذا غنت الأخرى، وأعفاه من كل حرج، ووعده مئة ثوب لكل ثوب يشقه، فوعد بالطاعة، وخلا إلى الأمين، وجاءت الجاريتان، فغنت المحسنة، وكان الحسين فتيا، وكان رجلا صادقا، ولاسيما إذا شرب، فلم يستطع أن يفي بالوعد، وإنما أخذا يظهر الرضا والإعجاب،ولكنا أومأ إليه الأمين لم يزدد إلا رضا وإعجابا، ثم غنت الأخرى، فأخذ يتكلف السرور والطرب واستأنفت المحسنة غناءها، واستأنف الحسين شرابه، فإذا لُبُّهُ قد طار، وإذا هو يصيح، وإذا الأمين يشير ويقطب، ويظهر العبوس، ولكن الحسين عنه في شغل بطربه ولذاته، حتى ضاق الأمين، وأمر بالحسين فجُرَّ برجله، ثم أمر فحجب عنه. وأخذ الناس يعطفون على الحسين، ويرثون له، ويسألونه عن سبب هذه النكبة، فيقول: تحامل علىّ النبيذ، فأسأت الأدب، فقومني أمير المؤمنين؛ ومضى دون ذلك شهر، ثم دعى الحسين إلى القصر، وإذا الأمين يتلقاه

لقاء حسنًا، ويخلو إليه في تلك الحجرة، ويدعو المغنية، وينبئ الحسين أن أمر هذه الجارية قد صلح، وأنها قد انتهت إلى ما يجب، وأنها قد شفعت للحسين عنده، فقبل شفاعتها، ومنح للحسين عشرة آلاف دينار، ومنحنه هي دون هذا المقدار ثم اتصلت صلات هذه الجارية للحسين فما كان يمضي أسبوع، حتى تنتهي إليه هداياها وألطافها، فهو يعيش من ذلك أيام سخط المأمون عليه.

على أن أيام المأمون لم يكد تنقضي حتى ابتسم الدهر للحسين، فعاد إلى بغداد، واتصل بالمعتصم والواثق والمتوكل، وكانت له عندهم جميعا حظوة لا تعدلها حظوة، وكان مقدما عندهم جميعا على غيره من الشعراء، ولاسيما الواثق؛ فقد كان يحبه حبا شديدا، ويطمئن على منادمته، ويتخذه موضعا لسره في حياته الخاصة، ومتا كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المجون والمزاح، وألوان الخدر والصُّدد، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعا أخبار حلوة، تبسط في روايتها أبو الفرج.

فأنت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالأمراء من أبناء الرشيد، ثم اتصل بالأمين والمعتصم والمتوكل من الخلفاء، وأنت تعل أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء، تطورا غير قليل، بل عن مستقر الحكم نفسه قد تغير، وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذي كانوا يحيطون بالأيمن والمأمون، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور، فكان في القرن الثالث غيره في القرن الثاني، من وجوه مختلفة، ولكن شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء، ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد، دون أن يغير من شخصيته شيئا، وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصيته قوية كشخصيته!

وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن نجتهد في وصفها، وأن نعطيك منها صورة ما، لتعرف مكانة من الشعراء الذين عاصروه، وقد سبقنا القدماء إلى هذا، فتصوروا هذا الشاعر تصورا مقاربًا، ولكن ينقصه شيء من الدقة، شبهوه بأبي نواس، أو قل خلطوا بينه وبين أبي نواس، وأسرفوا في هذا الخلط أحيانا، حتى رووا لكل منهما شعر صاحبه، وفي الحق أنك تجد في ديوان أبي نواس شعرًا هو أشبه بالحسين،وتجد أخبار الحسين شعرًا هو أشبه بأبي نواس، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين أشتد بينهما التشابه، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة في النقد، وتعمقا في البحث الأدبي، وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس، وكان أبو نواس يعلم أن الحسين يشبهه، وكانت بينهما مودة، ولكن كان بينهما تنافس شديد أدبي، لم ينته بهما إلى شر فيما نعلم، وإنما انتهى بهما إلى الخصام، وإلى التنابذ أحيانًا، دون أن يتصل بينهما الهجاء، ودون أن يوقع أحدهما بصاحبه، وكان الحسين لا يخلو من حمق وسرعة إلى الغضب،

وضيق الصدر، لم يكن فليسوفا، وإنما كان يلهو ويعبث في غير فلسفة ومذهب. أما أبو نواس فقد رأينا أنهن لم يكن يخلو من فلسفة، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس، والسخر منهم، والعبث بهم، وبما يتصل بحياتهم، من أصول وعقائد، ومن نظم وقواعد، فكان يعبث بالحسين صديقه، ويسخر منه، ويغيظه، لا يخفى ذلك ولا يتكلفه، وإنما يعلنه إعلانا، ويعلنه إلى الحسين نفسه، وكان الحسين يغتاظ، ولكنه لا يجد شفاء لنفسه إلا أن يشتم أبا نواس في وجهه أقبح الشتم، ويتحدث إلى الناس بذلك. ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث في الدين والأخلاق والحياة وحدها، بل كان يستبيح العبث في الأدب والشعر أيضًا، كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء، وكان يرى أنه شاعر مجيد؛ وإذا كان شاعرا مجيدًا فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعا إلى آيات الشعر في المجون ووصف الخمر، وكان يسبقهم جميعا إلا الحسين، فقد كانت للحسين في الخمر معان وألفاظ جياد، يتمنى أبو نواس لو ظفر بها، وسبق إليها، ولكن الحسين كان هو الظافر السابق، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبي نواس؛ فكان أبو نواس إذا سمع شيئا من هذا فاستحسنه، حسد الحسين عليه، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين، وأن هذا الشعر لم يخلق إلا ليقوله هو، ثم ينصرف عن الحسين، ويعود إليه وقد أخذ معناه وصاغه في لفظ؛ فإذا أظهر الحسن غضبا ضحك أبو نواس، وقال: "دع عنك هذا! فوالله لا يُرْوَى لك شيء في الخمر وأنا حي". و ربما أراح أبو نواس نفسه من عناء النقل والسرقة، فزعم القصيدة برمتها لنفسه، وصدَّقه الناس، وتناقلوا القصيدة على أنها له.

تحدَّث الرواة من هذا بالشيء الكثير، وهو يمثل لنا ما كان للحسين وأبي نواس من لين الخلق، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة، ومن الإخاء في الأدب واللهو، ولكنه يمثل لنا شيئًا آخر، هو الذي يعنينا من وجهة البحث الأدبي، يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة الرجلين وشعريهما، فقد كان الرجلان مسرفين في المجون، متهالكين على الخمر ،مشغوفين بوصفها وذكر آلاتها، وكان مذهبهما في ذلك واحدًا أو مقاربًا. ولا لا! ألم يتأثروا جميعًا بأستاذ واحد، هو الوليد بن يزيد؟ ألم يَعْدوا جميعا على شعر هذا الملك، الذي ظلم في السياسة وظُلم في الأدب أيضًا! ثم ألم يتأثر جميعًا بهذه الحياة البغدادية، وهذا اللهو البغدادي! ثم ألم يتصلا جميعًا بالأمين وقصور الأمراء والوزراء؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق، ظاهر في اللفظ، وظاهر في المعنى، وظاهر في الطبع أيضًا كان أبا نواس كالحسين: ماجنا ،شاربًا ،وصافا للخمر، محبا لغلمان، ولكنه كان من جهة مستهترا متهتكا، يمتدح بالاستهتار والتهتك،ويتخذها مذهبا ودينا، وكان من جهة أخرى، بحكم هذا الاستهتار والتهتك، متسفلا في شعره، لا يتكلف الإجادة إلى تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشراف الناس، وكان يرسل نفسه على سجيتها إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأواسط الناس، ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى

طبقات من الرقيق وغلمان الحانات والأديار، فكان يتبسط إذا تحدث إلى هؤلاء، وكان كثيرا ما يقول الشعر وهو سكران، فلم يكنن يستطيع الحرص على الإجادة اللفظية، ثم كان أبو نواس ساخرًا شديد السخر، فكان يتعمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو، فيحرف عليهم قواعدهم، ويسخر لهم من أصولهم، وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها. أما الحسين فكان طول حياته متصلا بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب، مقصورًا عليهم، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم، أو بمحضر منهم، فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس، وسفلة الرقيق، وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطرًا إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية، التي تصلح للأرستُقْراطية، فقلّ الفحش جدًا في شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه، وغلبت ا لجودة على معانية، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهبًا، ولم يكن يعينه أن يغيظ أهل الدين ورجال الصلاح، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو؛ فكان يف شعره هدوء واطمئنان، خلا منهما شعر أبي نواس، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقًا ولا استرسالا مع الطبيعة والسجية، لذلك لا نجد في شعره هذا الاحتشام المتكلف، الذي يصطنعه المنافقون من الفساق، وإنما كان الرحل فاسقا لا يجرِّد فسقه، ولا يظهره للناس عاريًا كأبي نواس، كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه، فيخلع عليه أثواب الورع والدين.وكذلك كان الحسين، وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس، وهي مفهومة جدًا، كان يعاشر الأمراء والخلفاء، وكان ينشي لهم الشعر، ليتغني لهم فيه المغنون وقد أكثر من ذلكم، حتى أثر في شعره، وأصبح شعره كله موسيقيًا، وقل أن تجد للحسين شعرًا لم يتغن فيه المغنون، وقل أن تجد له شعرا لا يصلح للغناء، لا لجودة لفظه ومعناه فحسب، بل لهما ولهذا التنسيق الموسيقي الذي لا تكاد عند غيره. ومن هنا آثر أو كاد يؤثر دائما القصار من بحور الشعر، ومن هنا اجتهد في أن يضيف إلى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزانا أخرى موسيقية، فانظر إلى هذا البيت؛ فهو يمثل ما أريد تمثيلا صحيحًا.

قد غاب لا آب من يُراقبنا ونام لا قام سامر الخدم

فانظر إلى قوله "قد غاب لا آب" وإلى قوله " نام لا قام" تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته، هذا النغم الموسيقي، الذي زاوج بين غاب وآب، وبين نام وقام، وهذه النحو من الموسيقى كثير في شعر الحسين.

وجمله القول في شخصية هذا الشاعر، أنه كان كأبي نواس، ولكنه أنقى من أبي نواس لفظا، وأعف منه لسانًا، وأحرص منه على اختيار المتقين من الكلام، ولم يكن يعدل أبا نواس في خفة الروح، وحلاوة المجون، ولم يكن يبلغ أبا نواس في الاستهتار والتهتك، ولم يكن أقل من

أبي نواس حرارة في العاطفة، وصدقا في اللهجة، ولكنه كان يمتاز بشيء من الرجولة والوفاء، يم يكن لأبي نواس منه حظ عظيم، وكان يمتاز على أبي نواس بشيء آخر، وهو أنه لم يكن سريع التنقل في أهوائه ولذاته، وإنما كان وفيا في حبه، كما كان وفيا في صداقته، وكانت قصت الحين التي استأثرت بحياته الغ رامية في شبابه، إن صح هذا التعبير، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الأمراء، هو "يُسْر" غلام أبي عيسى بن الرشيد. وكان "يسر" هذا جميلا خلابًا، فُتن به صالح بن الرشيد نفسه، وتلطف له، واجتهد في الحظوة عنده، فوجد في ذلك عناء شديدًا، ولم يظفر به إلا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال، وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الأخوين الحسين تلطف واحتال، وبالغ في التلطف والحية، حتى وجد من قلب الغلام مكانًا، ولعل الذي انتهي به إلى هذا المكان من قلب يسر إنما هو شعره الجيد الكثير، الذي قاله فيه، ولست أريد ن أقص عليك أخباره مع يسر،ولست أريد أن أروي لك من هذا الشعر نموذجا حسنا، يمثله تمثيلاً صحيحًا، وهي هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة لهو، كانت بينه وبين يسر:

تيسري للمام من أمم ... ولا تراعي حمامة الحرم
قد غاب لا آب من يراقبنا ... ونام لا قام سامر الخدم
فاستصحبي مسعدا يفاوضنا ... إذا خلونا في كل مكتتم
تبذلي بذلة قتر بها الـ ... ـعين ولا تحصري وتحتشمي
ليت نحوم السماء راكدة ... على دجى ليلنا فلم ترم
ما لسروري بالشك ممتزج ... حتى كأني أراه في حلم
فرحت حتى استخفني فرحي ... وشبت عين اليقين بالتهم
أمسح عيني مستثبتا نظري ... إخالني نائما ولم أنم
سقيا لليل أفنيت مدته ... ببارد الريق طيب النسم
أبيض مرتجه روادفه ... ما عيب من فرقة إلى القدم
إذ قصبا العريش تجمعنا ... حتى تجلت أواخر الظلم
وليلة بتها محسرة ... محفوفة بالظنون والتهم
سقيا لقيطوها مخدعها ... كم من لمام به ومن لمم
وليلة القفص إن سألت بها ... كانت شفاء لعله السقم
بات أنيسي صريع خمرته ... وتلك إحدى مصارع الكرم
وبت عن موعد سبقت به ... ألثم درا مفلجا بفم
أباحني نفسه ووسدني ... يمنى يديه وبات ملتزمي

حتـى إذا هتاجـت النـواقس فـي ... سـخرة أحـوى أحـم كـالحمم
وقلـت هبـا يـا صـاحبي ونبـ ... ـهت أبانـا فهـب كـالزلم
فاسـتتها كالشـهاب ضـاحكة ... عـن بـارق فـي الإنـاء مبتسـم
صـفراء زيتيـه موشـحة ... بـأرجوان ملمـع ضـرم
أخـذت ريحانـة أراح لهـا ... دب سـروري بهـا دبيـب دمـي
فراجـع العـذر أن بـدا لـك فـي الـ ... ـعذر وإن عـدت لا ئمـا فلـم

فانظر إلى هذه القصيدة على طولها، كيف جادت ألفاظها ومعانيها! وانظر إلى حذر الشاعر وإشفاقه، وانتظاره وقاء صاحبه بالوعد، ثم شكه في هذا الوفاء، وهو يستمتع بلذاته لشدة حرصه عليه، وإكباره له! ثم انظر إليه كليف يأخذا في تفصيل لذته متبسطًا، وإذا هو يدنوا من الفحش قليلا قليلا، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيد أصبع، انصرف عنه، وقد ألمَّ به إلماما، وخيله إليك تخيلا، فإذا لم يكن بد من التصريح، ففي لفظ لا يروع التقي، ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك.

أترى إلى أبي نواس في مثل هذا الموضع؟ أكان يعفيك من تصريح بَشع! أكان يدخل عليك بلفظ مكروه! بلى، لو وقف أبو نواس هذا الموقف لتعمد الإفحاش والإساءة؛ لأن أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل هذا الشعر في الشعر وحده، وإنما يفكر في خصومه الذين ينكرون عليه لذته، فيريد أن يغيظهم ويكبتهم، فيمضي في الفحش إلى غير حد.

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي تمثل لك رقة الحسين ولطفه في الغزل:

لا وحبيـك لا أصـا ... فـح بالـدمع مـدمعا
مـن بكـى شـجوه اسـترا ... ح وإن كـان موجعـا
كبـدي مـن هـواك أسـ ... ـقم مـن أن تقطعـا
لـم تـدع سـورة الضـني ... فـي للسـقم موضـعا

وما أظن التفسير والتعليق إلا مفسدين لجمال هذا الشعر. ولشد ما أحببنا أن نسمع متغنيا فيه، كما تغنى فيه القدماء ببغداد! ولقد فتن ثعلب بهذا الشعر، حتى قال لأصحابه: ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا...

obeikandl.com

ولقد أريد أن أمثل لك شيئا من عبث الحسين، فهو كثير، ولكني متحير، لا أدري ماذا أختار منه. فلأكتف من هذا بهذه القصة، التي لا تمثل الحسين وحده، وإنما تمثل معه أيضا علمين من أعلام الحياة السياسية أيام الواثق. شك الناس في رمضان، وأمر الواثق بالإفطار، فكتب الحسن ابن رجاء إلى الحسين.

هززتك للصبوح وقد نهاني ... أمير المؤمنين عن الصيام
وعندي من قيان المصر عشر ... تطيب بهن عاتقة المدام
ومن أمثالهم إذا انتشينا ... ترانا نجتني ثمر الغرام
فكنت أنت الجواب فليس شيء ... أحب إلى من حذف الكلام

قال الحسين: فوردتن ‘لى رفته، وقد سبقه إلىَّ محمد بن الحارث ابن بسخنر، ووجه إلىّ بغلام نظيف الوجه، ومعه ثلاثة غِلْمة أقران حسان الوجوه، ومعهم رقعة قد كتبها إلى كما تكتب المناشير، وختمها في أسفلها، وكتب فيها يقول:

سر على اسم الله يا أشـ ... ـشك من غصن لجين
في ثلاث من بني الرو ... م إلى دار حسين
أشخص الكهل إلى مو ... لاك يا قرة عيني
أره العنف إذا استعـ ... ـصي وطالبه بدين
ودع اللفظ وخاطبـ ... ـه بغمز الحاجبين
واحذر الرجعة من وجـ ... ـهك في خفي حنين

قال فمضيت معهم، وكتبت إلى الحسن بن رجاء جاب رقعته:

دعوت إلى مماحكة الصيام ... وإعمال الملاهي والمدام
ولو سبق الرسول لكان سعي ... إليك ينوب عن طول الكلام
وما شوقي إليك بدون شوقي ... إلى زمن التصابي والغرام
ولكن حل في نفر عسوف ... بمنشور محل المستهام
حسين فاستباح له حريما ... بطرف باعث سبب الحمام
وأظهر نخوة وسطا وأبدى ... فظاظته بترك للسلام
وأزعجني بألفاظ غلاظ ... وقد أعطيته طرفي زمامي
و لو خالفته لم يخش قتلي ... وقنعني سريعا بالحسام

ولست أروي لك خبره مع الحسن بن سهل، ولا قصته في أمر مقحم، ولا دهاءه في أمر الشامي وعشيقته "بَصْبَصْ"، فأنت تستطيع أن تقرأ هذا كله وأكثر منه في الأغاني. وأحسب أني قد بلغ التسعين أو كاد، وكان قد نادم المتوكل، ثم شقت عليه الخدمة فاعتذر ووشى به الناس على الخليفة، فكتب إليه هذه الأبيات التي تمثل شعره، وهو شيخ قد أدركه الفناء، فلا تظهر الشعر في هذا السن ضعفًا ولا وهنًا، كما أنها لا تظهر فيه شبابًا ولا قوة:

أمـــا فـــي ثمـــانين وفيتهـــا ... عـــذير وإن أنـــا لـــم أعتـــذر
فكيـــف وقـــد جزتهـــا صـــاعدًا ... مـــع الصـــاعدين بتســـع أخـــر
وقـــد رفـــع الله أقلامـــه ... عـــن ابـــن ثمـــانين دون البشـــر
ســـوى مـــن أصـــر علـــى فتنـــه ... وألحـــد فـــي دينـــه أو كفـــر
وإنـــي لمـــن أراء الإلـــ ... ـه فـي الأرض نصـب صـروف القـدر
فـــإن يقـــض لـــي عمـــلا صـــالحًا ... أُثـــاب وإن يقـــض شـــرا غفـــر
فـــلا تلـــح فـــي كبـــر هـــدني ... فـــلا ذنـــب لـــي أن بلغـــت الكبـــر
هـــو الشـــيب حـــل بعقـــب الشـــباب ... فـــأعقبني خـــورا مـــن أشـــر
وقـــد بســـط الله لـــي عـــذره ... فمـــن ذا يلـــوم إذا مـــا عـــذر
وإنـــي لفـــي كنـــف مغـــدق ... وعـــز بنصـــر أبـــي المنتصـــر
يبـــاري الريـــاح بفضـــل الســـما ... ح حتـــى تبلـــد أو تنحســـر
لـــه أكـــد الـــوحي ميراثـــه ... ومـــن ذا يخـــالف وحـــي الســـور
ومـــا للحســـود وأشـــياعه ... ومـــن كـــذب ا لحـــق إلا الحجـــر

بشار بن برد [1]

ليس وجه بشار بذلك الوجه المشرق الجذاب، والذي يستميلك ويستهويك، وإنما هو فيما أعتقد رجل ثقيل الظل، له من الفن حظه الموفور، ولكن وجه في حاجة شديدة إلى الخفة، ولست أدري أتشاركن في هذا الرأي أم تخالفني فيه؛ فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتعجب بهم، ومنهم من تحبهم ولا تعجب بهم، ومنهم من يظفرون بالإعجاب وحده دون الحب، أي أنا أعتقد أن الشاعر ليس محببا إلى النفس لأنه مجيد ليس غير، وإنما يجب أن يجمع إلى هذه الإجادة خلالا أخرى، تدني منك شخصيته، وتقارب ما بينهما وبين نفسك، حتى تحبه وتميل إليه. ولم يرزق الله بشارًا من هذه الخلال شيئًا، وإنما منحه من القوة الفنية والإجابة في الشعر حظًا موفورًا، ولكنه إلى التنفير أقرب منه إلي الترغيب وإيجاد العطف. وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التي ابتلى الله بها بشارًا مصدرًا لحب الناس إياه وعطفهم عليه، ورفقهم به، لو أن بشارًا عرف كيف يتلقي هذه الآفة، وكيف يحتملها، وكيف يعرق مكانته منها، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النقمة منهم، والسخط عليهم؛ لأنهم يسيئون احتمال هذا البؤس، أو يضعونه في غير موضعه. فكم سخط على معدم، وكان من حقك أن ترحمه؛ لأنه لم يعرف كيف يكون معدمًا أو فقيرًا، كذلك أصاب الله بشارًا بهذه الآفة، فسلبه البصر، وكان إلى ذلك نابغة في الشعر، يكاد ينعدم نظيره في قوة الذكاء، وحدة الذهن، ولكنه أساء احتمال آفته، كما أساء الانتفاع بذكائه وحده ذهنة، فأصبح بغيضا إلى الناس، مذمما عندهم، ثقيلا عليهم، حتى روي الرواة أن عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته، واستبشروا به، كأن الله قد أزاح عنهم ضرًا.

ربما لم تعرف آداب العرب في إسلامهم شاعرين كبشار وأبي العلاء، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة، فأسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح. ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جدًا، لا أقول من الوجهة الأدبية أو الشعرية، فليس للمقارنة بينهما من سبيل، وإنما أقول من هذه الوجهة التي تحبب إليك الرجل، أو تبغضه إليك، كلاهما كان مكفوف البصر، وكلاهما كان سيء الظن بالناس، مسرفا في سوء الظن، لأنه كان مكفوف البصر، ولكن أحدهما استساع أن يحمل مصابه راضيا مطمئنًا، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خيرًا خفيف الظل، جذابا محببا إلى النفس، يكاد يكون كله حبا، وهو أبو العلاء. أما الآخر فقد احتمل

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢- ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٤.

مصابه شر احتمال،ماذا أقول! بل هو لم يحتمل هذا المصاب، وأكاد أحسب أنه لم يفترضه، ولم يشعر بوجوده، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة إلى الفخر والتمدح، وأسرف في ذلك إسرافًا شديدًا، فكان يحمد الله على العمى، لأنه يحول بينه وبين رؤية الناس، الذي كان يكرههم ويتبرم بهم تبرمًا شديدًا، وليس هذا شيئًا؛ فقد يستطيع الإنسان فهمه وتأويله، والاعتذار عنه، ولكن بشارًا تجاوز الحد في ذلك، فلم يكتف بحمد الله على العمى، بل اتخذ العمى فخرًا،ورغم أن ذكاءه النادر، ونبوغه الفذ، وإنما هما أثر من آثار هذه المحنة، وقال في ذلك كلاما كثيرا. وكان من اليسير أيضًا أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه، ويجدوا وسيلة إلى الاعتذار عنه، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه إلى ذلك قوة الجسم، ودقة الحس ولطفه، ومنحه إلى هذا وذاك نفسًا ثائرة مضطربه. شرهة إلى اللذة، لا تقنع مها بالقليل، ولا تظفر منها بحظ إلا استزادته، وطمعت فيما هو أعظم منه، أقول: ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى، راضيا بها، مطمئنا إليها، وإنما المعقول أن يحدث ذلك في نفسه سخطا شديدا على الحياة والأحياء، لما يجر عليه ذلك من حرمان... أضف إلى هذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء، ولا حريصين على الرفق وحسن الأدب، وإنما كانوا يسخرون من بشار ويعبثون به، ويسرفون في ذلك، حتى يبلغوا إعناته، ويخرجوا به عن طوره. فكان هذا كله مصدرًا لما تجده في هذا الرجل من سوء الخلق، وشدة البغض للناس، والموجة عليهم، وإضمار الشر لهم، والإسراف في السخرية منهم. وماذا تقول في رجل لم يُخلص لإنسان! وما نحسب أن إنسانا أخلص له، وإنما كان سيء الظن بالناس جميعًا، منطلق اللسان في الناس جميعا، بمدح ثم لا يلبث أن يهجو، وربما مدح وهو يضمر الهجاء، بل لعله لم يمدح إلا وهو يزدري ممدوحه! وكان مخلصًا إذا هجا؛ لأنه كان يزدري الناس، ويسرف في بغضهم، وقد عظمت في نفسه هذه الخلة، حتى استأثرت به، وسيطرت عليه، وأصبحت مقياس حياته، وقانون ما بينه وبين الناس من معاملة، وانتهى أمره إلى أن الناس إنما كانوا يصلونه ويمنحون الجوائز، لا إعجابا به، ولا رحمة له، ولا عطفا عليه، بل إشفاقا منه، لأذاه. وعرف هو منهم ذلك، فنالهم من حيث ينال الضعيف، مدحهم ولم يكره، يُنْذِر وهو ويمدح، وربما أعرض عن المدح، واكتفى بالإنذار، وربما أعرض عن المدح والإنذار جميعًا، وسلك أقصر الطرق، وهجا بالبيت أو البيتين، فيشفق المهجو من المزيد، فينزل عندما أراد. ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح يقينا عنده، فأصبح بشار من أشد الناس إيثارا لنفسه، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفا عليه،

وأن الشر يجب أن يعدا إلى غيره. ولم لا! أليس يرى أنه أذكى الناس، وأشعر الناس،وأعلم الناس! وإذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له، إصلاح لما فيهم من فساد. ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلا أطول منه لسانًا، ولا أسرع منه إلى شر، ولا أشد منه إمعانا في الفحش إذا هجا، ولا أقل منه احتفالا بالعدل أو الظلم.

وأخرى من خلال هذا الرجل، هي أنه أسرف في بغض الناس وازدرائهم، فأسرف لذلك في إيثار نفسه عليهم، ومن اتصف بالإيثار فقد اتصف بالجبن، لأن الإيثار في حقيقة الأمر شكل من أشكال الجبن، ولون من ألوانه،فليس شجاعا ذلك الرجل الذي يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا يحب، وإنما الشجاع حقا هو من بدأ بنفسه، فأخذها بالخير، وحال بينها وبين الشر، حتى إذا فرغ من نفسه عُني بالناس، وكان بشار من أشد الناس في عصره جبنا وفرقا، كان طويل اللسان، سفيها مسرفا في الهجاء، إلا أن يبدوا له ما يخفيه، فإذا بدا له ذلك فهو ذليل منكسر. وكان يخاف كل شيء، كان يخاف السيف، وكان يخاف السوط، وكان يخاف اللسان، وكان يخاف غير هذا كله، وله في ذلك أحاديث. زعموا أن طلب إلى رجل مصور أن يتخذا له جاما، ويرسم فيه طيرًا، ففعل الرجل،وأقبل إليه بالجام، فوصفه له، فلم يرض، وقال: كان يجب ن ترسم فيه طيرًا جارحا يصيد هذه الطيور، ولكنك عرفت أني أعمى، فاستخففت بي، فلأهجونك. قال صاحبه: لا تفعل، فأنت نادم إن فعلت، قال: أتنذرني؟ قال: نعم، قال: وبم؟ قال: أصورك على صورتك، وأجعل من روائك قردًا.. وأضع ذلك على بابي، فقهقه بشار، وصفّق بيديه، وقال: قاتله الله! أمازحه فيأتي إلا الجد. فانظر إليه أشفق من هذه الصورة، ولو لم ينذروه بها المصور لهجاه. وزعموا أنه طلب إلى صديق له تاجرا ثيابا بنسيئه، فلم يوفق الرجل لما أراد، فغضب بشار، وكتب إليه بيتين من أقبح الشعر، ولم يكن هذا الرجل شاعرا، ولكنه اغتاظ لهذين البيتين، فرد عليهما بشر منهما، فانكسر بشار، وأقسم لا يهجو مثله من سفلة الناس. قالوا: وهجا بشار روح بن حاتم، فجاءه منه النذير، فلم يحفل، وألح في الهجاء، فأقسم روح: لئن رأيته لأضربنه بالسيف، ولو كان بين يدي الخليفة. قالوا: فيما انتهى ذلك إلى بشار نهض من فوره، فدخل على المهدي، وعاذ به فأعاذه، وأرسل في طلب روح، فكلمه في ذلك؛ فأبى، وقال: إنه أقسم، فإن رأي أمير المؤمنين أن يحتمل يميني، فأحضر المهدي الفقهاء، ليتأولوا له مخرجا، فأفتوا بأن يضربه على جسمه بعرض ا لسيف، وكان بشار وراء ستار، فأخرج، واستل روح سيفه، وضربه بعرضه، قالوا: فلما أحس بشار السيف جزع، وصاح أوِه باسم الله! فتضاحك المهدي. وأحاديث بشار في الجبن والجزع من الهجاء كثيرة لا تحصى.

وخصلة أخرى تتميز بها شخصية، وهي أنه إذا كان أثرًا شديد الإشفاق؛ فقد كان مسرفا في النفاق أيضا وليس يمثل إسرافه في النفاق أكثر من مكانه من الزنادقة، ورأيه فيهم. وسيرته

معهم. كان من أشد الناس إلحادًا في الدين، وتهالكًا على اللذة، وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم، يحب المجون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفي، وإنما كان رجلا له رأي وبصيرة: يفكر ويناظر ويحاج عن رأيه، وكان صديقا لواصل بن عطاء، ونفر من أصحاب الكلام في البصرة فكانوا يتناظرون في الدين، ثم افترقوا: فأما واصل فمضى في الاعتزال وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة في الكلام، ومنهم من ألحد ولم يخف إلحاده، وإنما ترك البصرة فرارًا من أميرها، ومخافة أن يدل عليه أصحابه ومناظروه، أما بشار فإنه لم يعلن شيئا خاصا، وإنما مضى في سيرته، يخيل للناس أنه يرى رأي الجماعة، ويضمر الزندقة والإلحاد، ويزدري رأي الجماعة، وكان الناس يعلمون منه ذلك، وكان واصل يعلمه، وينكره عليه، ويهتف به، فهجاه بشار، وأسرف في هجائه، حتى سكت عنه واصل، وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شرًا، ثم لم يكن يكتفي بهذا، وإنما كان يدفع عن نفسه الزندقة بهذه الطريق يسلكها الجبناء وأنذال الناس، فيتهم بها غيره من خصومه، ومن أصدقائه أيضًا، وقد مر بك في أحاديثنا الماضية شيء من سيرته مع حماد عجرد، فقد أسرف في اتهماه بالزندقة. وما نشك في أن حمادًا كان من الإجادة بعيدا عن أن يبلغ حظ بشار.

كانت زندقة بشار علمية إن صح هذا التعبير، أو قل: كان لزندقته وجهان: أحدهما علمي نظري، فيه ذكر لمذهبه، ودفع عنه، وحوار دونه، والآخر عملي أدبي، يشارك فيه حمادًا ومطيعًا وغيرهما من المجان، فكان بشار يدين بالرجعة، ويكفر الأمة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها حادت عن طريق الدين، فلما سئل عن علي رضي الله عنه تمثل بقول عمرو بن كلثوم:

وما شر الثلاثة أم عمر بصاحبك الذي لا تصحبينا

وكان يؤثر النار على الطين، ويفضل النور على الظلمة، فكان من هذه الناحية فارسي الزندقة، ثم كان في حقيقة الأمر فارسيا في كل شيء، كان فارسيًا في زندقته، يقدم النار التي يعبدها الفرس، وكان فارسيا في أهوائه وميوله السياسية، فلم يكن يحب العرب، ولا يرتاح إليهم، وإنما كان يحتملهم احتمالا، وكان ينكر الولاء، ويحث الموالي على أن ينكروه، وكان يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفًا ولا حرية من العرب، ولم يكن يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس، وربما فاخر بنسبه الفارسي، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدي المهدي، ويقولون إن رجلا من أشراف العرب في البصرة أقبل عليه يعاتبه، لأنه يفسد الموالي على العرب، فهجاه، واضطر الرجل إلى أن يسكت عنه.

كان بشار إذن زنديقا، ممعنا في الزندقة، وكان شعوبيا، متشددا في الشعوبية، وكان يحتمي بالنفاق أيضا، كما قدمنا؛ فقد كان يمدح الخلفاء والأمراء وأشراف الناس أيام بني أمية، وأيام العباسيين، يطلب مهم المال، ويطلب منهم الجاه أيضًا، ولكنه لم يكن مخلصا في شيء من ذلك، وكان الممدوحون يعرفون منه هذا النفاق، ويصبرون عليه، أو يتغاضون عنه، حلما مرة، وعفوا مرة أخرى، وإشفاقا في أكثر الأحيان.

فإذا أردت أن تتمم شخصيته من حيث هو رجل، فينبغي أن تضيف إلى كل ما قدمنا خصلة أخرى، وهي أنه كان شديد الوَلَع بالنساء، مسرفا في التشبيب، مفتنا فيه فنونا لم يُسبق إليها، وكأنه لم يُلحق فيها أيضًا. كان شعره كله إغراء بالفجور، وحثا على الفسوق، وإفسادًا حتى لأشد النساء حرصا على الشرف، وأوفرهن حظا من الإحصاء، وقد جزع لذلك الناس في البصرة، فسعى إليه وعَّاظهم وأهل الصلاح منهم ينهونه، وهتف به خطباؤهم، والمتكلمون فيهم، ولكن شيئًا من ذلك لم يؤثر فيه، ولم يردعه، بل مضى في نسيبه وتشبيه، وفي استهتاره وتهتكه، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره، والاستهتار به، كما أكثرن من الاختلاف إليه، ومجاذبته الحديث، وكانت هل معهن سيرة مزدولة، فشكا الناس إلى المهدي، فنهاه المهدي، وأنذره بالموت إن لم يكف عن التشبيب، وفي ذلك يقول:

يا منظرا حسنا رأيته ... من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني ... برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد ... ما إن عدوت ولا نويته
أمسكت عنك وربما ... عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنا ... ن بكى على وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيـ ... ـب إذا ادكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه ... فصبرت عنه وما قليته
ونهاني الملك الهما ... م عن النساء وما عصيته
لا، بل وفيت فلم أضع ... عهدًا ولا رأيا رأيته

قالوا: ووفد بشار على المهدي، فاشترط الحاجب عليه ألا ينشد الخليفة غزلا، فلما دخل عليه أنشده هذه الأبيات، ثم أنشده مدحا لا غ زل فيه، فحرمه المهدي ولم يُجزه، وقال الناس لبشار: إنما حرمك لأنه لم يستحسن شعرك. فقال – وهذا يمثل إعجابه بنفسه –: لقد مدحته بشعر لو قيل في الدهر لأمن الناس صروفه، ولكنه كذب أملي، لأني كذبت في القول، ثم قال هذه الأبيات:

خليلي إن العسر سوف يفيق ... وإن يسارا في غد لخليق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا ... صحوت وإن ماق الزمان أموق
أأدماء لا أستطيع في قلة الثرى ... خزوزا ووشيا والقليل محيق
خذي من يدي ما قل إن زماننا ... شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضي بأدنى معيشة ... ولا يشتكي بخلا على رفيق
خليلي إن المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له في التقى أو في المحامد سوق
ولا ضاف فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

فإذا أضفت إلى هذا كله أنه كان أقبح النسا وجها، وأنه كان عظيم الحسم، ضخم الخلق، وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل، وأنه خلاب للنساء، وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول:

إن في بردي جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لا نهدم

أقول: إذا أضفت هذا إلى ما قدمنا، تبينت صورة ليست بعيدة ولا كاذبة من هذا الرجل، الذي لم يكن جذابا ولا خلابا،لا من الوجهة المعنوية، ولا من الوجهة المادية. ومع هذا فقد كان شاعرا مجيدًا، أجمع العلماء والرواة في عصره على أنه أشعر أهل هذا العصر، وزعم هو لنا ذلك، فتحدث ذات يوم أن له أثنى عشر ألف بيت من جيد الشعر، فلما سئل عن ذلك قال: إن له اثني عشر ألف قصيدة، فويل له إذا لم يكن في كل قصيدة بيت جيد. قالوا: ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هذا المقدار من جيد الشعر، وقد يكون هذا حقا، ولكننا في حاجة شديدة إلى أن نظفر من هذا المقدار الضخم بجزء قليل نتخذه مقياسا لإجادة بشا،وقد أراد سوا الحظ ألا نظفر من شعر بشار بشيء يذكر. ومهما يكن من شيء فأنا أشك في قيمة هذا الإجماع، الذي انعقد على تقديم بشار، وإيثاره بالإجادة والتفوق، وأزعم أن شيئا من هذا الإجماع يعود إلى سفه بشار، فقد كان بشار يخيف العلماء ويهجوهم، هجا سيبويه، لأنه أنكر عليه كلمات، فاضطر سيبويه

إلى أن يستشهد بشعره، وتملقه الأخفش لشيء كهذا، وتملقه يونس بن حبيب، وكان مع ذلك يكرهه كرها شديدًا، ويقال إنه هو الذي وشى به عند المهدي، واتهمه بالزندقة، وتملقه الأصمعي من غير شك، فقد كان بشار يهجو بأهله، والأصمعي باهلي، وبعض هذا الإجماع يعود إلى أن بشارًا كان إذا جدَّ متين اللفظ، رصين الأسلوب، مؤثرا لنحو أهل البادية ي ألفاظهم وأساليبهم، وكان لا يكره استعمال الغريب، ولا يعيبه، وكيف لا يحب علماء اللغة رجلا يذهب هذا المذهب. ثم يعود بعض هذا الإجماع إلى أن الناس أطبقوا على خوف بشار، والإشفاق منه، فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء، ثم تعلمت عليه طائفة من الشعراء تقدمت في عصرها، ثم أكثر من الغزل، ورق فيه، فأحبه الظرفاء، وأصحاب الخلاعة، وتعني فيه المغنون، وتحدث الرواة أن نساء البصرة كن يلجأن إليه إذا احتجن إلى شعر ينحن فيه، فهذا كله مصدر هذا الإجماع، الذي يقدِّن بشارًا على غيره من الناس.

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه، غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له. فنحن أقدر على أن نحم عليه حكمًا صادقًا، لو أتيح لن الشرط الأساسي لهذا الحكم، وهو مقدار ضخم من شعره.

على أني أشارك الرجل الواحد الذي استطاع في ذلك العصر ألا يُعجب بشعر بشار، وأن يشدد النكير عليه، وهو إسحاق الموصلي. أشاركه، ولا في إسرافه، فقد تعصب على بشار، كما تعصب غيره لبشار، وأرى بشارًا لم يكن كما ظن القدماء، ذلك الشاعر الذي لا يشق له غبار، وإنما كان شاعرًا كغيره من الشعراء، له الجيد، وله الرديء، وربما قدمتم على بشار رجلا كأبي نواس، أو كالحسين بن الضحاك، غير أني لو أخذت أفصل هذا الحكم، وأستدل عليه، لم أفرغ منه في هذا الفصل، فالخير أن أرجي ذلك إلى فصل خاص، في الأسبوع الآتي.

شعر بشار [1]

قلت في الحديث عن بشار إن القدماء من الأدباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديمه، وإيثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه، وخالفتهم في هذا الرأي، وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين، وإنما تأثروا بمؤثرات كثيرة أشرت إليها، ثم قلت: إني أرى في بشار رأي الرجل الوحيد من القدماء، الذي استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار، والإسراف في إيثاره، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فقد كان إسحاق فيما يظهر شديد الجحود لبشار، غاليًا في السخط عليه، والازدراء له، وكان من النقاد وأهل الأدب من يُحاجُّه في ذلك، فيظهر عليه. غير أني لا أوافق إسحاق بن إبراهيم الموصلي في ما اندفع إليه من غلو وإسراف، فأنا لا أزعم أنا بشارًا لم يكن شيئا، ولا أزعم أن الجيد في شعره قليل، وإنما أزعم أن بشارًا كان شاعرًا موفور الحظ من الإجادة، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبي نواس، وهنا أخالف إسحاق بن إبراهيم الموصلي أيضا، فقد كان ازدراؤه لأبي نواس أشد من ازدرائه لبشار، كان لا يعتد بأبي نواس، ولعلنا نتحدث في يوم من الأيام عن إسحاق بن إبراهيم، فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة، التي كان يراها في بشرا وأبي نواس وغيرها من الشعراء، ولكننا اليوم نتحدث عن بشار، فلنحرص على ألا نتجاوزه إلى غيره.

كان إسحاق بن إبراهيم يرى أن بشارًا مختلف الشعر مضطربه، وأن ا لغث في شعره لا يعدله غث ولا رديء، وكان يقول إن الذي يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعرًا مجيدًا، وينشد:

إنما عظم سليمي قصب ... قصب السكر لا عظم الجمل
فإذا أدنيت منها بصلا ... غلب المسك على ريح البصل

وفي الحق أن في هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئا كثيرًا، ولكن أين الشاعر الذي يستطيع أن يبرأ من قول فج، ولفظ سخيف؟ ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر، لأنه قال هذين البيتين؟ وأنت تعلم أنه قال شعرًا آخر كثيرًا، منه الذي ابلغ منا لجودة منزلة رفيعة! فدونك الشاعر وشعره، فاقرأ هذا الشعر وانقده،

---

(١) نشرت بالسياسة في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢- ١٢ أبريل ١٩٢٤.

واحكم على جيدة بالجودة، وعلى رديئة بالرداءة، واجتهد في أن تبين الأسباب التي أتاحت للشاعر أن يجيد، والأسباب التي اضطرته إلى أن يسف ولا يقل أن من قال هذا الشعر الرديء لا يستطيع أن يقول جيدًا من الشعر. فلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع أن يقول رديئا من الشعر، وإذا انتهى بكما الحوار إلى هذا الحد، فلستما منتهيين إلى خير، ولا بالغين حجة، وإنما أنتما متعصبان، قد أسرف كل منكما في تعصبه، حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثًا، وأصبح من الحق أن تتركا وما أنتما فيه...

نعم! إسراف أن تحكم على الشاعر ببيت أو بيتين، وإسراف أن تحكم له ببيت أو بيتين، بل إسراف أن تحكم للشاعر المكثر أو عليه، بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد، بل لا ينبغي أن تسلك هذه السبيل في النقد؛ فهي عتيقة معوجة، لا تنتهي إلى نتيجة صحيحة ولا مقنعة، ولاسيما في هذا العصر، وإنما السبيل أن تبين روح الشاعر وشخصيته، وتحكم عليه أوله بما تتبين منهما، ولست أدري أين قرأت أن رجلا من نابغ الموسيقى الغبية أراد أن يحكم على شاب موسيقي، فاستمع إليه وهو يُوق، فلما سمعه يوقع ألحانًا مختلفة، قال: الآن عرفت صوت نفسك، كذلكم يجب أن نتبين أصوات نفوس الشعراء لنحكم لهم أو عليهم، وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذي لا يخلوا على ضخامته من حلاوة ولين، إنما هو صوت لا حظ له من الحلاوة، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك، ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة، فأنا لا أحبه ولا أميل إليه. والغريب أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه إلينا ولا يعطفنا عليه. فهو ثقيل، حتى حين يضحك، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك ويرضيك، وهو مر في جميع مواقفه، يأت بالنادرة المضحكة فتضحك، ولكنك لا تضحك ضحكا صريحا، خاليا من كل شائبة، وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئا من الألم، محس شيئا من المرارة. ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد، أبغض الناس بغضا شديدًا فأصبح إليهم بغيضًا، وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ولم يبق بينه وبينه إلا صلة الخوف والتهيب، يستغلها هو، ويتيحون له هم أن يسرف في استغلالها، ولقد تقرأ أن بشارًا عندما ضربه المهدي الضرب الذي أماته، لم يبق شريف من أشراف البصرة إلا تلطف له، وأرسل إليه الهدايا. ثم نقرأ أنه مات وأخرجت جنازته، فلم يتبعها من أهل البصرة أحد، إلا جارية له سوداء، سندية عجماء، تصيح: واسيداه! واسيداه! فأين هؤلاء الأشراف الذين تلطفوا له، واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أ، يموت؟ وما بالهم لم يشيعوه بعد أن مات؟ لم يتلطفوا له حبا ولا عطفا، وإنما تلطفوا له تملقًا وإشفاقًا، فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهرًا، كما كانت نفوسهم منصرفة عنه باطنًا. غير أني أخشى أن أتهم بالإسراف في بغض

بشار، وتشويه شخصيته، والله يعلم أني ما أحب بشارًا ولا أكرهه، ولا يعنيني أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة.

أنا أخشى أن أتهم بالإسراف، فاجتهد في أن أحملك على أن تشاركني في هذا الرأي الذي أراه، وعلى أن تحس معي أن بشارًا كان بغيضًا، حتى حين كان ينذر، ويريد أن يضحك. قالوا: كان بشار بين يدي المهدي ينشده شعرًا. فدخل يزيد بن منصور الحميري خال المهدي، وكانت فيه غفلة، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد، وسأله: ما صناعته؟ فأجابه بشار: أثقب اللؤلؤ. ولست أشك في أن جواب بشار بديع مضحك، مفحم أيضًا، ولهذا لم يستطع المهدي أن يمتنع عن الضحك، ولكني لا أشك في أن هذا الجواب قاس، يدل على حدة المزاج، ومرارة الطبع، وغضب المهدي، فشتم بشارًا، أو قل لام بشارًا على أن تندر على خلاه. قلم يكن جواب بشار على لوم المهدي أقل شدة من جوابه على سؤال يزيد، إذا أجاب: وماذا أصنع به؟ يرى رجلا أعمى بين يدي الخليفة ينشده شعرًا، فيسأله ما صناعته:. قالوا: ومر بشار بقاضي البصرة، فسمعه يقول في قصصه: من صام رجبًا وشعبان ورمضان بني الله له قصرًا في الجنة، صحنه ألف فرسخ في مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها، فالتفت بشار إلى قائده وقال: بئست والله الدار هذه في كانون الثاني!... وتحدّث رجل من أهل البصرة أنه خلا إلى امرأة في علوا بيت، وبشار تحته، أو في أسف البيت، وبشار فوقه، فنهق حمار في الطريق، فأجابه حمار في الجيران، وحمار في الدار، فارتجت الناحية بنهيقها، وضرب الحمر الذي في الدار الأرض برجله، وجعل يدقها بها دقًا شديدًا، فسمعت بشارًا يقول للمرأة: نُفِخَ – يعلم الله – في الصور، وقامت القيامة، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور، حتى يخرجوا منها! ولم يلبث أن فزعت شاه كانت في السطح، فقطعت حبلها، وعدت فألقت طبقًا وغضارة إلى الدار، فانكسرا، وتطاير حمام ودجاج كان في الدار لصوت الغضارة، وبكي صبي في الدار، فقال بشار، صح والله الخبر، ونشر أهل القبور من قبورهم، أزفت– يشهد الله– الآزفة، وزلزلت الأرض زلزالها، فقال لي بشار، فقلت قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار... ومر بشار برجل رمحته بغلة وهو يقول: الحمد لله شكرًا. فقال بشار: استزده يزدك... ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضُرب الضرب الذي مات له، كان كلما أوجعه السوط قال: حَسَّن، وهي كلمة تألم. فقال بعض الحاضرين: انظروا إليه لا يقول باسم الله، فقال بشار: ويلك! أتريد هو فأسمى عليه! ثم زعموا أن قومًا مروا به يحملون جنازة وهم يسرعون المشي بها، فقال بشار: ما لهم مسرعين! أتراهم سرفوا فهم يخافون أن يلحقوا، فيؤخذ منهم!... قالوا: وتوفى له ابن، فجزع عليه، فقيل له: أجر قدمته، وفرط افترضته، والله لئن لم أجزع للنقض، لا أفرح للزيادة!... وتحدث ابن زرين – وأنا أعتذر من رواية هذا الحديث، ولكنه يمثل

بشارًا أصدق تمثيل – قال: أتينا بشارًا، فإذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه، فلم يدعُنا إلى طعامه، للما أكل دعا بطست، فكشف عن سوأته، فبال، ثم حضرت الظهر والعصر، فلم يصل، فدنونا منه، فقلنا: أنت أستاذنا، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها، قال: وما هي؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك، فلم تدعنا إليه، فقال: إنما أذنت لكم أن تأكلوا، ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم. قال: ثم ماذا؟ قلنا: ودعوت بطست ونحن حضور ،فبلت ونحن نراك. فقال: أنا مكفوف، وأنتم بصراء، وأنتم المأمورون بغض الأبصار، ثم قال: مه؟ قنا: حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصلِّ، فقال: إن الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة..

أعتقد أن هذه الأحاديث التي تمثل ابتسام بشار وتندُّره، وما كان الله قد وهب له من ظرف وخفة روح، لا تعطي من بشار صورة الرجل الظريف، ولا ذي الروح الخفيف، وإنما تعطي منه صورة قاسية، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم، ولعله قد كره كل شيء وازدراه، فهو لا يحب إلا نفسه، و لا يعجب إلا بنفسه، ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحية والأحياء إلا انتهزها، ولم يكن في سخريته هينا ولا رفيقا، وإنما كان غليظًا فظًا قاسيًا. ثم إن هذه الأحاديث وما قدمت لك في الفصل الماضي، من أخبار بشار تمثله منافقًا في سرته، يداري الناس ويتقيهم ليعيش، ثم ينذرهم ويخيفهم لينعم بعيشه، ثم يسخر منهم متى أتيح له ذلك.

وإذن فهو أقلا ناس حظًا من صدق اللهجة والعاطفة، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه شعوره وعواطفه، ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه، وإنما ينبغي أن تبحث عما يريد أن يظهر، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل، ليس شعره شفافا كشعر أبي نواس، والحسين بن الضحاك، ومطيع، وحماد عجرد، وإنما هو شعر كثيف صفيق، لا يدل من نفس صاحبه على شيء، وهو كاذب دائما، لا يحفل بالكذب، ويغضب حين يلفته الناس إليه. إنه كان ضخمًا فاحش الضخامة قويًا شديد القوة، ثم لم يستح أن يقول:

إن فـــي بــــردي جســـما نـــاحلا لــــو توكـــأت عليـــه لا نهـــدم

هو إذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح، ولا حين يتغزل، ولا حين يرثي، ولعله إن صدق إنما يصدق في موضوعين اثنين من شعره: يصدق حين يهجو، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم، ويضع يده على مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم، وإنما أريد أ،ه يصدق حين يهجو، لأنه يصف نفسه، ويمثل سخطه على الناس، وما يضطره إليه هذا السخط الشديد من ألوان الإسراف والظلم، وضروب الاعتداء. ويصدق حين يذك نفسه وسوء مكانه من الناس، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم إياه، وبخلهم عليه بما كان ينتظر. هو في هذا الموضوع من شعره صادق، وقد يبلغ التأثير أحيانًا، وما أحسب أ،ك تخالفني في استحسان

هذه الأبيات، وصدق الشاعر فيهان وهي التي قالها حين مدح المهدي، وألح في مدحه، فحرمه المهدي، وألح في حرمانه:

خليلي إن العسر سوف يفيق ... وإن يسارا في غد لخليق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا ... صحوت وإن ماق الزمان أموق
أأدماء لا أستطيع في قلة الثرى ... خزوزا ووشيا والقليل محيق
خذي من يدي ما قل إن زماننا ... شموس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضي بأدنى معيشة ... ولا يشتكي بخلا على رفيق
خليلي إن المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له في التقى أو في المحامد سوق
ولا ضاف فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

ألست تحس معي أن الشاعر صادق متأثر، وأن تأثره هذا مؤثر أيضا! ولا تقل إنه يتكلف الكرم في هذه الأبيات، فلم يكن بشار بخيلا، ولا محبا للبخلاء، وإنما كان كريما، لا لأنه يحب الناس، ويعطف عليهم بكرمه وجوده، بل لأنه يزدري المال، كما يزدري الناس، وله أخبار في الكرم لا بأس بها، فقد كان له إخوة ليسوا بالميسورين، فكان يبيحهم ماله، وكانوا يسرفون في الانتفاع بذلك، حتى لقد كانوا يعدون على ثيابه فيلبسونها، وكانوا يتعاطون مهنًا لا ينظف صاحبها، فكانوا يتركون في هذه الثياب روائح لا تطيب، وكان بشار يكره ذلك، ويتبرم به، ولكنه لم يزجر إخوته، وإنما احتمل منهم ذلك. وزعموا أنه لبس في يوم من الأيام ثوبا من هذه الثياب، وكان أخ له قد ترك فيه رائحة لا تحب، فأنكر بعض الناس ذلك على بشار، فقال: إنما ذلك صلة الأرحام! وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشَّمَقْمَق من صلة؛ فقد كان بشار عوّده أن يمنحه مقدرًا من المال في كل عام، وطمع أبو الشمقمق في ذلك، حتى عده دينًا، ولعل كرم بشار على أني الشمقمق لم يكن بريئًا ولا خالصا لوجه الله، فقد كان بشار جبانا كما قلنا، وكان أبو الشمقمق شيء الهجاء، فكان بشار يخافه، ويتقيه بالمال، وله في ذلك نوادر كثيرة. وتحدث بعض الناس أنه دخل على بشار، فوجد بين يديه دنانير، فقال له بشار: خذ منها ما شئت، وقص عليه قصتها، وهي أن أبياتًا من شعره أعانت شابا على حب، فحمل إليه مئه دينار. لم يكن بشار بخيلا إذن، وهو لا يتكلف الكرم في هذه الأبيات التي قدمناها، وهو صادق حين يشكو، وحين يظهر أنه لا يحتمل ضيق الحياة؛ فقد كان واسع العيش مترفا، منعما في البصرة، وإنما كان هذه كله يأتيه من الشعر، ومدحه به أشراف النسن، وهجائه به أشراف الناس

أيضًا، فليس غريبا أن يسوءه حرمان المهدي إياه، وليس غريبا أن يحزنه هذا الحرمان، فقد كان بشار لنفسه مكبرًا، ولم يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن. ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدي: إنه لم يستحسن ما قلت فيه، فأجاب: لا! والله لقد قلت فيه كلاما لو قيل في الدهر لأمن الناس صرفه، وكلنه كذَّب أملي، لأني كذبت القول فيه؛ فانظر إليه كيف أبي أن يفترض إلا أن يكون شعره قد أعجب المهدي: وكيف أكبر نفسه على هذا، فازدري المهدي، ولام نفسه، لأنه مدحه بما ليس فيه!

على أن صدق بشار قليل نادر كما قلنا، وهو إن أخطأه الصدق والإخلاص فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة، فهو شاعر يعمل شعره، ولا يصدر الشعر عنه عفوا، نريد الشعر الجيد، الذي يستحق أن يوري ويبقى، فأما غير ذلك، فقد كان يصدر عن بشار في غير تكلف ولا عناء، وكأن فطنته كانت كهذه الأرض الرخوة، التي امتلأت بالماء، كأنها إسفنجة، يكفي أن تمسها لينبجس منها الماء، ولكن هذا الماء لم يكن عذبًا في كل وقت، فقد كان لا يخلو من مرارة وفجاجة، ربما لم يخل من نَتن أيضا، ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة، حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم أن شعره الجيد لا يقل عن أثنى عشر ألف بيت، وأنه غير مسرف في ذلك، لأن له اثنى عشر ألف قصيدة، فيجب أن يكون في كل قصيدة بيت جيد. وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس، أو في بلد غير تونس، وأن من الأدباء من يعمل لنشره [1]، فإذا كان هذا الخبر صحيحًا فنستطيع أن ندرس بشارًا ونحكم عليه من كَثَب، وأنا لهذا أحتفظ بحكمي عليه، وأستبيح لنفسي تغيير رأيي فيه، إذا ظهر هذه الديوان، وإن كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرني ديوان بشار إلى أن أغير رأيي في بشار وشعره. فليس بين يدي من شعره مقدار عظيم، ولكن هذا المقدار القليل الذي أدرسه وأنقده، يكفيني لأتمثله، وأحكم عليه، وسنرى يوم يظهر الديوان: أمخطئ أنا أم مصيب.

---

(١) يطبع الآن في القاهرة وقد طبع منه الجزء الأول.

بين يدي غزل لبشار ليس بالكثير، ولكنه ليس بالقليل أيضًا، وهو سواء أكان قليلا أم كثيرًا، لا يمثل عاطفة ولا شعورًا صادقًا، وإنما تمثل أمرين أثنين: يمثل تهالكا على اللذة، وإفحاشا في هذا التهالك، وافتنانا فيه أيضًا، دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقا أو أدبا أودينا، ويكفي أن تعلم أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام، ومن بينهم واصل ابن عطاء والحسن البصري ومالك بن دينار جميعًا، قد هتفوا به، وشكَوْه بعد أن وعظوه ونصحوا له؛ ويمثِّل رغبة في الفساد وإذاعة السوء، فلم يكن بشار يكتفي بأن يكون من أصحاب اللذة المتهالكين عليها، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب، وأدناها وأشدها شيوعًا في النساء وفتيات الهوى، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات، وأن يتأثرن به، والغريب أنك لا تجد بشارًا يسرف في اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر، إلا الغزل والهجاء، وهذا وضاح، فهو إذا تغزل أراد أن يفهمه النساء، وأن يكون شعره ذائعًا، يتناقله الشبان وأهل الخلاعة، وهو إذا هجا فقد كان يريد أن يؤذي من يهجو، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشًا مقذعًا، وكان مع ذلك سهلا يمنك فهمه وروايته. ولست أشك في أن المهدي لكم يكن جائزًا ولا مسرفًا حين نهى بشارًا عن الغزل، وحين أنذره بالموت إن عاد إليه، ويكفي أن أروي لك هذه القصيدة التي غضب لها المهدي، لتعلم أن غزل بشار لم يكن من الجودة والظهر بحيث يؤسف عليه:

قد لامني في خليلتي عمر ... واللوم في غير كنهه ضجر
قال: أفق، قلت لا، فقال: بلى ... قد شاع في الناس منكما الخبر
قلت: وإذ شاع ما اعتذارك مما ... ليس لي فيه عنده عذر
ماذا عليهم! وما لهم خرسوا ... لو أنهم في عيوبهم نظروا
أعشق وحدي ويؤخذون به ... كالترك تغزو فتؤخذ الخزر
يا عجبا للخلاف يا عجبا ... بفي الذي لام في الهوى الحجر
حسب وحسب الذي كلفت به ... مني ومنه الحديث والنظر
أو قبلة من خلال ذاك وما ... بأس إذا.....
أو عضه في ذراعها ولها ... فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسه دون مرطها بيدي ... والباب قد حال دونه الستر
والساق براقة مخلخلها ... أو مص ريق وقد علا البهر
واسترخت الكف للعراك وقا ... لت: إيه عني والدمع منحدر
انهض: فما أنت كالذي زعموا ... أنت وربي مغازل أشر
قد غاب اليوم عنك حاضنتي ... والله لي منك فيك ينتصر
يا رب خذ لي فقد ترى ضرعي ... من فاسق جاء ما به سكر

أهــوى إلـــى معضـــدي فرضضـــه   ذو قـــــوة مــــا يطــــاق مقتـــــدر
ألصـــق بــيس لحيــة لـــه خشـــنت   ذات ســــــواد كأنهــــــا الإبــــــر
أقســـم بـــالله لا نجـــوت بهـــا   فاذهـــب فأنـــت المســـاور الظفـــر
كيـــف بـــأمي إذا رأت شـــفتي   أم كيـــف إن شـــاع منـــك ذا الخبـــر
قـد كنـت أخشـى الـذي ابتليـت بـه   منـــك، فمـــاذا أقـــول يـــا عبـــر
قلـت لهـا عنـد ذاك: يـا سـكني   لا بـــأس، إنـــي مجـــرب خبـــر
قـــولي لهـــا: بقـــة لهـــا ظفـــر   إن كـــان فـــي البـــق مـــا لـــه ظفـــر

روي شيء من هذه القصيدة لمطيع، ولكن هذا من خطأ الرواة، وأنت تقرأ هذه القصيدة، فإذا أولها جيد متين مستقيم، لا نكير فيه، ولكن الشاعر لا يكاد يبدأ هذه القصيدة الخليعة، حتى يفحش، لا في اللفظ، فليس في اللفظ فحش كثير، بل في المعنى، فالمعنى كله فحش. ولست أريد أن ألفتك إلا إلى بيتين اثنين من هذه القصيدة، أحدهما يبين مهارة بشار في محاكاة النساء، أو نوع من النساء حين يتفجعن في تهالك ولذة، وهي قوله:

قـد كنـت أخشـى الـذي ابتليـت بـه   منـــك فمـــاذا أقـــول يـــا عبـــر

وانظر إلى قوله (يا عبر). والآخر يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التي تعبث بالناس، وتسخر منهم في عنف وقسوة، وأنا اعتقد أن نفس بشار وخلقه وقلبه، كل هذا مختصر في هذا البيت.

قـــولي لهـــا بقـــة لهـــا ظفـــر   إن كـــان فـــي البـــق مالـــه ظفـــر

ولست أروي لك غير هذه القصيدة من خلاعة بشار، فهي تكفي، وأظن أنها تقوم عذرا لك غير للمهدي في نهيه بشارًا عن ذكر النساء، وللوعاظ وللعلماء في سعيهم ببشار إلى السلطان، ولاسيما أن أمر بشار لم يكن قد وقف عند قول هذا الكلام الفاحش وإذاعته، وإنما كان النساء يترددن إليه ويشاركنه في اللهو، وكان هو يطلب إليهن المواعيد، فمنهن من كانت تسايره صادقة وفيه، ومنهن من كانت تعبث به عبثًا منكرًا، وأخبار ذلك في الأغاني كثيرة، وهي لا تشرف بشارًا، ولا تدل على أنه كان يكرم نفسه، ويتأدب بالآداب التي كانت تفرضها عليه آفته، وأقلها الحياء والوفاء، ولكنه كان فاجرا مفطورًا على الفجور.

هل أحب بشار حبا صادقًا، هذا سؤال أحاول أن ألتمس الجواب عليه في شعر بشار، فلا أجد إلى ذلك سبيلا، فقد قلت لك إن شعره كثيف صفيق، لا يدل على عاطفة، وإن الكذب فيه كثير ،والتكلف فيه لا حد له، أريد تكلف المعاني، وأنا أعلم أن بشارًا مشغوف بعبده، وقال فيها شعرًا كثيرًا جدًا، تعنى المعنون، وأعلم أن عبده، مالت إليه، وكان بينها وبينه مودة، ولكني أقرأ ما بقي لنا من شعر بشار في عبده فلا أجد فيه شيئا يمثل الحب الصادق القوي حقا، وقد أقرأ هذه الأبيات فأعجب، بها وأتأثر لها وأحسب الشاعر صادقا، ولكني لا ألبث أن أضحك، لأني أعلم أن الشاعر كاذب، وأن صاحبته تعلم منه هذا الكذب، وما أشك في أنها كانت تضحك منه أيضا، وتقبله لجودته الفنية ليس غير، وهذه الأبيات مشهورة يحفظها الناس جميعًا لبشار وهي:

لم يطل ليلي ولكني لم أنم ... ونفي عني الكرى طيف ألم
رفهي يا عبد غني واعلمي ... أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم
وإذا قلت لها جودي لنا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار، لخدعنا الرجل عن نفسه، فصدقناه، وخيل إلينا إنه كان لحب عبده لا ينام، ولكن من يدرينا أنه لم يكن ينام أهدأ النوم ألذه، ثم يزعم السهر والأرق، كمنا كان يزعم النحافة والنحول!

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها، وهي لا تخلو من جودة، وأنا أرويها، لأن قصتها لا تخلو من عجب:

أيها الساقيان صبا شرابي ... واسقياني من ريق بيضاء رود
إن دائي الظما وإن دوائي ... شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كغر الأقاحي ... وحديث كالوشي وشي البرود
نزلت في السواد من حبه القلـ ... ـب، ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت: نلقاك بعد ليال ... والليالي يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقائي، وعندي ... زفرات يأكلن قلب الحديد

قالوا: فطرب الوليد وقال: من لي بمزاج كأسي هذه من ريق سلمي، فيروي ظمئ، وتطفأ غلتي. ثم بكى حتى مزج كأسه بدمه، وقال: إن فاتنا ذاك فهذا.

في هذا الشعر متانة وجودة ورقة، ولكني لا أحب أوله، وربما استخفته، ولست أدري كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشارًا من ريق صاحبته!... وأحسب أن هذه ليست صناعة السقاة. وإذا كانت هذه القصة صحيحة، فهي إنما تمثل رقة هذا الشاعر، الذي أحبُّه وأعطف عليه، وهو الوليد بن يزيد، الذي فاته ريق سلمي، فمزج كأسه بالدمع، يسفحه البكاء عليها.

ولنترك عزل بشار، وننتقل إلى شيء أخر من فنون شعره، ولكني في إيجاز فقد أطلنا.

لبشار قصيدتان اشتهرتا بين الرواة اشتهارًا عظيما، إحداهما ميمية، قدمها أبو عبيدة على ميميات جرير والفرزدق، وفتن بها الأصمعي،وتناقلها أهل بغداد، وأعجبوا به إعجابا عظيما، ولهذه القصيدة قصة، تمثل لنا نفس بشار أيضا، قالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها، ويحرضه فيه على المنصور، ويهجون فيها المنصور. فلما قمعت ثورة إبراهيم وقتل، خاف بشار، فحول القصيدة، كأنه لم يمدح بها إبراهيم، ولم يهج بها المنصور، وكأنه هجا به أبا مسلم الخرساني، فوضع أبا مسلم موضع أبي جعفر، وحذف من أبيات القصيدة ما لم يكن سبيل إلى تحويله، وهي:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ... ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم يتسمع بقتل متوج ... عظيم، ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسري رهطه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس أحلام نائم
وقد لاكا لا يخشى انقلاب مكيدة ... عليه، ولا جري النحوس الأشائم
مقيما على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنايا حاسرات العمائم
وقد ترد الأيام غرا وربما ... وردن كلوحا باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى ... وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادرا في طريقهم ... ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله ... وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله ... عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم
فرم وزرا ينجيك يا بن سلامة ... فلست بناج من مضيم وضائم
لحي الله قوما رأسوك عليهم ... وما زلت مرءوسا خبيث المطاعم
أقوم لبسام عليه جلاله ... غدا أريحيا عاشقا للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدي ... جهارا ومن يهديك مثل ابن فاطم
سراج لعين المستضيء وتارة ... يكون ظلاما للعدو ا لمزاحم
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل اختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهويني للضعيف ولا تكن نؤوما فإن الحزم ليس بنائم
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه شبا الحرب خير من قبول المظالم

القصيدة جيدة، ولعلها من أجود ما قال بشار، وهو صادق العاطفة فيها، والناس صادقون حين استحسنوها؛ هو صادق لأنه كان يكره بني العباس كرهًا شديدًا، ويؤثر عليٍّ إيثارًا شديدًا، ولم يكن يكره بني أمية، ولعله آسف على دولتهم، فليس عجيبًا أن يفرح لثورة العلويين، ويغريهم بالعباسيين في هذه الأبيات المضطربة المتأججة، وكان هؤلاء العلماء الذي أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضا، كعامة أهل العراق، يظهرون لبني العباس غير ما يضمرون، ثم كان الناس جميعا ينقمون من بني العباس ظلما واستبداد بالأمر، وازدراء للزعماء من العرب،، من الموالي أيضا؛ فليس عجبا أ يحبوا شعر بشار وأبياته في الشورى، فهذا الحب وهذا الإعجاب يمثلان قبل كل شيء ما تضمر الشعوب للملوك المبغضين إليها. على أن صدق بشار ليس وحده الذي يحلي هذه القصيدة، فلفظها متين كما ترى، ومعانيها جياد، وإن كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة من القصائد، ولكن بها قوة غير مألوفة.

أما القصيدة الأخرى فهي البائية التي مدح بها ابن هبيرة، وقال فيها:

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وفيها هذا البيت المشهور، الذي أعجب به الناس إعجابا شديدًا واستكثروه على شاعر ضرير، وهو:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

وليس البيت كثيرا على بشار، فبشار نفسه ينبئنا بأنه قلد فيه قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

فأما تشبيه السيوف بالكواكب، وتشبيه مثار النقع بالليل، فشيء مألوف تحدث عنه الشعراء كثيرًا، وليس لبشار فيه إلا هذه الصورة الشعرية، التي لم يخترعها كلها، وإنما تأثر فيها شاعرا قديما كما ترى.

وجملة القول في بشار أنه كان شاعرا غزير المادة جدًا، ولكن الجيد في هذه المادة لم يكن صادقًا في شعره ولا مخلصا، وإنما كان يتكلف المعاني في أكثر الأوقات، وكان يتكلف الألفاظ أيضًا، ولم يكن محببا ولا جذابا، ولا لينا رقيق الطبع والحاشية، وإنما كان قويا جبارا، مبغضا إلى الناس، مبغضا لهم، وإذا أردت إن تعرف الفن الذي برع فيه بشار حقا، فهو فن الهجاء، وقد عللنا هذا. وفي الحق أنه قتل الهجاء، وأن الهجاء قتله أيضا، فقد كان فاسقا، بل كان زنديقا، ولم ينفعه تستره ولا تكتمه، ولكن الزندقة لم تقتله، وإنما اتخذت وسيلة على قتله. والذي قتله إنما هو هجاءه للمهدي بشعر لا أستطيع أن أرويه لك، وهجاءه ليعقوب بن داود وزير المهدي، ولأخيه صالح بن داود، قال الرواة إن بشارا وجد على المهدي وجدا شديدا حين حرمه، وأعطى غيره من الشعراء، فذهب ذات يوم إلى حلقة يونس بن حبيب النخوي، فسأل هل هنا من يحتشم؟ فقيل: لا، فانشد بيتين شنيعين في المهدي، لم يلبث يونس المهدي وأصحابه أن حملوها إلى يعقوب، ولم يلبث هذا أن حملهما إلى المهدي في تحفظ وتملق وإغراء، قالوا: فغضب المهدي غضبا شديدًا، وقال له يعقوب إنه زنديق، قد قامت عندي البينة عليه، فأمر المهدي أن يُضرَب ضرب التلف، فضرب سبعين سوطا مات لها. قالوا: وقد وجد في بيته طومار أثبت للمهدي أنه لم يكن زنديقا ولا كافرا، فندم المهدي لقتله. وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح، فالهجا وحده هو الذي قتل هذا الشاعر، ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار، يعلن في المجامع العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء.

والبة بن الحباب [1]

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك في أنه كان أبعد الشعراء أثرًا في عصره، ولا أشك في أنه كان من أنبههم ذكرًا، ولا أشك في أنه كان من أشدهم إمعانا في المجون، وإسرافا في الفسق والفجور، وهو والبة ابن حباب، ولكني مع الأسف لا أستطيع أ، أحدثك عنه بشيء ذي غناء، لأن الله لم يقدر لشعره البقاء، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة، فذهبت حياته كما ذهب أدبه، دون أن تكون لن إلى درسهما سبيل، إلا أن تكشف الأيام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار، فيه طرف من أخبار هذا الرجل وأشعاره. ونحن مضطرون إلى أن نعرض عن درسه الآن، ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين الذين ندرسهم في هذه الفصول. نسجل أسمه بين أسماء هذا النفر، لأننا واثقون بأنه قد كان منهم، ومن زعمائهم، بل كان أستاذا من أساتذتهم في القول والعمل أيضا؛ فقد كان والبة بن الحباب أستاذا لأبي نواس، تولى تأديبه وتعليمه ألوان الشعر والمجون، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان، ويظهر أنه قد كانت بن الأستاذ وتلميذه عشرة سيئة، لم يتخرج من روايتها أبو الفرج، ولم يتحرج من روايتها أبو نواس نفسه، ولعل والبة هو الذي مهد لأبي نواس هذه السبيل المنكرة، التي سلكها طول حياته، فجعلته مبغضا، وجعلته محببا إلى الناس. جعلته مبغضا لسوء سيرته، وجعلته محببا لحسن شعره، وشدة ظرفه، وتقدمه في الأدب إلى حد لم يبلغه كثير من معاصريه.

كان والبة بن الحباب هذا عربيًا صميمًا، من بني أسد وكنا نود لهذا السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره، لنعرف كيف كان بلاء العرب الصريحين في الزندقة والمجون، وهذا اللون من ألوان العبث. فلم أحدثك إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن الموالي، أو من يشك في عربيتهم، أما والبة فلم يكن مولي، ولم يكن نسبه موضع شك، ومع ذلك فنحن مضطرون إلى أن نكتفي بهذه الأحبار القصيرة المبتورة التي نقلها إلينا أبو الفرج عن والبة. وهذه الأخبار لا تمثل لنا والبة أقل فجورا وعبثا من أبي نواس، ولا من مطيع، ولا من حماد، وربما كان أشد منهم صراحة في القول، وإسرافا في الفحش، فالناس يتحدثون أن المهدي أو الرشيد كره لقاءه ومنادمته، لبيتين قالهما، فجعل منادمته شرا على كل نديم. أما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه، لأنا لا نحفظ منه إلا أبياتا، ولكن أبا الفرج يحدثنا أنه كان بارعا في وصف الخمر وما يتصل من العبث

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢– ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤.

والغزل والمجون. وإذا ذكرنا الغزل، فإنما نذكر الغزل بالغلمان، ويحدثنا أنه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر، وأنه حاول أن يهاجي أبا العتاهي، فلم يستطع أن ينال منه شيئا،بل لم يستطع أن يثبت في بغداد، وإنما اضطر إلى أن ينصرف عنها هاربا أو كالهارب.

فندع والبة إذن، ولننصرف إلى غيره من شعراء هذا العصر، وإلى من ننصرف؟ ننصرف إلى أبان بن عبد الحميد اللاحقي، فهو خليق أن نقف عنده حينا، لا لأنه يمكن أن يقرن إلى بشار، أو إلى مطيع، أو إلى أبي نواس، فهو أقصر باعا، وأضيق ذرعا من أن يثبت لرجل من هؤلاء في الشعر وقوته، واختلاف فنونه، وحسن لفظه، ورقة معانيه، وصدق لهجته، ولا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء في هذه الخلال، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى، ويفوقهم في بعضها، وله نواح تستحق العناية، وتدعوا إلى التفكير.

لم يكن خفيف الظل، ولا محببا إلى الناس، وإنما كان فيه شيء من الثقل ينفر منه، ويصرف عنه، وكان الذين يجبونه قليلين، ولني يكون حظه من حبنا نحن بأوقر من حظه من حب معاصريه، قلنا: إنه يثبت لهؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها، يثبت لهم في الزندقة، فلم يكن أقل منهم عبثًا ولا مجونًا، أو قل: لعله كان أقل منهم عبثا ومجونا في اللفظ، ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم، ولعل ضميره كان أ قبح من ضمائرهم، ولعله من أولئك الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقا، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة، لا عن شك أو رغبة في اللذة، والذين كانا يتخذون لحياتهم العامة قاعدة، تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين، أحدهما يكره العرب ودينهم، ويزدريهم ويزدري دينهم، ويضمر لهم ولدينهم حقدا شديدا، والآخر يُظهر، الإسلام ويتكلفه، ويمتدح به، ويحرص على أن يحسن رأي الناس فيه. من هذه الناحية هو قريب من بشار، ولكن بشارًا غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه، فكان إلى العبث اللفظي، وكان إلى اللذة والهوى أقرب منه إلى هذا الكفر والجحود، يقومان على عقيدة ثابتة، وعلى رأي سياسي بعينه.

كان أبان يكره العرب ويزدريهم، ولكنه كان في الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب إليهم، ويستفيد من هذا الخلاف الذي شجر بينهم، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها، كان فارسيا قبل كل شيء،يريد أن يثأر للفرس. ويعيد سلطانهم إلى الأرض، ولكنه لم يكن محمقا ولا قصير النظر، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور في العصر الذي كان يعيش فيه من طريق مباشرة، كما يقول أهل هذا العصر، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب، ويقول مكانه سلطان فارسي، فلم يكن يطمع في ذلك، ولا يسمو إليه، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ في الانتقام للفرس، ورد السلطان الفعلي إليهم، إذا أخطأهم السلطان الشعري واللفظي، وهي التقرب إلى الخلفاء، وأخذهم من مواضع الضعف، و السيطرة عليهم، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور، ويعتمدوا عليهم في ذلك، فيتركوا السلطان الفعلي للفرس، ويحتفظوا لأنفسهم

بظاهرة القوة، واسمها ومقامها العالي. وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول في ذلك العصر، بعد أن أخفقت تجربة أبي مسلم، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت، ولا لحزبه إلا الشر كله، وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة، الذي فطنوا للأمر فطنة حسنة، فأحسنوا العمل والتدبير، وتصرفوا تصرف الماهر ذي الحيلة الواسعة، والأمل البعيد، يسعى إليه في رفق وثبات، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا،ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة، فتعرضوا لنفس ما تعرض له أبو مسلم، وأصابتهم تلك النكبة، التي كانت أعظم وقعا، وأبعد أثرا من نكبة أبي مسلم. وكان أبان صديقا للبرامكة، متصلا بهم أشد اتصال يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم، جدها وهزلها، صعبها وهينها، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي، وبالغوا في ذلك، حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات، فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدهم غضبا أبو نواس، الذي كان يكره البرامكة كرها شديدا، كما قلت لك، حينما كنت أدرس أبا نواس، غضب الشعراء وغضب أبو نواس خاصة، وكانت بينه وبين أبان ما هجاه، تستحق أن نقف عندها حينا، لأنها تظهر لنا دين أبان ومذهبه، ولاسيما أ، أبانا قد عجز عن أن يرد على أبي نواس بنحو ما هجاه أبو نواس، فقد هجاه أبو نواس، فاتهمه بالكفر والزندقة، اتهاما صريحا منكرا، لا يخلو من فحش، ولم يستطع أبان أن يرد على خصمه من هذه الناحية، فرد رد الضعفاء، فشتم أبو نواس، وناله من أمه وأبيه... ولكن هذا الشتم لا يدفع تهمه، ولا يعفي من إثم، وإليك القصيدة التي قالها أبو نواس يهجوا بها أبان بن عبد الحميد، وهي تمثل رأي أبان حقا.

شـــهدت يومـــا أبـــان ... لا در در أبـــــان
ونحـــن حضـــر رواق الـــ ... أميـــر بـــالنهروان
حتـــى إذا مـــا صـــلاة الـــ ... أولـــي دنـــت لأوان
فقـــام منـــذر ربـــي ... بـــالبر والإحســـان
وكلمـــا قـــال قلنـــا ... إلـــى انقضـــاء الأذان
فقـــال: كيـــف شـــهدتهم ... بـــذا بغيـــر عيـــان
لا أشـــهد الـــدهر حتـــى ... تعـــاين العينـــان
فقلـــت: ســـبحان ربـــي! ... فقـــال: ســـبحان مـــاني!
فقلـــت: عيســـى رســـول ... فقـــال: مـــن شـــيطان
فقلـــت: موســـى نجـــي الـــ ... ـــمهيمن المنـــان
فقـــال: ربـــك ذو مقـــ ... ـــله إذن ولســـان
أنفســـــه خلقتـــــه ... أم مـــن؟ فقمـــت مكـــاني

وقلـــت ربـــي ذو رحـــ ـــمة وذو غفـــران
وقمـــت أســحب ذيلـــي عـــن هـــازل بـــالقران
عـــن كـــافر يتمـــرى بـــالكفر بـــالرحمن
يريـــد أن يتســـاوى بالعصـــبة المجـــان
بعجـــرد وعبـــاد والـــوالبي الهجـــان
وابـــن الإيـــاس الـــذي نـــا ح نخلتـــي حلـــوان
وابـــن الخليـــع علـــى ريـــ ـــحانة النـــدمان
إنـــي وأنـــت.......... ....

فهذه القصيدة تمثل لا رأي أبان وحده، بل تمثل أيضا رأي هذه الطائفة من الفرس، الذي أظهروا الإسلام دينا، ورفضوا فيما بينهم وبين أنفسهم، ورفضوا معه المسيحية واليهودية أيضا، وأبو أن يؤمنوا إلا بما هو فارسي، لأنهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهبا في السياسة. ثم هي تمثل في الوقت نفسه رأي أبي نواس في أبان من الوجهة الأدبية، فهو يكره أن يقرنه إلى مطيع، وحماد، والحسين بن الضحاك الخليع، والبة بن الحباب، وفي الحق أنه لا يقرن إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا، ولكنه يفوتهم في الزندقة والإلحاد، لأنه كان يتخذ الكفر رأيا، لا وسيلة إلى اللذة، ولست أروي لك رد أبان على أبي نواس، فهو فحش كله، وتستطيع أن ترجع إليه في الأغاني إن شئت، على أنه لا يدفع حجة، ولا يبرئ من تهمة. وانظر إلى هذه الأبيات التي قالها أبو نواس في هجاء أبان، دون أن يعرض لدينه أو رأيه، وإنما أراد أن يجزئ شتما بشتم، وسبا بسب. ولست أرويها كلها، وإنما أترك منها ما فيه فحش.

صـــحفت أمـــك إذ سمـــ ـــتك فـــي المهـــد أبانـــا
صـــيرت بـــاء مكـــان التـــ ـــاء تصـــحيفا عيانـــا
قـــد علمنـــا مـــا أرادت لـــم تـــرد إلا أتانـــا
....

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صوته التي أعطاها هو من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة، فكتب إليهم هذه القصيدة، وستقرؤها فترى أن الرجل معجب بنفسه، مدل بعلمه وأدبه، تياه لا حد لتيه وغروره، وهي:

أنـا مـن بغيـة الأميـر وكنـز ... مـن كنـوز الأميـر ذو أربـاح
كاتـب، حاسـب، خطيـب، أديـب ... ناصـح، راجـح علـى النصـاح
شـاعر مفلـق أخـف مـن الريـ ... ـشة ممـا يكـون تحـت الجنـاح
لـي فـي النحـو فطنـة واتقـاد ... .
ثـم أروي مـن ابـن سـيرين للعـ ... ـلم بقـول منـور الإفصـاح
ثـم أروي مـن ابـن سـيرين للشـ ... ـعر وقـول النسـيب والأمـداح
وظريـف الحـديث مـن كـل فـن ... وبصـير بترهـات المـلاح
كـم وكـم قـد خبـأت عنـدي حـديثا ... هـو عنـد الملـوك كالتفـاح
فبمثلـي تخلـو الملـوك وتلهـو ... وتتـاجى فـي المشـكل الفـداح
أيمـن النـاس طـائرا يـوم صـيد ... لغـدو دعيـت أو لـوراح
أبصـر النـاس بـالجوارح والخيـ ... ـل وبـالخرد الحسـان الصـباح
كـل ذا قـد جمعـت والحمـد للـ ... ـه علـى أننـي ظريـف المـزاج
لسـت بالناسـك المشـمر ثوبيـ ... ـه ولا المـاجن الخليـع الوقـاح
لـو رمـي بـي الأميـر- أصلحه اللـ ... ـه- رماحـا ثلمـت حـد الرمـاح
مـا أنـا واهـن ولا مسـتكين ... لسـوى أمـر سـيدي ذي السـماح
لسـت بالضـخم يـا أميـر ولا القـز ... م ولا بالمجحـدر الدحـداح
لحيـة جعـدة ووجـه صـبيح ... واتقـاد كشـعلة المصـباح
إن دعـاني الأميـر عـاين منـي ... شـمريا كالبلبـل الصـياح

أرأيت شاعر أشد غرورا وافتتانا بنفسه من هذا الشاعر! على أنه لم يلبث فيما ذكر الرواة أن أخذ يسعى بأبي نواس عند البرامكة، فاغتاظ أبو نواس، ونقض عليه قصيدته هذه، فقال:

أنـت أولـى بقلـة الحـظ منـي ... يـا مسـمى بالبلبـل الصـياح
قـد رأوا منـه حـين غنـى لـديهم ... أخـرس الصـوت غيـر ذي إفصـاح
ثـم بـالريش شـبه الـنفس بالخفـ ... ـة ممـا يكـون تحـت الجنـاح
فـإذا الشـم مـن شـماريخ رضـوى ... عنـده خفـة نـوى المسـباح
لـم يكـن فيـك مـن صـفاتك شـيء ... غيـر خلـق محجـدر دحـداح
لحيـة ثطـة ووجـه قبـيح ... وانثنـاء عـن النهـي والصـلاح
فيـك مـا يحمـل الملـوك علـى الخـر ... ق ويـزري بالسـيد الجحجـاح
فيـك تيـه وفيـك عجـب شـديد ... وطمـاح يفـوق كـل طمـاح

بارد الظرف مظلم الكذب ذوخر ... ق معيد الحديث نزر المزاح
فالذي قلت فيك باق صحيح ... والذي قلت ذاهب في الرياح

كان أبان إذن مسرفا في حب نفسه، والإعجاب بها، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان، اتصل الهجاء بينه وبين أبي نواس، كما اتصل بينه وبين رجل آخر، كان صديقا له، وهو المعذل، ولكن هجاءه قبيح، ليس منه ما يصلح للرواية، على أن المتانة تنقصه، وهو من هذا الهجاء الذي تسمعه، فتنفر منه قائله، لا ممن قيل فيه. ولم يكن أبان مغرورًا ولا مفتونا بنفسه، ولا قبيح اللسان فحسب، بل كان شريرًا قاسيًا، يؤثر الشر، ويجد فيه لذة. وقد روي له أبو الفرج قصتين، كلتاهما تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر، كما أن كلتيهما تعطينا صورة من شعره، ومن الحياة في عصره. قالوا: كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثقفي يقال له محمد بن خالد، وكان عدوا لأبان، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة، هي عمارة بنت عبد الوهاب، مولاة جنان، التي كلف بها أبو نواس، وأكثر فيها الشعر، وكانت عمارة غنية موفورة الثروة، فاغتاظ أبان لهذا الزواج، وقال هذه القصيدة، التي بلغت عمارة، فأفسدت زواجها:

لما رأيت البز والشارة ... والفرش قد ضاقت به الحارة
واللوز والسكر يرمى به ... من فوق ذي الدار وذي الدارة
وأحضروا الملهين لم يتركوا ... طبلا ولا صاحب زمارة
قلت لماذا؟ قيل: أعجوبة ... محمد زوج عمارة
لا عمر الله به بيته ... ولا رأته مدركا ثاره
ماذا رأت فيه وماذا رجت ... وهي من النسوان مختارة
أسود كالسفود ينسي لدى التـ ... ـنور بل محراك قيارة
يجري على أولاده خمسة ... أرغفة كالريش طيارة
وأهله في الأرض من خوفه ... إن أفرطوا في الأكل سيارة
ويحك فري واعصبي ذا به ... فهذه أختك فرارة
إذا غفا بالليل فاستيقظي ... ثم اطفري إنك طفارة

فلما وصل الشعر إلى عمارة فرت، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه الأبيات:

obeikandl.com

فصـــــعدت نائلـــــة ســـــلما تخـــــاف إن تصـــــعده الفـــــارة
"ســـرور" غرتهـــا فـــلا أفلحـــت فإنهـــــا لخنـــــاء غـــــراره
لـــو نلـــت مـــا أبعـــدت مـــن ريقهـــا إن لهـــــا نفثـــــه ســـــحارة

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة وأنكر، وأقبح منها عاقبة وأثرًا؛ قالوا: كان لأبان جار، وكان يعاديه، فاعتل علة طويلة، وأرجف أبان بموته، ثم صح من علته، وخرج، فجلس على بابه، فكانت علته من السل، وكان يكني أبا الأطول، فقال له أبان:

أبـــــا الأطـــــول طولـــــت ومـــــا ينجيـــــك تطويـــــل
بـــــك الســـــل ولا والله ـــــه مـــــا يبـــــرأ مســـــلول
فـــلا يغـــررك مـــن ظنـــ ـــك أقـــوال أباطيـــل
أرى فيـــــك علامـــــات وللأشـــــياء تأويـــــل
هـــزالا قـــد بـــرى جسمـــ ـــك والمســـلول مهـــزول
وذبانـــــا حواليـــــك فموقـــــوذ ومقتـــــول
وحمـــى منـــك فـــي العظـــم فأنـــت الـــدهر مملـــول
وأعلامـــــا ســـــوى ذاك تواريهـــــا الســـــراويل
ولـــو بالفيـــل ممـــا بـــ ـــك عســـر مـــا نجـــا الفيـــل
فمـــا هـــذا علـــى فيـــك قـــلاع أو دماميـــل
ومـــا بـــال مناجيـــك يـــولي وهـــو معلـــول
فـــإن كـــان مـــن الخـــوف فقـــد ســـال بـــك النيـــل
وذا داء يزجيـــــــــك فـــــلا قـــــالا ولا قيـــــل

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب، ودخل منزله، فما خرج منه بعد ذلك حتى مات.

قلت: إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر، التي اعتادها الشعراء، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين، نعني أنه أبتكر في الأدب العربي فنا لم يتعاطه أحد من قبله، وهو فن الشعر التعليمي، وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية، ولاسيما في العصور المتحضرة، كعصر العباسيين، وإنما قيمته في تلك العصور التي لا حظ لها من علم ولا من حضارة، والتي تنتشر فيها الكتابة، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويفيد، لأنه أيسر حفظا من النثر، ولعل أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني

"هيسود"، الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيح، ونظم طائفة من القصائد، فيها جمال شعري لا بأس به، ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة، مما كانا اليونان يرونه علما في ذلك الوقت، فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم، كما نظم هذه القصيدة المشهورة، التي تعرف بالأعمال والأيام، والتي بين فيها فصول السنة، وما يلائمها من ضروب الزراعة، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن، إلى غير ذلك، مما تجده في هذه القصيدة الجميلة.

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي، فأنشأ كثيرا من الشعر التعليمي، طرق فيه فنونا مختلفة، من العلم والحكمة والدين، وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب "كليلة ودمنة" ليسهل عليهم حفظه، فأعطاه يحيي بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن يحيي خمسة آلاف، واكتفى جعفر بأن يكون روايته. وروي أو الفرج أبياتًا أربعة من هذا النظم، ولكن صديقا لي دلني على كتاب، أو قطعة من كتاب مخطوط، توجد في دار الكتب المصرية، وهو كتاب الأوراق للصولي، وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة، ولست أريد أن أروي لك منه إلا شيئا قليلا جدًا، فهو لا يستحق الرواية، ولا العناية في مثل هذا الحديث، الذي نعني به بالأدب والفن، أكثر مما نعني بالكلام المنظوم،وهذا أول النظم:

هذا كتاب أدب ومحنة ... وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه ضلالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم ... حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله ... والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير ا لحفظ ... لذا على اللسيان عند اللفظ

ونظر كيف افتتح باب الأسد والثور:

وإن من كان دنيء النفس ... يرضى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقي البائس ... يفرح بالعظم العتيق اليابس
وإن أهل الفضل لا يرضيهم ... شيء إذا ما كان لا يغنيهم
كالأسد الذي يصيد الأرنبا ... ثم يرى الغير المجد هربا
فيرسل الأرنب من أظفاره ... ويتبع العير على أدباره
والكلب من دقته ترضيه ... بلقمة تقذفها في فيه

وعلى هذا النحو العادي الذين لا حمال فيه، إلا أنه بريء من الركة، يمضي أبان في نظم كتابه. على أنه في هذا ناظم لكتاب معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة، إلى تأليف كتب منظومة، فنظم قصيدة طويلة في الصوم والزكاة، روي منها الصولي طرفا، وهذا أولها:

هذا كتاب الصوم وهو جامع ... لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن ... فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي ... من عهده المتبع المرضي
صلي الإله وعليه سلما ... كما هدى الله به وعلما
وبعضه على اختلاف الناس ... من أثر ماض ومن قياس
والجامع الذي إليه صاروا ... رأي أبي يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف: أما المفترض ... فرمضان صومه إذا عرض
والصوم في كفارة الإيمان ... من حنث ما جرى على اللسان
ومعه الحج وفي الظهار ... الصوم لا يدفع بالإنكار
وخطأ القتل وحلق ا لمحرم ... لرأسه فيه الصيام فافهم
فرمضان شهره معروف ... وصومه مفترض موصوف
والصوم في الظهار إن لم يقدر ... مظاهر يوما على محرر
والقتل إن لم يك عمدا قتله ... فإن ذاك في الصيام مثله
شهران في العدة كاملان ... متصلان لا مفرقان
والحنث في رواية مقبولة ... ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها في العدة الأيام ... للمحرم الحالق في الإحرام
ثلاثة نصومها إن حلقا ... لا بأس إن تابعها أو فرقا

ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله، وأمعنا في الفقه إمعانا، وكأنما نروي هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصبا.

ولم يقف نظم أبان عد هذين لموضوعين، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم قصيدة طويلة سماها ذات الحلل، تناول فيها تاريخ الخليقة، وغير ذلك من موضوعات العلم، وانتهى فيها إلى المنطق، فألم به، ولم يرو لنا من هذه القصيدة شيء.

وأحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منه مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلا. وليس من

شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة، حينما نظم كليل ودمنة، قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى، ليصيب مثل ما أصاب.

وكان أبان شديد الحرص على المال، يضحي في سبيله بأشياء كثيرة، منها العقيدة والرأي وكان يحسد مروان بن أبي حفصة، لمكانه من الرشد، ولظفره بالصلات الضخمة، والجوائز السنية، فقد انتهى الأمر ببني العباس مع مروان بن أبي حفصة، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم، فغاظ ذلك أبان بن عبد الحميد، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان. قال الرواة؟ فعاتب البرامكة، وأنكر عليهم تقصيرهم في الانتهاء به إلى الرشيد، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان، فقالوا له: يجب أن تذهب مذهب مروان، فتذم آل علي، فقال: والله ما استحل ذلك، ثم أصبح فاستحله، وقال قصيدة طويلة، آثر بها بني العباس على بني أبي طالب، وأثبت فيها حق بني العباس في وراثة الخلافة دون بني علي، ودفعها إلى الفضل ابن يحيى، فركب بها إلى الرشيد، فنالته صلاته وجوائزه. وهذا أول هذه القصيدة التي ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة. فلم تكن كلها شيئا إلى جانب هذا البيت من شعر مروان:

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام

وأول القصيدة:

نشدن بحق الله من كان مسلما ... أعم بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفة ... لديه أم ابن العم في رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده؟. ... ومن ذا له حق التراث بما وجب؟
فإن كان عباس أحق بتكلم ... وكان على بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه ... كما العم لابن العم في الإرث قد حجب

وهي طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبي، وقد أجازها الرشيد مع ذلك، فأحسن جائزتها، لم يجز الأدب، وإنما أجاز السياسة.

وقد انتهى بنا القول في أبان إلى السياسة ولابد لن من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هذه الناحية، أحدهما مروان بن أبي حفصة الشاعر السياسي لبني العباس خاصة، والثاني السيد الحميري، وهو الشاعر السياسي لبني علي خاصة، وإن كان قد مدح بني العباس، وظفر بجوائزهم. وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية، فسننتهي إلى هذه النتيجة: وهي أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقًا، وأكثرهم اتجارًا برأيه ودينه. كان البرامكة يتشيع للعلويين، ثم طمع في أموال ا لرشيد، فأنكر العلويين، وآثر عليهم بني العباس، وهو يُقسم ما يستحل ذلك!... وفي الحق أنه لم يكن يحب آل علي ولا بني العباس، وإنما كان كغيره من هؤلاء الفرس، الذين يذهبون مذهب البرامكة، يتخذ التشيع للعلويين لونا سياسيا، يخفي أطماعه ومآربه الفارسية. أما مروان بن أبي حفصة فأسرته كلها من أتباع بني أمية وأنصارهم، والغلاة في مدحهم وتأييدهم، ولكن الله أدال من بني أمية لبني العباس،فدار مع الأيام ووجد في ذلك مغنما، فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس في العطاء. وأما السيد الحميري فعلوي المذهب، صادق في علويته، مسرف فيها إسرافا لا يعدله إسراف، ولكن الله أدال من بني أمية لبني هاشم، وكان السيد كغيره من الناس، يحسبون أن الأمر سيؤول إلى العلويين، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين، انقسمت شيعة العلويين، فمنهم من أعلن حقده وسخطه على بني العباس، فاشترك في فتن العلويين وثوراتهم، ومنهم من اتقى، فحفظ الود لآل علي، وجامل العباسيين وأخذ أموالهم، ومن هؤلاء السيد الحميري، ولكن هذا بحث يحتاج إلى عناية وتحقيق وروية، ونحسب أن الخير في إرجائه إلى الأسبوع الآتي.

مروان بن أبي حفصة [1]

السيد الحميري

جمعت هذين الشاعرين إلى أبان بن عبد الحميد، في آخر حديث الأربعاء الماضي، ولم أجمعهما إليه عبثًا، وإنما جمعتهما إليه لأن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة، تجعل التفكير في أحدهم وسيلة إلى التفكير في لآخرين. وليست هذه الصلة شعرية، فهم يتفاوتون في الشعر تفاوتا شديدا، لكل منهم فيه مذهبه وسبيله كما سنرى. وليست هذه الصلة مجونا ولا عبثا ولا زندقة، فقد كان أبان عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة، يستر ذلك ويخيفه، حتى خدع الناس عن نفسه، وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر أبان، ولم يكن مروان بن أبي حفصة ماجنا ولا عابثا ولا زنديقا، وإنما كان أشد الناس انصرافا عن اللغو والعبث، وأشد الناس حرصا على الجد وحسن السيرة، لأسباب سنبينها بعد حين. أما السيد الحميري فلم يكن من المسرفين في ا لاستهتار والتهتك، ولا من الذي يتخذون العبث واللهو سيرة ودينا، وإنما كان رجلا كغيره من الشعراء الذي عاشوا في العصر الجاهلي والأموي،يأخذ بحظه من لذات الحياة، لا متجاوزا في ذلك حدا، ولا مستهترا فيه، ولا متحديا غيره من أهل التقي والدين، كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير الفرزدق والأعشى، وكلنه لم يكن يعكف عليها عكوف أبي نواس. ولم يكن يتغناها أو يشيد بذكرها، كانت سيرته في ذلك سيرة الشعراء من العرب، لا من الموالي، فسنرى في غير هذا الحديث أن هناك فروقًا جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالي، تفسر لنا هذا المجون الكثير، الذي نجده في صدر الدولة العباسية.

ليست الصلة إذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجونا ولا عبثًا ولا زندقة، ولا تشابها في المذهب الشعري الأدبي، وإنما الصلة بينهم سياسية، الصلة بينهم هذا المذهب السياسي الذي ذهبوا جميعًا، دون أن يكونا فيه جميعا، مخلصين، فكلهم مدح بني العباس، وتقرب إليهم، وأفاد من أموالهم، وكلهم كان هواه مع غير بن العباس، ولابد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل.

رأينا في الحديث الماضي أن أبان بن عبد الحميد لم يكن مخلصا لبني العباس، ولكنه كان مخلصا لمال بني العباس، يشتهيه ويحرص عليه، فعاتب البرامكة، لأنهم لم يقدموه إلى

---

(١) نشرت بالسياسة في ١ من ذي القعدة سنة ١٣٤٢– ٤ يونيو سنة ١٩٢٤.

الرشيد، فلما قال البرامكة إن الحق عليه في ذلك أن يهجو العلويين، وتؤثر عليهم بني العباس، أظهر ترددًا، وقال إنه لا يستحيل ذلك، ثم أصبح فاستحله كما قلنا، وأنشأ قصيدته المعروفة، يثبت فيها أن بني العباس أحق بوراثة الخلافة من بني علي، ولم يكن أبان علويًا مخلصًا، وإنما كان قبل كل شيء فارسيا مخلصًا، وكان كغيره من هؤلاء الفرس يتخذا التشيع لعلي وآل بيته لونًا سياسيًا، إذا كانوا قد وثوقا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي، وحريتهم الدينية، على نحو ما كنت عليه قبل الإسلام، فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب، وهو حزب العلويين، وكان هذا الحزب ضعيفًا أيام عثمان، مضطهدًا أقبح الاضطهاد طوال أيام بني أمية، فأيده الفرس وناصروه، حتى وصلوا به إلى السلطان. ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان؛ لأن ظروفا سياسية خاصة، تدرس في التاريخ لا في هذه الصحيفة الأدبية، دعت إلى أن يستأثر بنوا العباس بالحكم دون بين علي؛ فلان الفرس ومرنوا، وآزروا بني العباس، ليصلوا معهم إلى السلطان، وتشدد منهم في مذهبهم العلوي قوم، لقوا في سبيل هذا المذهب مناياهم، ومن هؤلاء أبو مسلم، ومنهم البرامكة أيضا. وقد حدث في ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث في فرنسا أيام الثورة التي ظهرت سنة ١٨٣٠، فقد قام الجمهوريون بالثورة وهيئوا أسبابها لي، وانتهوا بها إلى الفوز، حتى أزالوا سلطان "بوربون"، وككن ظروفا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين إلى آل "أورليان"، فقام ملك "لويس فيليب" وانقسم الثائرون المنتصرون إلى قسمين متنازعين: فسم الجمهوريين الذي عملوا وضحوا، وفازوا، ثم قسم أنصار "أورليان" الذي اجتنبوا ثمار الفوز، وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قد اختلسوا الجمهورية (Examoter la Répuplique) وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم، فمنهم من مال إلى الدولة الفائزة، فانصرف من الحكم الجمهوري إلى الحكم الملكي الحر، ومنهم من تشدد في مذهبه الجمهوري، ومضى يأتمر ويدبر الثورات، حدث هذا أو شيء قريب منه جدا حين قامت الدعوة الهاشمية لنقض السلطان الأموي. فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم، حتى إذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة. لم ينتصر العلويون، وإنما انتصر بنو هاشم جملة على بني أمية، واستأثر بالحكم من بني هاشم آل العباس، دون آل علي، فانقسم الهاشميون على أنفسهم: منهم من أيد العباسيين تأييدا ظاهرا خالصا، ومهم من أيد العلويين، فمضى يأتمر ويثور، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم أيضا، فاطمأن إلا أن يثور. وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين في ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار "أورليان" سنة ١٨٣٠.

أما الفرس فقد ذهبوا هذا المذهب نفسه وانقسموا هذا الانقسام نفسه، وكان أبان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا في الحكم، فأبوا أن يظهروا النصر لبني العباس، كما أبو أن يظهرا السخط عليهم، ثم رأى هذه الأموال الضخمة التي يفيدها مروان بن أبي حفصة من خلفاء العباسيين، فطمع وعدل من مذهبه السياسي، فلم يبق علويا معتدلا، بل أصبح عباسيا متطرفا؛ هذا هو أبان بن عبد الحميد.

أما السيد الحميري فقد استطاع أن يكون علويا متطرفا، وعباسيا معتدلا، واستطاع ذلك في وقت احد، فكان من أشد الناس إخلاصا لآل علي، يجهر بذلك ويعلنه، ولا يتحرج منه. وكان في الوقت نفسه مسرورا بفوز بني العباس، لا لأنهم فازوا على العلويين، بل لأنهم يمثلون بني هاشم، الذي فازوا على الأمويين كان يجمعه إلى أنصار بن العباس الفرح بسقوط الأمويين، وكان يعلن هذا الفرح، وينتظر أن يأتي يوم آل على، وهو لا ينتظر هادئًا ولا صامتًا، وإنما كان يبث ا لدعوة لآل على، ويبذل في ذلك من الجهد والقوة ما استطاع. ثم لم يكن فرحه بسقوط الأمويين وحده هو الذي يدنيه من بني العباس، وإنما كان هناك شيء آخر يدنيه منهم، وهو الرغبة والرهبة، كان يطمع في أموال بني العباس، ويفيد منها غير قليل، وكان يخشى بطشهم، فيتقيه بالقصيدة يمدح بها آل العباس، بين القصائد الطوال الكثيرة فيه بآل علي.

أما مروان بن أبي حفصة فكان شيئا غير هذا كله، وكان رجلا يخالف هذين أشد الخلاف، ولا يتفق معهما إلا في شيء واحد، هو مدح بني العباس وتأييدهم. كانت أسرة مروان بن أبي حفصة منذ عرفها الدب التاريخ متصلة ببني أمية، محسوبة عليهم، إن قبلت هذا التعبير، فقد كان أبو حفصة جده الأعلى عبدا فارسيا لمروان ابن الحكم، شهد معه حصار عثمان في داره، وأبلى في الدفاع عن الخليفة بلا حسنا، وأظهر شجاعة ومكرا في حماية مولاه مروان، وإنقاذه من الموت، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة، وكان يعينه فيما تولى من الأعمال قل خلافته، ونشأت عن ذلك صلة من صلات الموالاة القوية المتينة، بين آل أبي حفصة وآل مروان، حتى لقد كان الخلفاء من بني مروان يؤثرون آل أبي حفصة على العرب، وعلى أشراف العرب أيضًا، وحتى لقد أبى خليفة مرواني أن يسمع لنفر من أشراف العرب، أقبلوا يشكون إليه أن رجلا من آل أبي حفصة قد أصهر إلى العرب، وخالف الحكم الشرعي، الذي لا يبيح للموالي تزوج العربيات، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى، بل زجر الشاكين زجرا شديدا، واضطر الحفصي إلى أن يسعى لدى الخليفة في الرفق بهم، والعطف عليهم، وكان من آل أبي حفصة شعراء ناصروا الأمويين مناصرة شديدة، حتى إن أحدهم ندم على عصر الحجاج، وزعم في شعره له أن الدين قد تعرض للخطر من حادث الحجاج، فاضطربت أمور العراق، وظهر فيه الثائرون، كل هذه يبين كل شدة هذه الصلة التي كانت بين

الأمويين وبين آل أبي حفصة، وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئا آخر، هو الذي نقصد إليه في هذا الحديث، وهو، خلق مروان بن أبي حفصة.

فما كان الحظ يديل من بني أمية لبني العباس، حتى انتفض مروان ابن أبي حفصة، فإذا هو شاعر بني العباس، ولسانهم السياسي، وإذا هو أشد الناس انتصارًا لهم، وأبلغ الناس دفاعا عنهم، وإذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه: إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك، وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية معًا، فقال:

أنـــى يكـــون ولـــيس ذاك بكـــائن لبنـــــي البنـــــات وراثـــــة الأعمـــــام

يريد أن العباسيين أحق بوراثة النبي، لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه ولسم، وهو أحق بوراثة ابن أخيه من الأسباط، وذلك بحكم الفقه والميراث.وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة، فاضطربوا له اضطرابا شديدًا، واشتد سخطهم على مروان، وأضمر له الشر، وأظهروا له اللعنة، وما زلوا به حتى قتلوه، كما سنرى. أما موقع البيت مع العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه، حتى كان مروان أول شعر أخذ من العباسيين مئة ألف درهم مرة واحدة، ثم كانت له عليهم دالة، وكانت له عندهم عادت، فتقرر في ديوان الخلافة أن جائزة مروان يجب أن تكون ألوفا، تعدل أبيات قصيدته عددًا فكان إذا بلغ بقصيدته المئة، بلغت جائزته مئة ألف. وهذا هو الذي غاظ أبان ابن عبد الحميد، فكان منه ما كان، على أن أبان بد عبد الحميد حين أراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطع أن يكون شاعرًا، وإنما كان فقيهًا، يناضل عن رأي في الفقه، ففضَّل النظرية العباسية تفصيلا، ودافع، عن كلياتها وجزئياتها، كما يقول أصحاب المنطق، دفاع الفقيه. فكيف استطاع مروان بن أبي حفصة أن ينكر ماضيه وماضي أسرته، وأن يجحد ولاء الأمويين، وينتفض فإذا هو عباسي أكثر من العباسيين؟ ليس الجواب عليه عسيرًا، ولا في حاجة إلى بحث وتدقيق؛ فقد كان مروان بن أبي حفصة محبا للجمال، شرها إليه،لا يشبع منه، ولا يقنعه منه الكثير كان محبا للمال، هذا التعبير ضعيف، لا يصف مروان ولا خُلقه،وإنما كان مروان يعبد المال عبادة، ويقدسه تقديسًا، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدري الأمويين والعباسيين والعلويين، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعًا بأنه يفوز بأموال العباسيين، فلو أدال الله منهم للأمويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة، ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويدسه. لم يكن إذن عباسيًا مخلصًا، بل لم يكن شاعرًا من شعراء الأحزاب بالمعنى الصحيح، لم يكن من هذه الألسنة السياسية الحزبية، التي هي مرآة لقلوب أصحابها، والتي تمثل الإيمان الصادق، والعقيدة الراسخة، التي لا تؤثر المال على الرأي ولا تضن بالنفس على الموت، في سبيل الرأي السياسي. لم يكن مروان من هؤلاء، وإنما

كان شاعرًا مجيدًا، يستطيع أن يكسب المال بشعره، وقد رأى فرصة سانحة، فأحسن انتهازها، وقدَّر له التوفيق، فجمع من المال ما لم يجمعه الشاعر من قبله وأمثال مروان بن أبي حفصة كثيرون في عصور الثورات والاضطراب السياسي، والجهاد العنيف بين الأحزاب، تجدهم فيكل مكان وفي كل زمان، ولكن الذين يبلغون من الإجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قليلون جدًا... كان مروان شرهًا إلى المال، ولكن الغريب من أمره أنه لم ينتفع بهذا المال، ولم يستمتع بشيء منه، وإنما عاش عيشة بؤس وحرمان، فكان من أبخل الناس، وتستطيع أن تقول إنه كان أبخل شاعر عرفته العرب إلى ذلك الوقت، وكان الناس يضربون الأمثال ببخل مروان، ويتندَّرون به في مجالسهم وأحاديثهم، فهم يقولون مثلا إنه كان إذا قدم بغداد، فيشتري له رأسًا، فيعيش عليه حينًا، وقد كلم في ذلك، فأجاب جوابًا بديعًا، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبخًا ولا تهيئة، فهو إذن يكفيه بعض المؤونة، بم إنه لا يحتمل زيادة ولا نقصًا، فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه، فهو إن أكل أذنًا أو عينًا أو نحو ذلك، ظهر سيده على ما أكل، ثم إن له في الرأس مرافق، فهو يتخذ منه ألونًا مختلفة، دون أن يتكلف لذلك الأثمان، التي يتكلفها الذي يريدون أن يتخذوا من الطعام ألوانًا مختلفة، فهو يأكل الأذنين لونًا، والعينين لونًا آخر والغلصمة لونًا آخر، وعلى هذا النحو. وزعم ناس من الرواة أنهم مروا بمروان، فنزلوا عنده في اليمامة، فأطعمهم لحما، فلما فرغوا من طعامهم دفع إلى غلامه فلسًا وآنية، ليشتري له شيئا من الزيت يطعم منه، فذهب الغلام وعاد بالزيت، ولكن مروان اتهمه بالسرقة والخيانة، فجعل الغلام يسأله كيف أخونك في فلس واحد، وجعل مروان يجيب: أخذت الفلس، واستوهبت الزيت. ثم يتحدثون عن مروان نفسه أنه قال: ما فرحت لشيء قط كما فرحت يومًا وقد أجازني المهدي بمئة ألف دينار، فوزنتها فزادت درهما، فاشتريت به لها ويقولون إنه: مر بامرأة فأضافته، فلما أراد الانصراف وعدها إن بلغت جائزته مئة أ لف أن يهب لها درهما، فلم يبلغ جائزته إلا ستين ألفا، وكان يريد معن بن زائدة، فوهب للمرأة أربعة دوانق، وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثي الدرهم، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي مئة الألف.

وأحاديث مروان في البخل والحرص كثيرة، روينا لك منها هذا الطَّرَف، لنصور لك حبه للمال تصويرًا كافيا، على أن هذا التصوير في حاجة إلى أن نتمه ونكمله بقصة روها أبو الفرج، ولها قيمتها، لأنها تمس شعر مروان، وهي أنه مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له، كان قد أنشأها في مدح مروان بن محمد الأموي، قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته، فاستمع مروان لهذه القصيدة، فأعجبته، وكان أولها:

مروان يا بن محمد أنت الذي زيدت به شرفا بنو مروان

فلما فرغ الشاعر من إنشاد قصيدته، تبعه صاحبه إلى بيته، وقال له: إنك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد؛ فقد قتل مروان، وذهبت دولته، فبعني هذه القصيدة، لأنتحلها لنفس، وتفوز أنت بشيء من المال، قال الرجل: قد فعلت. فساومه مروان، وانتهيا إلى ثلاث مئة درهم، ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والإيمان المحرجة، وانصرف مروان إلى بيته، فغير ا لقصيد. وزاد فيها، ونقص منها، وحولها إلى معن بن زائدة، فقال:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفا إلى شرف بنوا شيبان

ووفد بها على معن، فملأ يديه، وأقام عنده مدة، حتى أثرى.

على أننا نستطيع أن نعرف كيف اتصل مروان بن أبي حفصة ببني العباس، فبلغ عندهم من الخطوة ما بلغ، وظفر منهم بما كان فيه من مال. يظهر أنه في أول أمره لم يكن يفكر في الاتصال بهم، ولا في الارتقاء إلى هذه المنزلة، منزلة الشعراء الذي يبلغون قصور الخلفاء، وينشدونهم فيها الشعر، وكأنه كان قد ترك ذلك لأهل العراق، واكتفى بة حظه من معن بن زائدة، وقد كان هذا الحظ عظيما موفورًا، فُجودِ معن معروف، وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره. لكن معنًا مات، فحزن عليه مروان، ورثاه رثاءً كثيرًا جيدًا، منه هذان البيتان:

أقمنا باليمامة بعد معن مقاما لا نريد به زوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوال

ثم بداله، فوفد على المهدي وقد عليه من الشعراء، وكان اسمه وشعره قد سبقاه إلى المهدي، كما سبقاه إلى المنصور من قبل، ولعل اسم مَعْن هو الذي رفع مروان، حتى انتهي به إلى قصور الخلفاء.

وفد على المهدي، فأنشده قصيدة يمدحه فيها، فسأله المهدي: من أنت؟ قال: شاعرك وعبدك، مروان بن أبي حفصة، قال المهدي ألست القائل، وذكر البيتين السابقين، ثم قال لقد ذهب النوال فيما زعمت، فلا نوال لك عندنا،ثم أمر به فسحب برجله، حتى أخرج. ومن قبل المهدي وَجد المنصور على مروان، لأنه أحسن مدح من، ووجد على معن، لأنه أكثر العطاء لمروان، حتى إنه لام معنًا في ذلك، ولكن معنًا عرف كيف يخلص من لوم المنصور.

كان المهدي إذن واجدًا على مروان، حاسدًا لمعن بن زائدة، ولهذا حرم مروان وأهانه، وكان مروان قد فهم هذا، وكأنه قد استفاد من رحلته هذه، فعرف الميول السياسية حول الخليفة،

واستفاد مما عرف، فأقام عامه في بلده اليمامة، ثم استأنف الرحلة، فدخل على المهدي مع الشعراء، وأنشده، وكان الخامس أو السادس بين المنشدين، وأنشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره، وكان من حقها أن تخلبهم، فإنها آية من آيات الشعر السياسي، وآية الجودة فيا الفظ والمعنى، وصفاء الأسلوب ورقته، في غير ضعف ولا ركة ولا تبذل، ومطلعها:

طرقتك زائدة فحي خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فوادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فلم يكد يبدأ في إنشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم، فاستمعوا له معجبين، وبلغ بهم ذلك أنهك كانوا كأنما تعلقوا بشفتي الشاعر، حتى إذا هجم على الموضوع السياسي، وأخذ يحاجّ العلويين، ويخاصمهم عن حق بني العباس في وراثة الخلافة، أخذ المهدي يزحف من صدر مصَلاه، حتى صار على الباسط، إعجابًا بما يسمع، وإليك هذه الأبيات التي استخفت المهدي، وأحسب أنها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتم إبطالها

فلما فرغ من إنشاده سأل المهدي عن القصيدة كم هي؟ قال مروان: مئة بيت، فأمر له بمئة ألف درهم؛ وكانت هذه أول مئة ألف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس. قال الفضل بن الربيع، وهو الذي شهد هذه القصة: فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان، فأنشده قصيدة يمدحه فيها، فسأله: ومن أنت؟ قال: شاعرك وعبدك مروان بن أبي حفصة، فذكر له ذينك البيتين، اللذين رثا بهما معن بن زائدة، وقال له مثل مقالة المهدي، وأمر به فأخرج، قال الفضل بين الربيع: فلما كانت أيام تلطف مروان، حتى دخل على الرشيد، فأنشده قصيدته التي أولها:

لعمرك ما أنسى غداة المحصب ... إشارة سلمى بالبنان المخضب
وقد صدر الحجاج إلا أقلهم ... مصادر شتى موكبا بعد موكب

طرب الرشيد، وسأله عن قصيدته كم هي؟ قال: ستون أو سبعون، فأمر له بعدد أبياتها ألوفا، وكان ذلك رسم مروان في القصر حتى مات.

لعلك تريد الآن أن تعرف شيئا عن شعر مروان، وأنا آسف الأسف كله، لأنا لا نستطيع أن نتحدث في ذلك عن علم ولا عن بصيرة، إذا لم يحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا أبياتا

قليلة متفرقة، ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويرًا مقاربًا، إن يكن صحيحًا، وأكبر الظن أنه صحيح.

لم يكن مروان متصرفا في فنون الشعر، ولعله لم يعْدُ منها فنًا أو فنين، فلسنا نعرف له غزلا، إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدءوا به مدائحهم، ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون، حين يدافعون عن مذهبهم، ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقًا جدًا فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية، فيبلغ منهم منا يريد، ويهجوهم في حرية، وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيرًا، كان الدين يأباه في ذلك الوقت. وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضًا؛ فالعلويون من بني هاشم، وهجاؤهم هجاء للعباسيين، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين، الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين، مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة، البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعًا من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم ثم لا نعرف لمروان مجونًا ولا عبثًا، فلم يكن كما قلنا ماجنًا لا عبثًا، وإنما كان بخيلا، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان، ومن ضن على نفسه باللحم وطيبات الطعام، لم يستبح لنفسه خمرًا ولا ما تستتبعه الخمر. ثم لا نعرف لمروان فخرًا، وما نحسب أنه فاخر أو مال إلى الفخر؛ فقد كان رجلا عمليًا، يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة، وكان يضن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد.

لم يعرض إذن إلا لفنين اثنين: المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء، وهذا طبيعي، فهو راغب حين يمدح، يطلب المال، ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يجيد، وأن يبلغ من الإجادة حظًا عظيمًا، أما في الرثاء فهو لا يرغب، ولا يطلب مالا، وإنما يفي بعهد، ويشكر صنيعه. ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة، إلا أن يكون حساسًا، دقيق الشعور، راقي النفس، ولم يكن مروان من هذه كله شيء، وإنما كان، كما قلت لك، رجلا عمليا يريد المال. على أن رثاءه لمعن ليس بالرديء، وكذلك رثاؤه للمهدي، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدي رثاء؟ هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد، ففيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه. وفيه المثوبة والعطاء؛ فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء. أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة، ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح، وبرع فيه، بل نحسب أنه تفوق في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متمايزين، أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يفتن في وصف معن بالجود والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بن شيبان الذين ينتمي

إليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني منتقاها، حسن الألفاظ صافيها.

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان ينشده الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت، ولكنه يمتاز عن المدح المعروف، بما فيه من هذا النضال السياسي، الذي كان يحتاج إلى مهارة وفطنة، ودقة وخفة، والذي كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم، وإلى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصومهم. وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد، فقد أغضب العلويين، لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد، بل لأنه كان خصما قويًا عنيدًا ماهرًا في الخصام، وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته، وقوة حجته في الخصومة.

ثم هناك شيئان لابد من الإشارة إليهما، ليكمل رأينا في مروان، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معللا، إن صح هذا التعبير.

الأول أن مروان لم يكن عراقيا، ولم يرض الإقامة في العراق، ولم يُطِل عشرة العراقيين، من أهل المجون والعبث، وإنما كان من أهل اليمامة، أقام فيها، لا يبرحها إلا وافدًا على أمير أو وزير أو خليفة، فإذا استأنف الرحلة. ولهذا أثره في شعر مروان؛ فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين، منه إلى شعر المحدثين، من شعراء الحضارة العباسية، تقرؤه فتجد عليه هذه المسحة، التي تخلو، أو تكاد تخلو من الدعابة والخفة، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة، وهو يمثل البادية تمثيلا صحيحًا. ولهذا أثره في وجهة أخرى. فقد رضي علماء اللغة جميعا عن مروان، وأحبوه من هذه الناحية، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إيثاره على بشار وأبي نواس، لأنه كان أ قرب منهما إلى الأسلوب ا لبدوي القديم، ولكن أني لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس، فاضطروا إلى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار، وإيثاره على مروان. ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشاعرين، إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد، هذه الوجهة التي كان يعني بها علماء اللغة. وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب، ولا يقاس إلى مروان في هذا أحد من شعراء العراق. أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرقها الشاعر، وقرب المأخذ، والدنو من أذهان ا لناس، والقدرة على تمثيل حياتهم، فليس مروان يقاس إلى بشار، ولا إلى أبي نواس بنوع خاص، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعًا شريفا في فنه، لا يخاف ولا يهاب، فصدق نفسه، وصدق الناس وآثر ختم الشعر بمروان، وأبى أن يدوِّن لأحد من المحدثين بعده، والذي كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها في بطن خفان أشبل

هـم يمنعـون الجـار حتـى كأنمـا لجـارهم بـين السـما كـين منـزل
لهـاميم فـي الإسـلام سـادوا ولـم يكـن كـأولهم فـي الجاهليـة أول
هـم القـوم إن قـالوا أصـابوا وإن دعـوا أجـابوا، وإن أعطـوا أطـابوا وأجزلـوا
ولا يسـتطيع الفـاعلون فعـالهم وإن أحسـنوا فـي النائبـات وأجملـوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن معنًا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه.

والآخر أن مروان لم يكن سريعا في الشعر، ولا متعجلا، ولا مسترسلا مع الطبع، وإنما كان بطيئا متمهلا. كان يجيد الشعر، لأنه كان يجوده. وكان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيرًا كان يسلكها، في هذه القصائد التي يسمونها الحوليات. كان ينفق أشهرًا في إنشاء القصيدة، وأشهرًا في إصلاحها، وأشهرًا في عرضها، حتى إذا استقام له هذا كله، أنشد قصيدته لممدوحة، خليفة كان أو وزيرًا أو أميرًا، فليس عجبا مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر، وأن يبرأ من الضعف والوحشية معًا.

ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء، الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء. ولست أشير إلا إلى سرته مع بشار، فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار، ويسأله رأيه فيها، فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة، بل يقدر له قيمة القصيدة ماليا، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرتين، فأظهر له مروان العجب من ذلك،فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب، وإنما كان يفهم مروان، ويفهم الخلفاء، ويفهم الميول السياسية، التي كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء.

كان مروان متناقضا، ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجادة فكان يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجبًا بنفسه، لا يقدم عليها أحدًا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة: الأخطل والفرزدق وجرير. واسمع رأيه فيهم وفي نفسه، فقد عقده شعرًا ليثبت كما يقول:

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما		حلو القرض ومره لجرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب		وحوى اللهى ببيانه المشهور
كل الثلاثة قد أجاد فمدحه		وهجاؤه قد سار كل مسير
ولقد جريت ففت غير مهلل		بجراء لا قرف ولا مبهور
إلى لآنف أ أحبر مدحه		أبدًا لغير خليفة ووزير
ما ضرني حسد اللئام ولم يزل		ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أما رأي مروان في النقد فبديع، كان ينشد الشعر لامرئ القيس، ويقول هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر الأعشى، ويقول هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير، ويقول هو أشعر الناس، حتى إذا أنشده لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعا أشعر الناس، قال ضاحكًا: الناس أشعر الناس.

ولست أعرف رأيا كهذا الرأي، يمثل الشك في نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد.

أظن أني قد صورت لك مروان بن أبي حفصة تصويرًا مقاربًا، إن لم يكمن صحيحا. وكنت أريد أن أتحدث معه عن السيد الحميري، كنا ترى في عنوان هذا الحديث، ولكني أطلت فأرجئ السيد إلى الحديث الآتي، وأختم هذا الفصل بموت مروان يقصه قائله.

روي صاحب الأغاني عن رجل يقال له صالح بن عطية الأضجم، أنه قال: لما قال مروان:

أني يكون وليس ذاك بكائن		لبني البنات وراثة الأعمام

لزمته، وعاهدت الله أن أغتاله، فأقتله أي وقت أمكنني، وما زلت ألاطفه وأبره، وأكتب أشعاره، حتى خصصت به، فأنس بي جدا، وعرفت ذلك بنوا حفصة جميعا، فأنسوا بي، ولم أزل أطلب عزة، حتى مرض من حمى أصابته، فلم أزل أظهر له الجزع عليه، وألازمه وألاطفه، حتى خلا لي البيت يوما، فوثبت عليه، فأخذت بحلقه، فما فارقته حتى مات، فخرجت وتركته، فخرج إليه أهله بعد ساعة، فوجده ميتًا، وارتفعت الصيحة، فحضرت وتباكيت، وأظهرت الجزع عليه حتى دفن، وما فطن بما فعلت أحد، ولا اتهمني به.

obeikandl.com

السيد الحميري [1]

علويون، وعباسيون

اضطرنا ذكر أبان بن عبد الحميد إلى أن نعرض للشعر السياسي في صدر أيام العباسيين، فذكرنا أبان بن عبد الحميد نفسه، ورأينا مذهبه، وكيف كان يتخذا التشيع للعلويين لونا سياسيا، كسادته البرامكة، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حربا على العلويين، كسادته البرامكة أيضا. ثم ذكرنا هذا الشاعر الذي قصره شعره السياسي على بني العباس، فدافع عنهم وناضل، حتى قتله رجل من شيعه العلويين غيلة، وهو مروان بن بأبي حفصة، الذي كان خليقًا أن يكون أموي ا لنزعة،ولكن حبه للمال، وتهالكه عليه، قطع الصلة بينه وبين قديمه، وحمله على أن يقل شعره على من كان بيدهم المال والسلطان.

ونريد اليوم أن نرى شاعرًا سياسيًا ثالثًا، يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين، اللين رأيناهما؛ فهو لم يكن فارسيًا، ولا ميالا إلى الفرس، ولا متصلا بزعائمهم، ولا متأثرًا بحضارتهم تأثرا خاصًا. وإنما هو رجل عربي خالص، لأمه وأبيه، وهو من عرب اليمن، أبوه من حمير، وأمه من الأزد، وهو إسماعيل ابن محمد، المعروف بالسيد الحميري.

ليس فارسيا ولا متصلا بأحد من زعماء الفرس، وإذن فلم يكن تشيعه طلاء سياسيا كاذبا، يستر الشعوبية وبغض العرب؛ ولم يكن أموي النزعة، بل لم تكن بين أسرته وبين الأمويين صلة مودة، كما كانت الحال بين آل الحميري، فإن جده يزيد بن مفرغ هجا زيادا وآل زياد، وعرف سجن عبيد الله بن زياد. وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية، فكانا يكرهان الأمويين، كما كان يكرهان بني هاشم، وكانا يشتمان معاوية، كما كانا يشتمان عليا، ومع ذك فقد كان السيد الحميري شيعة لعلي وأبنائه، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله في حياتهم السياسية كلها، وقف عليهم عمره وجهده، وكاد يقف عليهم مدحه وثناءه، مخلصا في ذلك كله إخلاصا لا يشبه إخلاص. ولم يكن السيد الحميري نفسه يعرف كيف وصل التشيع إليه، بل كان إذا سئل عن ذلك قال: غاصت رحمة الله علي غوصًا، وكان يسمع أبويه يشتمان عليًا، ويبالغان في

---

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢– ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤.

شتمه فكان يكره ذلك، ثم صح له مذهبه في التشيع، وظهر منه أبواه على هذا الرأي، فيقال إنهما هما بقتله، فاستجار بعقبة بن سلم، فأجاره حتى ماتا، وتم له ميراثهما.

هو إذن يخالف أبان بن عبد الحميد، في أنه لم يكن فارسيًا ولا ميالا إلى الفرس، ويخالف مروان بن أبي حفصة، في أنه لم يكن أمويا ولا ميالا إلى بني أمية، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين، في أنه لم يعف عن أموال بني العباس، بل تقرب إليهم، وأثنى عليهم، وأنشده شعره، وأخذ من أموالهم ما استطاع، مع أنه لم يكن يحبهم ولا يهواهم، وإنما كان هواه مع قوم آخرين هم آل على.

على أن أمر السيد الحميري يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضًا، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يأثم حين مدح العباسيين، وظفر بجوائزهم، وهو لم يقل كما قال أبان بن عبد الحميد: لا أستحل ذلك ثم استحله، وإنما كان السيد الحميري يستحيل ذلك، كان يستحل أن يظهر غير ما يضمر، وأن يمدح بني العباس بلسانه، ويلعنهم في قلبه، فيظفر بمالهم، ويتقي شرهم، كان يستحل ذلك كما كانت تستحله عامه الشيعة، الذين كانوا يقولون بمذهب التقية، ويستبيحون لأنفسه أن يروا في السياسة والدين رأيين، رأيا تجاريا، إن صح هذا التعبير، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس، ليعيشوا ويأمنوا، ويستمعوا بلذات الحياة والأمن، ورأيا آخر يخفونه على الناس جميعًا إلا أنصارهم وأولياءهم، وهو الرأي الذي يصطنعونه فيما بينهم وبين الله، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الأمويين، وعليها سارت أيضا أيام العباسيين، وهي معقولة، ممكنة التفسير، فقد لقيت شيعة علي الاضطهاد وألوان المحن أيام بني أمية، ما لم يلقه حزب سياسي آخر، إذا استثنينا الخوارج، على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى له، وكانت شيعة علي من وجوه الناس وأشرافهم، وذوي الثروة والمكانة فيهم، فلم يكن لهم بُد من أن يداروا الناس ويتقوهم، ليحتفظوا بتراثهم ومكانتهم، حتى إذا سنحت لهم الفرص، أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقه من، فطالبوا به، ودافعا عنه، وعلى هذا استطاع الكميت بن يزيد، وهو الشاعر الذي يمكن أن يوضع مع السيد الحميري، أن يمدح بني أمية، ويفيد من أموالهم، وعلى هذا النحو استطاع "كثير" أيضا أن يمدح الأمويين، ويصيب من جوائزهم، بل على هذا النحو استطاع "الفرزدق" أن يُضطمر ميله إلى العلويين، ويكتمه كتمانا، وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بني أمية.

فليس غريبا أن نرى السيد الحميري يمدح بني العباس، ويتقرب إليهم، مع أنه كان من غلاة العلويين، الذي أسرفوا في علويتهم، حتى تجاوزوا بها كل حد. كان السيد الحميري علويا غاليا، وكان من الرافضة، وقد جني عليه غلوه ورفضه هذان جناية عظيمة، هي التي تعنينا، وإن كانت لم تعنه، ولم تنل منه، ذالك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة، فلم ينله أذى، ولم يتعرض

لخط، بل استمتع من نعيم الحياة بكثير، ولكن رفضه وغلوه بغضا شعره إلى الناس، وحملاهم على أن يُعرضوا عنه الإعراض كله، إما إنهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه، إما لأنهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه، ومهما يكن من شيء، فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عرفوا بكثرة الشعر، ولم يتقدمهم في ذلك أحد، في جاهلية أو إسلام، وهم بشار، وأبو العتاهية، والسيد. فأما بشار فقد هد شعره، لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر، وأما أبو العتاهية فقد حفظ له ديونه، لما كان فيه من زهد وورع ودين، وأما السيد فقد ذهب شعره، لما كان فيه من شتم السلف، والطعن عليهم، والإسراف في الزراية بهم. ولقد احتاط أبو الفرج احتياطا شديدا، وتحرج تحرجا عظيما، في رواية ما روي من أخباره وأشعاره القليلة، ولو استطاع لأعرض عن ذلك إعراضا، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعره، ويختلسون الفرس اختلاسًا يتلون فيها شيئًا من شعره، خفية دون أن يظهر عليهم الناس، وكان منهم من يأسف ويأسى، لأنه فيما بينه وبين نفسه يُكبر هذا الشاعر، ويقدر شعره، ولكنه لا يستطيع، لخوف أو لدين، أن ينزله منزلته الصحيحة من الشعراء، كان الأصمعي يُقدمه على طبقته،لولا إسرافه في شتم السلف، وكذلك كان أبو عبيدة، وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما.

ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم، الذي كان يشتمل على الناس إذا ذكر السيد الحميري أو شعره، والذي كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به، على أن يتناقلوا شعره سرًا بما بينهم، فمصدر هذا الخوف شيئان: أحدهما الدين، والآخر السياسة. وما رأيك في رجل لم يدع نقيصه من النقائص، ولا مأثمة من المآثم، ولا لونًا من ألوان العيب، إلا رمي بها خيرة المسلمين وسلفهم الصالح، لا يستثني من هؤلاء جميعًا إلا بني هاشم وشيعتهم! فأما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبي، مهاجرين وأنصارًا، فلم يسلموا من لسانه، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه. أفتظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون أيام المنصوري والمهدي، على قرب عهدهم بالسلف، وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه، كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعوه، دون أن يأخذهم الألم، وينالهم الاشمئزاز، ويصيبهم شيء من الحرج في دينهم، يصرفهم عن هذا الشعر صرفًا!

أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة، لأبين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل علي، أيام السيد الحميري، وليس أدل على ذلك، ولا أنطق به، ولا أبلغ في وصفه، من هاتين الرسالتين اللتين تبادلهما المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوي حين خرج بالمدينة. هاتان الرسالتان اللتان أرويهما على طولهما، تصفان لك هذا العداء الشديد، الذي كان يقسم بني هاشم قسمين: قسما يوالي العباسيين، وقسمًا يوالي العلويين، وهما

على هذا لتبينان لك شيئا آخر أشرت إليه في فصل مضي، وهو النظرية السياسية والدينية والتي كان يعتمد عليها العباسيون في إقامة ملكهم، والتي دافع عنها مروان بن أبي حفصة، ودافع عنها أبان بن عبد الحميد، والنظرية السياسية الدينية التي كان يعتمد عليها العلويون في المطالبة بحقهم، والتي قامت عليها الثورات، وسفكت من أجلها الدماء، واستغلها الفرس لأهوائهم وشهواتهم السياسية.

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة، كتب إليه المنصور يرغبه ويرهبه، ويخوفه عاقبة الخروج والبغي، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأي الجماعة.

فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد عبد الله المهدي، إلى عبد الله بن محمد.

﴿ **طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ وأنا أعرض عليك هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا. وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا عليا كان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا، وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم، إن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم،ومن السلف أولهم إسلامًا على، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة،وأول من صلى القبلة، ومن النبات خيرهن فاطمة، سيدة نساء أهل الجنة، وإن هاشما ولد عليا مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين، وإن سول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسبًا، وأصرحهم أما وأبا، ولم تُعْرق فيّ العجم، ولم تتنازع فيَّ أمهات الأولاد. فمازال لله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذابا في النار. وأنا ابن خير الأخيار، وأبن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار، ولك الله علىَّ إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي، أن أؤمنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته، إلا حدا من حدود الله، أو حقا لمسلم أو معاهد. فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك، وأوفي بالعهد؛ لأنك

أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته لرجال قبلي. فأي الأمانات تعطيني! أمان بن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم"!

فانظر إلى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي، لأن أباهم كان وصي النبي، ولأن أمهم بنت النبي، وما كان لغيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء، ثم انظر كيف افتخر بمكانة من النبي في الإسلام والجاهلية، وبهذه الكرامة التي خص الله بها أهل البيت. وكيف ذكر أنه ابن خير الأخيار،وخير الأشرار، وخير أهل الجنة، وخير أهل النار، يريد أبا طالب، الذي مات ولم يُسلم، فيروي أنه أقل أهل النار عذابًا، ثم انظر كيف ختم بهذا التعبير، يصف فيه المنصور بأنه نقض العهد، وخان الذمة مع قوم آمنوه، فقتل منهم من قتل، وسجن منهم من سجن.

وكان وقع هذا الكتاب شديدا في قصر المنصور، فقد انتدب الكتاب والأمراء للرد عليه، وأبى المنصور إلا أن يرد بنفسه، فكتب هذا الكتاب.

(بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء، لتُضلَّ به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعَصبَة والأولياء، لأن الله جعل العم أبًا، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن، كانت آمنة أقربهن على علمه، لما مضى منهم، واصطفائه لهم.

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يزرق أحدًا رزق الإسلام، لا بنتا ولا ابنا، ولو أن أحدًا رُزِق الإسلام بالقرابة، رُزِقه عبد الله، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء؛ قال الله عز وجل: "**إنك لا تهتدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين**" ولقد بعث الله محمدًا عليه السلام وله عمومة أربعة، فأنزل الله عز وجل: "**وأنذر عشيرتك الأقربين**" فأنذرهم، ودعاهم، فأجاب اثنان، احدهما أبي، وأبي اثنان: أحدهما أبوك، فقطع الله ولا يتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلاَّ ولا ذمة ولا ميراثًا.

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابًا، وابن خير الأشرار، وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار ولا ينبغي لمؤمن بالله أن يفخر بالنار. وسترد فتعلم، "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

إما من فخرت به من فاطمة أم على، وأن هاشما ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن، وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة، وزعمت أنك

أوسط بني هاشم نسبًا، وأصرحهم أما وأبا، وأنه لم تلدك العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرًا، وانظر ويحك أين أنت من الله غدًا، فإنك قد تعديت طورك، وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا، وأولا وآخرًا، إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده، وما خيار بني أبيك خاصة، وأهل الفضل منهم، إلا بنو أمهات أولاد، وما وُلد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين،هو لأم ولده، ولهو خير من جدك حسين بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل ابن محمد بن على وجدّتُه أم ولد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر، وجدّتُه أم ولد، ولهو خير منك.

أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول في كتابه: "**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**". ولكن بنو ابنته، وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة، فكيف تورِّث بها! ولقد طلب بها أبوك بكل وجه، فأخرجها نهارا، ومَرَّضها سرا، ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون، وأما ما فخرت به من على وسابقته، فقد حضرتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة، فأمر غيره بالصلاة،ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل، فلم يأخذوه، وكان في الستة فتركوه كلهم، دفعا له عنها، ولم يروا له حقا فيها. أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقُتل عثمان وهو له مُثَّهِم، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكل وجه، وقاتل عليها، وتفرق عنه أصحابه، وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما، وأعطاهما عهده، وميثاقه فاجتمعا على خلعة. ثم كان حسن، فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حِلِّه. فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه، وأخذتم ثمنه، ثم خرج عمك حسين بن علي علي ابن مَرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه، وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أميه فتلوكم، وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قُتل يحيي بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم، وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء من المحامل، كالصبي المجلوب إلى الشام حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسنينا سلفكم وفضلناه، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه، للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر، وليس ذلك كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلما منهم، مجتمعا عليهم بالفضل، وابتلى أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تعلن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له، وذكَّرناهم فضله، وعنَّفناهم وظلمناهم بما نالوا منه. ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته،

فنازعنا فيها أبوك، فقضي لنا عليه عمر، فما نزل عنها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربه، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله، وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل له، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره، فكان وارثه من عمومته،ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده، فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في الجاهلية ولا إسلام جاء والعباس يموت أبا طالب وعياله، وينفق عليهم، للأزمة التي أصابته، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات طالب وعقيل جوعا، وللحق جفان عتبة وشيبه، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنك العار والسُّبة، وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدى عقيلا يوم بدر، فكيف تفخر علينا وقد عُلناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم، فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا إلا نفسكم. والسلام عليك ورحمة الله). (الطبري جزء تاسع).

أترى إلى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه، وأن يقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين. ثم أترى إلى نظرية العباسيين في خلافتهم، هذه التي تقوم على أن العم أ؛ق بالوراثة من البنت، وعلى أن العباس قد ورث النبي، فأبناءه يرثونه، وعلى أن بني على قد نزلوا عن حقهم في الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم، وغيرهما من الشعراء السياسيين لبني العباس، فالمنصور هو الذي وضع هذه النظرية، واحتج له بالفقه والسنة، وجعلها مذهبا سياسيا ودينيا ناضل عنه الشعراء.

ثم انظر إليه كيف عير العلويين نكرانهم للجميل، وكفرهم للنعمة، فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم، ويطلبون بدمائهم، حتى أدركوا الثأر، ومحو العار، وأذلوا دولة بني أمية، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقا وجحودًا.

ولسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين في هذه القضية، فذلك شيء لا يعنينا الآن، وإنما نريد أن نمثل العداء الذي كان بين هاتين الأسرتين، ونحسب أن هذين الكتابين يمثِّلانه تمثيلا قويًا، وأنت تعلم أن الحرب التي بين المنصور ومحمد هذا، حتى قتل محمد في المدينة، وقتل أخوه إبراهيم في البصرة، وكل هذا يبين لك إلى أي أحد كان الناس يخافون من رواية الشعر الذي يدافع عن العلويين، ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة، في ظل رجل قوي كالمنصور.

على أن شاعرنا السيد الحميري، لم يكن من أنصار الحسن والحسين، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين، وإنما كان من الكَيْسانية، الذين كانوا ينصرون البن الثالث من أبناء على، محمد بن خولة الحنفية، والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت، وإنما تغيب عن الناس، واحتجب عنهم حينًا، وسيعود فيملأ الأرض عدلا، كما ملئت جورًا، فلم يكن على السيد

الحمير بأس أن يمدح بني العباس، ويتقرب منهم، ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد.

ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم، وهي أنه كان سخيفًا ضعيف العقل، شديد الإيمان بالخرافات والأوهام ويظهر أن هذه الخصلة جاءته من مذهبه نفسه في الرجعة، فقد أسرف في هذا المذهب، بما يُقبل وما لا يقبل، فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين، رضيه العقل أو لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رضيه العقل أو لم يرضه، وكان يكفي أن يسمع رجلا من أهل القصص ورواة الأساطير، يروي كرامة من الكرامات، يضيفها إلى أحد العلويين، حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف، والنعي عليه،

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه، ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه، وهي أنه كان يستبيح ضروبًا من اللهو المنكر، ويسرف في شرب الخمر، وغير ذلك من ألوان العبث، لا لأنه كان يجحد الدين أو يزدريه، بل لأنه كان يُدل على صاحبه الدين. كان يحب النبي وآله، ويمنحهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك، وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه، لما قدّم بين يديه من مدح العلويين، ونصرهم على خصومهم، وكان بنو هاشم وبنو على خاصة يُطمعونه في ذلك، ويعترفون له به، فإذا ذكر لهم أنه يلهون ويشرب الخمر، قالوا: وأي ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت! بل قال أحدهم إن مَنْ أحب آل علي لم يَزِلّ له قدم إلا ثبتت له أخرى. وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمنًا في دينه ودنياه، يعتمد في دينه على العلويين، ويعتمد في دنياه على العباسيين، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أن العباسيين يتقون شره، ويؤثرون مدحه على هجائه، وكان من معاصريه من يكره ذلك، ويمقته كل المقت، ويضمر للسيد عداء وحقدًا لا يعدلهما عداء ولا حقد. ومن هؤلاء سوَّار بن عبد الله العنبري، قاضي البصرة للمنصور، فقد كان العداء بينه وبين السيد شديدًا، وكان قد أجمع ألا يَقبل للسيد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة، وكان السيد قد هجاه، فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور، فنهاه عنه، وأمره أن يذهب إلى القاضي، فيعتذر إليه، وأبى القاضي أ يقبل معذرته، فاستأنف السيد الهجاء، وألح فيه. ويقال إن سوارًا أعد شهودًا على السيد بالسرقة، ليقطع يده فعلم السيد ذلك، فجزع وفزع إلى المنصور، فعزل المنصور سوارًا من القضاء للسيد أو عليه، ولم يلبث سوار أن مات، فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه. وتستطيع أن تقرأ هجاء السيد لسوار في الأغاني، فهو كثير، لا أروي منه شيئا، لأني قد أطلت، بل لست أروي من شعر السيد إلا أبياتا تمثل لك مهذبه

الشعري. على أني أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية إلا بشيئين اثنين:

أحدهما الإكثار الذي لم يشاركه فيه إلا بشار وأبو العتاهية، فقد زعم الرواة أن قصائده في آل على كادت تبلغ الثلاثة الآلاف.

والآخر أنه كان سهلا مطبوعًا، شديدة النفرة من الغريب، وقد سئل عن ذلك، فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاما يفهمه الناس، على أن يقول كلاما يعجب به الرواة. وهذا طبيعي بالقياس إلى شاعر سياسي، يدافع عن حزب مضطهد، كالسيد الحميري، فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم، وإنما ينظمه للعامة، الذين يريد أن يتخذ منهم أنصارًا.

وانظر إلى هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين:

امـــــرر علـــــى جـــــدت الحســـــين فقـــــل لأعظمـــــه الزكيـــــة

آأعظمـــــا لا زلـــــت مـــــن ... وطفـــــاء ســـــاكبة رويـــــة
وإذا مـــــــررت بقبـــــــره ... فأطـــــل بـــــه وقـــــف المطيـــــة
وابـــــك المطـــــر للمطهـــــ ... ـــــر والمطهـــــرة النقيـــــة
كبكـــــاء معولـــــة أتـــــت ... يومـــــا لواحـــــدها المنيـــــة

وانظر إلى هذه الأبيات، التي بعث بها إلى المهدي، يسأله ألا يعطي آل أبي بكر وعمر من مال الدولة:

قـل لابـن عبـاس سـمى محمـد ... لا تعطـين بـن عـدي درهمـا
احـرم بنـي تـيم بـن مـرة إنهـم ... شـر البريـة آخـرا ومقـدما
إن تعطهم لم يشكروا لك نعمة ... ويكـافئون بـأن تـذم وتشـتما
وإن ائتمنـتهم أو اسـتعملتهم ... خـانوك واتخـذوا خراجـك مغنمـا
ولـئن منعـتهم لقـد بـدءوكم ... بـالمنع إذا ملكـوا وكـانوا أظلمـا
منعـوا تـراث محمـد أعمامـه ... وبينـه وابنتـه عديلـة مريمـا
وتـآمروا مـن غيـر أن يستخلفوا ... وكفـى بمـا فعلـوا هنـا لـك مأثمـا
لـم يشـكروا لمحمـد إنعامـه ... أفيشـكرون لغيـره إن أنعمـا
والله مَـنَّ علـيهم بمحمـد ... وهـداهم وكسـا الجنـوب وأطعمـا
ثـم انبـروا لوصـيه ووليـه ... بـالمنكرات فجرعـوه العلقمـا

وانظر إلى هذه الأبيات يهنئ بها أبا العباس السفاح:

دونكموهـــا يـــا بنـــي هاشـــم فجـــددوا مـــن عهـــدها الدارســـا
دونكموهـا لا عـلا كعـب مـن كـــان علـــيكم ملكهـــا نافســـا
دونكموهـــا فالبســـوا تاجـــا لا تعـــدموا مـــنكم لـــه لابســـا
لـــو خيـــر المنبـــر فرســـانة مـــا اختـــار إلا مـــنكم فارســـا
قـــد ساســـه قـــبلكم ساســـة لـــم يتركـــوا رطبـــا ولا يابســـا

والآن وقد فرغنا من شعراء المجون والسياسة في هذا العصر، فسنحدثك عن شعراء آخرين لم يسلكوا في شعرهم مجونا ولا سياسة، وإنما ذهبوا مذهب غيرهم من الشعراء.

obeikandl.com

القديم والجديد [1]

تقرأ في الرسائل الفارسية "لمنتكسيو" رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة. تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء، الذي كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والجديد، وحول القدماء والمحدثين. نجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة، ويكلفون بها. قد ظهر حبهم إياها، وكلفهم بها، حتى أنشئت ا،دية خاصة يختلف إليها الناس، يقرءون الصحف، ويتناقلون الأخبار في بعضها، ويلعبون بالشطرنج في بعضها الآخر، وتقدَّم إليهم كئوس القهوة في أثناء القراءة واللعب. ومن بين هذه الأندية ناد خاص، يظهر أن للقهوة فيها شيئا يشحذ العقل، وينبه الخاطر، ويزيد البصيرة نفوذا، والذكاء توقدا، والألسنة انطلاقا، فالذين يختلفون إلى هذا النادي، ويتناولون القهوة التي تقدم فيه، أفصح الناس لسانا، وأعذبهم بيانا، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدال، فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلن، وهم يتقاذفون ويتشاتمون، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشاتمون، كل ذلك في ألفاظ مختارة منتقاة، تقع وَقع الصواعق، وتفذ نفوذ السهام وكل هذه المناقشة، وكل هذا العنف، وكل هذا الجدال، إنما يدور حول شارع يوناني عاش أو لم يعش منذ ألفي سنة، يُكبِره بعضهم، حتى يبلغ به منزلة لا تعدلا منزلة، ويحقره بعضهم، حتى يبلغ به من الخسة دركًا ليس دونه درك، وهم يختصمون ويتنابذون ويقتتلون، دفاعًا عن هذا الشاعر، أو هو ما عليه. ويغتبط الكاتب بأنه ليس هذا الشاعر، ويحمد الكاتب الظروف التي أماتت هذا الشاعر، قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته، فلو قد أدركها لقتلته، أو لنالته بشر من الموت، إن كان هناك شر من الموت.

على هذا النحو يتحدث "متسكيو" عن أدباء الفرنسيين، الذين كانوا يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين، ويظهر أن عبث "منتسكيو" وسخريته من هؤلاء المختصمين، وأن عبث غير "منتسكيو" وسخريته من هؤلاء المختصمين، لم يصرفاهم عن الخصومة، ولم يلهياهم عن القديم والجديد، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر، كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر، وكما اختصموا من قبل ذلك، وكما اختصموا من بعده، حتى انتصر على قديم، ثم أصبح هذا الجديد قديمًا، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم.

---

(١) نشرت بالسياسة في ١ رجب سنة ١٣٤٢- ٦ فبراير سنة ١٩٢٤.

ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبدًا في كل لغة، وفي كل جيل، وحول كل أدب، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذي يتصرف فيهما حظ من الحياة؛ وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد أشكالا مختلفة، وصورًا متباينة، تمثل العصر الذي تنشأ فيه، والظروف التي تحيط بها، ولكنها مهما تختلف أشكالها، وتتباين صورها، ومهما تختلف العصور التي تنشأ فيها، والظروف التي تحيط بها، خصومة بين القديم والجديد، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هي حياة، ولا منصرف عنها، لأنها الحياة.

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل في مجلة "الهلال"، التي صدرت أول هذا الشهر، وكاتب هذا الفصل الذي نسجل مسرورين أنه ممتع، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، كتبه يدافع به عن المذهب القديم في الأدب، لأن كاتبًا آخر هو الأستاذ سلامة موسى، كتب في مجلة "الهلال"، التي صدرت في الشهر الماضي فصلا عن الأستاذ الرافعي، هاجم فيه المذهب القديم في الأدب مهاجمة عنيفة، وجعل فيه الأستاذ مصطفى الرافعي زعيما من زعماء هذا المذهب القديم، فلم يكن بد للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف، ثم تساءل: فيم يختصم الكاتبان؟ وما أصل هذا العنف في خصومتها؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر في الأدب القديم، أو في الأدب الجديد؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة "الهلال"، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي، وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ، وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة، إنما هي صحفية الأدب في "السياسة"، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له، بعث بها إلى "السياسة" تحت عنوان: "أسلوب في العَتْب"، وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب، وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة، انتهت إلى الشتم والتنابذ، ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت "السياسة" لكاتب أديب من كتاب فلسطين، هو الأستاذ خليل السكاكيني، رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد، وحول الإيجاز والإطناب، تناول فيها بالنقد كاتبا أدبيا من كتاب سورية، هو الأمير شكيب أرسلان، فرد عليه الأمير ردا طويلا، واشتدت المناقشة بين الكاتبين، حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل. ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعي في مجلة "الهلال"، فعده مع الأمير شكيب أرسلان، من زعماء المذهب القديم، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندي السكاكيني، على أنه من أنصار المذهب الحديث.

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الأدب، ويخطئ من يظن أن الخصومة ستنتهي غدًا أو بعد غد، ويخطئ من يسأله نفسه عن قيمة هذه الخصومة، وعن آثارها الحسنة أو السيئة، فستسمر هذه الخصومة في الأدب العربي، كما استمرت في الآداب الأخرى، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه، وستنتج نتائجها التي أنتجها في كل زمان، وفي كل مكان، فينتصر قديم على جديد، ثم يصبح هذا الجديد قديمًا، وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر، ينتصر متى آن له الانتصار، وستظل الحال كذلك ما دام اللغة العربية والأدب العربية حظ من حياة.

هذه الخصومة إذن مشروعة، سواء أكانت نافعة أم لم تكن، فليس الأدب العبي بدعًا من الآداب، وليس الأدب العربي العصري بدعًا من الآداب العربية المختلفة. فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي، وليختصم الأدبيان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان، ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم: فيم يختصمون؟ وأن نطلب إليهم، في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة، حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا، فقد ظهر لنا إلى الآن، أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء، لم يستطيعوا بعد أن يحددوها، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي، فتجده يسأل ما "المذهب الجديد"؟ وما "المذهب القديم"؟ ويحاول أن يتبين هذين المذهبين، وما بينهما من فروق. ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع، بينة الحدود، لما كلف نفسه هذا السؤال، ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل. وقل مثل هذا في الخصومة بين الأدبين خليل السكاكيني، وشكيب أرسلان: فهما يختلفان في الإيجاز والإطناب والمساواة، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية، قد عمد إليها أكبر الكتاب، وأرفعهم قدرًا، منذ كان ا لنثر العربي إلى الآن، فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك. ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية، ولكن له مقامه، فلا ينبغي أن يعمد إليه الكاتب، ولاسيما في هذا العصر. إلا بمقدار، وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية. ويدور المختصمون جميعًا حول الذوق، دون أن يحددوا هذا الذوق. أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ما هو؟ وما حده؟ وما الذي يريدون منه؟ ولا تل أن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال، فنحن تعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه، وأشد غموضا من أن نظهر عليه، وانظر إلى ما يقول في الذوق: "وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعًا.." نعترف بأننا لا نفهم هذا الكلام، بل نعترف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم. فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق والفهم

لفظان يدلان على معنى واحد، وإذن فليسا شيئين وإنما هما شيء واحد، هو الفهم، وإذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد، تدل عله ألفاظ مختلفة. نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه ا لجملة، ولمن نذقها، وإذن فنحن لا نستطيع أن نعتقدها، ولا نحكم فيها، لأن الذوق هو الفهم، والفهم هو الحكم، والنقد هو الذوق والفهم معًا، وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور. فما زال الأستاذ الرافعي مطالبًا بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق، ونسحبه يحتاج في توضيحها إلى عناء كثير، ذلك أنه يخيل إلينا أن الذوق شيء، والفهم شيء آخر، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم، فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها، وآية ذلك أنا نفهم كثيرا من كلام الأستاذ الرافعي، دون أن نذقه أو نعجب به. وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا، فنزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة، دون أن نفهمها، وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير، فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى، ويطربون لها، يفهمونها جميعًا، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى، فيطربون ويتأثرون، وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الأخصائيون. فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئا مختلفان، قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من العشر أو فصلا من النثر وتجب بهما، وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتَّاب التكلف، أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين، فتفهم النظم، وتفهم النثر، ولكنك تكرههما وتسخط عليها السخط الشديد، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى، فتعجب وتطرب، دون أن تفهم ما أراد الموسيقي.

وللأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي، محتاجة إلى شيء من المناقشة، ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس. انظر إله مثلا يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي، وقوة في اللغة و الأدب الأجنبي؛ وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد، إنما هم قوم أضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم، مصدر تورُّطهم في فنون سخيفة من القول، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد، وإنكارهم لمذهب القديم،ضربًا من الاعتذار لأنفسهم، ولونًا من ألوان الغرور بأنفسهم أيضا.

نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم،ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم إن صحت نظريته السابقة، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد، وهو إنما أخطأ الفهم، لأنه أخطأ الذوق، أو هو إنما أخطأ الذوق، لأنه أخطأ الفهم، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم، أو حول الذوق الذي هو الفهم، حتى تتعبا، فتسقطا معا، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء، ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال، فما كان له أن يحمن فيحسن الحكم، دون أن يفهم ويذوق، وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحيانًا، فتخطئه الإصابة في الحكم. ونظن أن للأستاذ الرافعي حظا من الإنصاف، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس له، وأن قوهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا "فولتير". وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفًا، وليس اعتذار لأنفسهم، وليس تعصبًا للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه. وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي كما يفهم الأدب الإنكليزي،ويستطيع أن يحم فيهما عن فهم هو الذوق، أو ذوق هو الفهم، أو فهم ليس ذوقًا، أو ذوق ليس فهما، وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن ننفهم الأدب العربي، وأن نفهم الأدب الفرنسي وأن نحن فيهما أحيانا عن ذوق وفهم، أو عن فهم دون ذوق، أو عن ذوق دون فهم. ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعي، وأنصار المذهب الجديد، ضعافا في اللغة العربية وآدابها، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد، وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور، تدل عليه آثارهم وما ينشرون، فما رأي الأستاذ في هؤلاء، وما أصل مذهبهم الجديد، وهم يجهلون اللغات الأجنبية، ولا يتعصبون لها؟ ثم ما لنا نذهب بالأستاذ بعيدا عن الموضوع الذي أتقنه وبرع فيه؛ فلسنا نشك في أن الأستاذ أتقن الأدب العربي، وأحسن روايته وفهمه وتقليده، وأسرف في هذا التقليد، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد، فكان القرآن الكريم جديدًا، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها، وتجددت الآداب العربية غير مرة، يصرح بها، ولكنه في الوقت نفسه يزعم أن أحدًا من العرب وأدائهم لم يذكر مذهبا جديدًا ولا قديمًا، وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة، دون أن يشعر العرب بهذا التجدد، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه. والحق أن الآداب تجددت غير مرة، وأن العرب شعروا بهذا التجدد، وأنهم ذكروه، واختصموا فيه، كما يختصم به الأستاذ الرافعي وأصحابه الآن. وقد كتبنا في هذا المكان من "السياسة" فصولا طوالا في العام الماضي، فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بني العباس. وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة "المذهب الجديد" و "المذهب القديم"، فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد، ولم

يكروهما، ولم يختصموا حولهما، وما معنى لفظ "البديع"؟ وهل كان البديع جديدًا أم هل كان قديمًا؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال؟ وهل امتاز بالبديع من الكتّاب والشعراء قوم عَلَوا فيه، فرضي عنهم قوم، وأنكره آخرون؟ أم هل قبله الناس جميعًا، وأخذوا منه بحظوظ متساوية؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر، فهل يستطع أن يعلل لنا هذا الاختصام؟ فليس من شك في أن أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا في اللغة العربية وآدابها، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف، بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه، أكان أبو نواس ضعيفا في اللغة العربية وآدابها؟ أكن أبو تمام ضعيفا في اللغة العربية وآدابها؟ أكان المتنبي ضعيفا في اللغة العربية وآدابها؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس، وانتصر للجديد، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون. ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد، كانا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما، كما يفهمون الفرنسية وآدابها، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية، ومنهم من يؤثر الفرنسية، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء، ومنهم من يؤثر من يؤثر مذهب المحدثين، فليس المذهب الجديد قائما على جهل أو ضعف أو تعصب،وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله، قائم على الفهم قبل كل شيء، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم، ويشعرون بأنهم يحيون، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة، يريدون أن يفهموا الناس، وأن يفهمهم الناس، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية.

ورأي آخر للأستاذ الرافعي يحسن أن نناقشه ولو قليلا. فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد، وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد، ليأخذا منه بالحظ الموفور، فيسلكوا فيه سبيل القدماء، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد، ولغته الجديدة، فيدخلوا في اللغة أو الأدب ما ليس من حقهم أن دخلوه، ذلك لأن اللغة موروثة، وهي ملك الملايين من الأعمار، ولطائفة طويلة من العصور، فيجب أن نقبلها كما ورثناها، دون أن نُدخل فيها شيئا من عند أنفسنا.

ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عقما، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها، ونتخذه أداة للفهم والإفهام، حظا يجعلها ملكا لنا، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها، ونزيد فيها، كلما دعت إلى ذلك الحاجة، أو قضيت ضرورة الفهم والإفهام، أو كلما دعا إليه الظرف الفني، لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة، التي تفسد اللغة إذا تجاوزناها. فلس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف

إلى اللغة لفظا جديدا، أو ندخل فيها أسلوبا جديدا ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلا من أصول اللغة، أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها، يضيفون إليها، ويدخلون فيها، لما نمت اللغة، ولما شاعت، ولما استطاعت أن تفي بحاجات أهلها، التي تتجدد وتتنوع بتجدد الأزمنة، وتبدل الظروف، والكتاب والشعراء في كل عصر وفي مكان، يضيفون إلى لغاته، ويدخلون فيها، ويجددونها، فمنهم من يسعده الحظ، فتروح ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس، ويتهالكون عليها، حتى تشيع وتصبح جزءًا من اللغة المألوفة، ومنهم من يخطئه هذا الحظ، فلا يحفل الناس بما أدخل، ولا بما أضاف.

ومما يحسن أن ينبَّه إليه الأستاذ الرافعي،في رفق ولين أيضًا، أنه يسرف في سوء الظن بأوربا وأمريكا، وفي سوء الحكم عليهما، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوربا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها، فهو يخطئ في الحكم على أوربا وأمريكا، وهو مسرف حين يظن "أن في أوربا وأمريكا من الغفلة مذهبًا، ومن الرقاعة مذهبًا، ومن تسفّل الشهوات مذهبًا، ومن الجنون مذهبًا، ومن كل شذوذ مذهبًا، ومن غير المذهب مذهبًا..." هو مسرف في ذلك، فلست أوربا وأمريكا من السوء بحيث يظن، ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد، لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله. ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوربا وأمريكا، ليس شيئا جديدًا، وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر، ومنذ فكر. ويسوءنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر، ومنذ فكر أيضا، فما استطاعت الديانات أن تقضي على اختلاف المذاهب، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضي على الديانات، وإنما الإنسان إنسان، فيه الخير وفيه الشر، فيه الإيمان وفيه الإلحاد، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة، فيه الإباحة التي لا حد لها، وفيه التحرُّج الشديد.

والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم، مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر، أو ينالهما منه ضيم، ونظن من السخف والإطالة التي لا تجدي، أن نهوِّن على الأستاذ، ونهدئ من روعة، فليس ما يدعوا إلى الإشفاق، ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد، المتشددين في نصره، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه، كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه. ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة، ولا يصرف الناس عنها، ولا يغيره من أصولها وقواعدها، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية، ومنة ذكر الحياة والنمو فقد فقد ذكر التطور، ومن ذكر التطور وآمن به، فهو من أنصار المذهب الجديد، رضي ذلك أو أنكره.

فهرست الموضوعات

القدماء والمحدثون: الجهاد بين القديم والجديد ٢

القدماء المحدثون: الشعراء في العصر الأموي ١٢

القدماء والمحدثون: الشعر في العصر العباسي ١٧

القدماء والمحدثون: الأندية الأدبية..... ٢٣

القدماء والمحدثون: الأندية الأدبية..... ٢٩

القدماء والمحدثون: أبو نواس ٣٦

القدماء والمحدثون: تمثيل أبي نواس لعصره ٤٥

إلى الأستاذ طه حسين..... ٥٢

رد على نقد: كيف نفهم التاريخ..... ٥٦

الخمر قبل أبي نواس ٦٣

الخمر عند أبي نواس..... ٧٤

الخمر عند أبي نواس..... ٨٣

الغزل في شعر أبي نواس..... ٩٢

الغزل عند أبي نواس ٩٧

جد أبي نواس ١٠٤

obeikandl.com

خاتمة القول في أبي نواس ١١٢

الوليد بن يزيد ١٢١

مطيع بن إياس ١٢٨

حماد عجرد ١٣٨

الحسين بن الضحاك ١٤٨

بشار بن برد ١٦٠

شعر بشار ١٦٧

والبة بن الحباب – أبان ابن عبد الحميد ١٧٩

مروان بن أبي حفصة – السيد الخميري ١٩٠

السيد الحميري– علويون، وعباسيون ٢٠١

القديم والجديد ٢١١

obeikandl.com

obeikandl.com

رقم الإيداع	١٧٠٤٤/ ١٩٩٨
الترقيم الدولي	ISBN 977- 02-5703-6

١/٩٨/١٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)